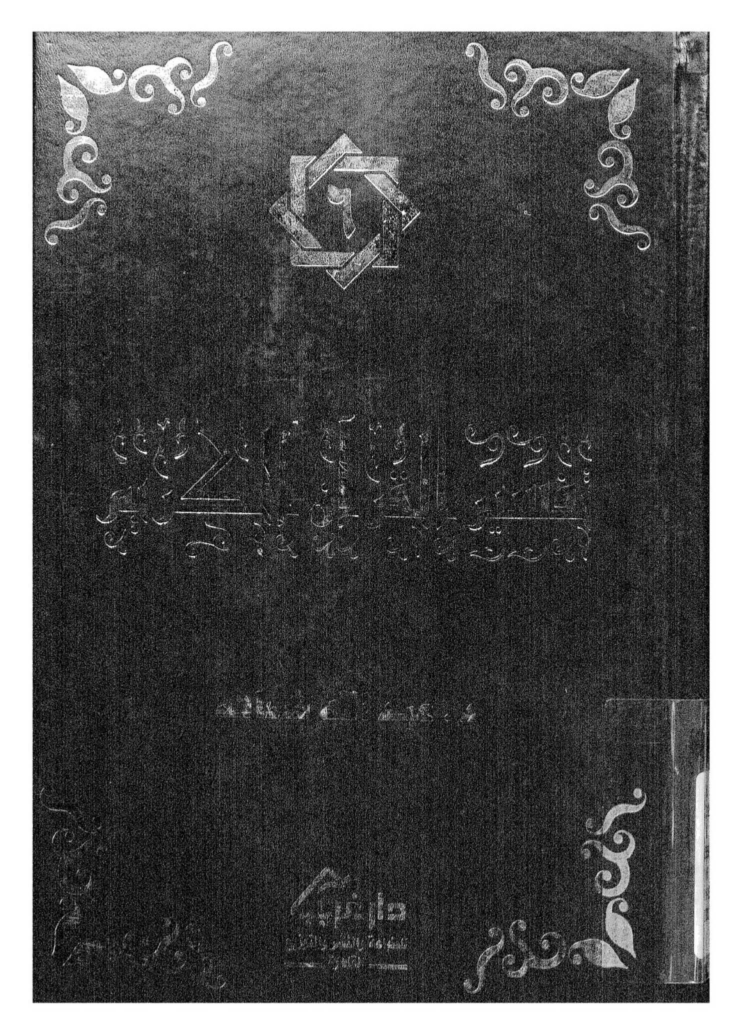


إهـــــــداء2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المفردات :

السبيل : الطريق .

الخوالف : المتخلفين . ويطلق أيضا على النساء والصبيان . وهو جمع خالفة .

وطبع الله على قلوبهم : ختم عليها حتى غفلوا عن وخامة العاقبة .

التفسير :

فى الآية السابقة على هذه الآية رفع الله الحرج والإثم والعقوبة ، عمن تخلفوا بأعذار ، من الضعفاء والمرضى والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه ، ثم بين سبحانه من يستحق المؤاخذة ؛ فقال :

٩٣- إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ ...الآية .

أى: إنما سبيل المحاسبة والمؤاخذة : لمن تخلفوا عن الجهاد ولا عذر لهم ؛ لأنهم قادرون بأشخاصهم على أداء هذا الواجب المفروض عليهم ؛ فهم ليسوا ضعفاء أو مرضى ، وهم قادرون بأموالهم على أن يجدوا الزاد والراحلة ، والسلاح وأدوات الجهاد ؛ ولكنهم آثروا الدعة والراحة والسلامة لأنفسهم وضنُّوا بالمال والنفس عن الجهاد والبذل فى سبيل الله .

فشتان بين من تخلف وهو مريض ، أو فقير عاجز عن الحصول على راحلة توصله إلى ميدان الجهاد البعيد ، وبين غنى سليم قادر يتخلف ؛ جبنًا ، وضعفًا ، ورغبة فى الإخلاد إلى النعيم والراحة ، والانضمام إلى قائمة المتخلفين عن الجهاد من النساء والأطفال .

لقد قال سبحانه فى الآية ٩١: لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .

ثم قال سبحانه فى الآية ٩٣ : إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : إنما طريق العقوبة والمؤاخذة على الذين يستأذنونك فى التخلف عن الغزو والجهاد ، وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ، قادرون على أن يجدوا ما يجهزون به أنفسهم .

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ .

أى : رضوا لأنفسهم أن يقبعوا فى المدينة ؛ فى جملة الخوالف من النساء والصبيان ، ومن لا يقوى على الجهاد إيثارًا للسلامة والراحة والدَّعة .

وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

لقد خالفوا أمر الله ؛ فخذلهم الله ، وسلب عنهم الهدى والتوفيق ، وطبع على قلوبهم فلم تُقبل على الهدى ، ولم ترغب فى الجهاد ، ولم تدرك فضل الجهاد وثوابه . وقريب من هذه الآية قوله تعالى : بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (المطففين: ١٤) . فهم عندما أعرضوا عن الله ؛ سلب الله عنهم الهدى وأغلق قلوبهم عن التفتح لقبول الحق.

فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسران .

★ ★ ★

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) ﴾

التفسير:

٩٤- يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ...الآية .

إخبار عن المنافقين بأنهم سوف يعتذرون إلى المؤمنين بالأعذار الباطلة ، إذا رجعوا إليهم من غزوة تبوك .

قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم : لا داعى لاعتذاركم لنا ؛ وفروا على أنفسكم مهانة الكذب ؛ فليس لكم عذر صحيح حتى نستمع إليه ونتقبله منكم .

لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ . لن نصدق أقوالكم .

قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ . قد كشف الله لنا عن حقيقتكم ، ووضح لنا أحوالكم ، ووضح لنا ما أنتم عليه من نفاق وفسوق وعصيان .

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ . فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشرّ ، أم تبقون عليه ، ولعله تحريض لهم على التوبة .

وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (التوبة: ١٠٥) .

أى: ثم ترجعون إلى الله العليم بكل شىء ؛ فيخبركم بما كنتم تعلمون فى الدنيا ويجازيكم عليه .

★ ★ ★

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

المفردات :

انقلبتم : رجعتم .

لتعرضوا عنهم : لتصفحوا عنهم .

فأعرضوا عنهم : فاتركوهم .

رجس : أى : نجس وقذر ، والرجس الخبيث من كل شىء .

ومأواهم : ومقرهم الذى يأوون إليه .

الفاسقين : الخارجين عن الطاعة .

التفسير:

٩٥- سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ...الآية .

أى : إنهم سيحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك ؛ ليؤكدوا ما جاءوا به من الأعذار الباطلة ، وغرضهم من ذلك أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبِّخونهم ، ولا يؤاخذونهم على التخلف ، ويظهرون الرضى عنهم .

فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ .

فاتركوهم أيها المؤمنون واجتنبوا مجالستهم ، ودعوهم وما اختاروه لأنفسهم ، لا على سبيل الصفح والعفو ، بل على سبيل الإهمال والترك والاحتقار .

إِنَّهُمْ رِجْسٌ . أى : جميع أعمالهم بخسة قبيحة ؛ فهؤلاء لما كانوا هكذا ؛ كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير ، والتحذير من الشر ؛ فليس لهم إلا الترك ؛ وقد جعلهم الله - سبحانه - نفس الرجس ، مبالغة فى نجاسة أعمالهم ، وسوء بواطنهم .

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

ومرجعهم ومقرهم فى الآخرة جهنم ، جزاءً عادلاً على نفاقهم وسوء أعمالهم .

٩٦- يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ.

أى : إنّ هؤلاء المنافقين يحلفون لكم كذبًا ؛ لترضوا عنهم وتصفحوا عنهم وتطمئنوا إليهم بعد الصفح عنهم ، ولكن الله ينهاكم عن الرضا عنهم ؛ لِفسْقهم ، وسوء نيّاتهم ، وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين منهم : جدّ بن قيس ، ومعتب بن قشير وأصحابهما ؛ أمر النبى المؤمنين ألاّ يجالسوهم ولا يكلموهم فامتثلوا . والتقدير : إن ترضوا عنهم على سبيل الفرض ، فإن رضاكم عنهم لن ينفعهم ؛ لأن الله غاضب عليهم .

★ ★ ★

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ ﴾

المفردات :

الأعراب : سكان البادية ، والعرب : أهل الحضر والبادية فهو أعم .

التفسير :

٩٧- ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا ... الآية .

الأعراب هم من سكن البوادى من العرب ؛ واحده : أعرابى ، والأنثى: أعرابية والجمع: أعاريب ، والعرب اسم جنس لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة ؛ بدوه وحضره . واحده: عربى .

قال الشوكانى : من استوطن القرى العربية ؛ فهو عربى ، ومن نزل البادية ؛ فهو أعرابى .

والمراد بالأعراب هنا : جنسهم لا كلّ واحد منهم ، بدليل أن الله تعالى قد ذم من يستحق الذم منهم ، ومدح من يستحق المدح منهم ؛ فالآية الكريمة من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده .

والمعنى: ٱلۡأَعۡرَابُ ، سكان البادية . أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا . من الكفار والمنافقين الذين يسكنون الحضر والقرى، وذلك لأن ظروف حياتهم البدوية ، وما يصاحبها من عزلة ، وكرٍّ وفرٍّ فى الصحراء ، وخشونة فى الحياة ..

كل ذلك جعلهم أقسى قلوبا ، وأجفى قولا ، وأغلظ طبعا ، وأبعد عن سماع كتب الله ، وما جاءت به رسله من ألوان الهداية والخير .

وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ . من الشرائع والأحكام ، بسبب ابتعادهم عن مجالس الرسول ﷺ ، وعدم مشاهدتهم لما ينزل عليه من وحى وهداية وآداب .

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ . فهو سبحانه مطلع على خفايا القلوب ؛ لا تخفى عليه طاعة طائع ، أو انحراف منحرف ، وهو يجازى كل إنسان بعمله : فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ . (الزلزلة: ٧، ٨) .

والآية دعوة لهؤلاء الأعراب ، أن يلتمسوا وسائل العلم والمعرفة والعمران والمدنية ، وكان ﷺ ينهى المسلم إذا سكن المدينة ؛ أن يعود منها إلى سكن البادية ، فسكن المدينة انضمام لجماعة المسلمين ، ومواكبة لما ينزل من الوحى ، ومشاركة فى حركة الإسلام وجهاده .

روى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال : «من بدا جفا»[١] .

وروى الإمام مسلم عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ فقال ﷺ : « نعم » ، قالوا : لكنّا والله ما نقبل ، فقال ﷺ : «وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[٢].

★ ★ ★

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

المفردات :

يتخذ : يعد ويعتبر .

مغرما : غرما وخسارة .

ويتربص : وينتظر .

الدوائر : جمع دائرة والمراد بها هنا : تقلب الزمان من حسن إلى سيئ ومعناها فى الأصل : ما يحيط بالشىء.

السوء : ما يسىء ويؤذى .

قربات : جمع قربة وهى ما يتقرب به العبد إلى ربه تعالى .

صلوات الرسول : دعواته ﷺ .

التفسير:

٩٨- وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ...الآية .

بعد أن بين سبحانه أن الأعراب فى جملتهم أشدّ كُفْرًا ونفاقًا ، بين فى هاتين الآيتين أنهما فريقان ، فريق يضمر الشرّ للمسلمين ، وفريق آخر مخلص فى إيمانه .

والمعنى : وبعض الأعراب جماعة منافقون ، يعدُّون النفقة خسارة ؛ فهى عندهم غرم لا غنم ، وينتظرون أن تحيط الدواهى والمصائب والحوادث بالمسلمين ؛ ليتخلصوا من الإنفاق .

عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ .

هذا وعيد من الله تعالى لهؤلاء الأعراب ، بأن تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم البلاء ؛ الذى تمنوه للرسول ﷺ وأصحابه ، وأنهم لا يرون فى المسلمين إلا ما يسوءهم من نصر ورفعة شأن .

وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . واسع العلم فلا تخفى عليه خافية مما أضمروه ، وهو محاسبهم ومجازيهم أشد الجزاء .

٩٩- وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ ... الآية.

هذا هو الفريق الثانى : وهو فريق مؤمن مخلص فى إيمانه وفى نفقته .

أى : وبعض آخر من الأعراب يؤمنون إيمانًا صحيحًا ، مثل : جهينة ومزينة ، وبنو أسلم وغفار .

وقال مجاهد : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. (التوبة : ٩٢) .

وهؤلاء الذين يعتبرون كل نفقة أنفقوها فى سبيل الله ؛ وسيلة إلى مرضاة الله ، ودعاء الرسول ﷺ لهم ، واستغفاره لهم ، حيث كان رسول الله ﷺ ، يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، عند أخذه الزكاة الواجبة ، والصدقات المندوبة ؛ ليوزعها على مستحقيها ، ولذلك كان من السنّة الدعاء للمتصدق بالخير والبركة .

أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ . أى : ألا إن إنفاقهم الصادر عن إخلاص ؛ قربة عظيمة لهم عند الله تعالى ، وفى هذا شهادة من الله بصحة معتقدهم ، وتصديق لرجائهم وتمنّيهم .

سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ . أى : سيشملهم برحمته وفضله ، أى : سيدخلهم فى جنته ورضوانه .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . أى : واسع المغفرة والرحمة ، لا يخلف وعده ؛ فهو يستر على ما فرط منهم من ذنب أو تقصير ، ويرحمهم بهدايتهم إلى صالح الأعمال المؤدية إلى حسن الختام والمصير .

★ ★ ★

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

التفسير:

١٠٠- وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ... الآية .

لما ذكر الله تعالى فضائل قوم من الأعراب ، ينفقون تقربًا إلى الله تعالى ، ومن أجل دعاء الرسول ﷺ ؛ أبان فضائل قوم أعلى منهم منزلة وأعظم ، وهى منازل السابقين الأولين .

فالسابقون الأولون من المهاجرين ، الذين هاجروا قبل صلح الحديبية ، فتقدموا على غيرهم فى الهجرة والنصر ، وأفضل هؤلاء : الخلفاء الراشدون الأربعة ، ثم العشرة المبشرون بالجنة ، وأول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق وزير الرسول وأنيسه فى الغار ، وأوّل الناس فى الإيمان والهجرة والجهاد والبذل والنصرة[٣] .

والسابقون الأولون من الأنصار ، هم أصحاب بيعة العقبة الأولى فى منى سنة ١١ من البعثة ؛ وكانوا سبعة ؛ ثم أصحاب بيعة العقبة الثانية ، وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين ، والذين سارعوا إلى الإيمان عند قدوم مصعب بن عمير ، وكان الرسول ﷺ قد أرسله بعد البيعة الثانية ؛ لينشر الدعوة الإسلامية بين أهل المدينة ، وقيل : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار : هم الذين صلُّوا إلى القبلتين ، أو من حضر بيعة الرضوان.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ .

أى : الذين اتبعوا السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار ، اتباعًا حسنًا فى أقوالهم وأعمالهم وجهادهم ؛ ونصرتهم لدعوة الحق .

قال الآلوسى : وكثير من الناس ذهب إلى أن المراد بالسابقين الأولين : جميع المهاجرين والأنصار، ومعنى كونهم سابقين : أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمين .

ويلاحظ أن الاقتداء بالصحابة ، هو الاقتداء بإحسان ، أى : إحسان الأعمال والنيَّات ، والظواهر والبواطن .

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ . فى إيمانهم وإخلاصهم ، فتقبل أعمالهم ورفع درجاتهم ، وتجاوز عن زلاَّتهم .

وَرَضُواْ عَنۡهُ . لقد منحهم الله الرضا والقناعة ، والسرور بمرضاة الله عنهم ، وبرضاهم عن ربهم وحبهم له .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

وَرَضُواْ عَنۡهُ . رضوان فوق رضوان من عند الله يحفهم به ، ويزيدهم نعيمًا إلى نعيم ؛ إذ جعل سبحانه رضاهم عنه بما أعطاهم معادلاً لرضاه عنهم ، حتى لكأنه سبحانه وتعالى ، يتبادل الرضا معهم ، فيرضى عنهم ويرضَوْن عنه ، فسبحانه ما أعظم لطفه ، وما أوسع فضلَه !

وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِى تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ .

أى : وأعد لهم فى الآخرة جنات تجرى من تحت قصورها أو أشجارها الأنهار ، خالدين فيها خلودًا أبديًا . قال تعالى : وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ . (الحجر: ٤٨) .

ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ .

هذا هو الجزاء الذى لا يعدله جزاء ، وهو الفوز الذى لا فوز يعدله أو يدانيه ؛ لقد آمنوا وثبتوا وتحملوا وقوف الجاهلية فى وجههم ؛ فاستحقوا رضوان الله فى الدنيا ، وجنة خالدة فى الآخرة ؛ وهذا هو الفوز العظيم .

وقد تكرر فى القرآن الكريم الثناء على المهاجرين والأنصار ومن اقتفى أثرهم من التابعين إلى يوم الدين ، ومن أمثلة ذلك الآيات ٨-١٠ من سورة الحشر وتبدأ بقوله تعالى : لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا ...

★ ★ ★

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

المفردات :

حولكم : أى : حول المدينة بلدكم .

مردوا على النفاق : أى : مرنوا عليه واعتادوه .

لا تعلمهم : لا تعرف حقيقة أمرهم ؛ لعراقتهم فى النفاق .

سنعذبهم مرتين : قبل الآخرة بالفضيحة وعذاب القبر .

ثم يردون إلى عذاب عظيم : ثم يردون فى الآخرة إلى عذاب بالنار عظيم .

التفسير :

١٠١- وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۚ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ... الآية .

أى : اذكروا أيها المؤمنون ، أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون ؛ فاحترسوا منهم، واحترسوا أيضًا من قوم آخرين يسكنون معكم داخل المدينة .

مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ۚ .

أى : مرن هؤلاء وأولئك على النفاق ، وبلغوا فيه مبلغًا ؛ جعلهم مهرة فيه حتى لان لهم أمره ، وسلس لهم قياده ، ولا تكاد تستعمل كلمة : مردوا إلا فى الشرّ .

لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ .

أى : لا تعرفهم أنت أيها الرسول بعنوان نفاقهم ؛ لأنهم بلغوا من المهارة فيه مبلغًا كبيرًا ، فلا يقف على سرائرهم إلا من لا تخفى عليه خافية .

سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ .

أى : سيتكرر عذابهم النفسى والبدنى ؛ فهم فى عذاب مستمر ، فقد تكفل الله بنصر الإسلام ؛ فكلما انتصر المسلمون فى غزوة ، أو تقدموا فى أمر ، أو ارتفع شأنهم ، أصاب المنافقين الإحباط والهوان ، ثم إن

هناك عذابًا آخر ينتظرهم على أيدى المسلمين ؛ حيث يجرفهم تيار الإسلام ؛ ويزعج أمنهم وسلامتهم ؛ ويخرجهم من ديارهم وأموالهم كما حدث مع اليهود ، وقد أطلق بعض المفسرين على اليهود : شياطين المنافقين ؛ إشارة إلى الآية الكريمة : وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . (البقرة: ١٤ ، ١٥) .

ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ .

ثم يرجعون فى الآخرة إلى عذاب غليظ ، هو عذاب النار فى الآخرة ، قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا. (النساء : ١٤٥ - ١٤٧) .

★ ★ ★

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

التفسير:

١٠٢ - وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ... الآية .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما قفل رسول الله ﷺ من غزوته، وكان قريبًا من المدينة ؛ ندموا على تخلفهم عن رسول الله وقالوا : نكون فى الظلال والأطعمة والنساء ، ونبى الله فى الجهاد واللأواء ، والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى ، ثم لا نطلقها حتى يكون نبىّ الله هو الذى يطلقنا، فأوثق سبعة منهم أنفسهم فى سوارى المسجد وبقى ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم ، فقدم رسول الله ﷺ من غزوته ، فمرّ بالمسجد فأبصرهم فسأل عنهم ، فقيل له : إنه أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا نبى الله، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم ؛ فقال ﷺ : لا أطلقهم حتى يأمر الله بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين ، فأنزل الله تعالى: وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فأطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم[٤] .

ومعنى الآية : ومن أهل المدينة قوم آخرون ، اعترفوا بتخلفهم عن الغزو ؛ إيثارًا للدعة وطلبًا للسلامة؛ مع إيمانهم وتصديقهم بما جاء به الرسول ﷺ .

خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا . أى : قدَّموا جهادًا سابقًا فى غزوات سابقة ، وقدموا طاعات لله ، ثم خلطوا ذلك بعمل سيئ ؛ هو تخلفهم عن غزوة تبوك ، ثم ندمهم وتوبتهم .

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . أى : يرجى أن يقبل الله توبتهم ، المفهومة من اعترافهم بذنوبهم .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . أى : إنه تعالى واسع المغفرة والرحمة لكل من ندم واستقام ، والتزم بطاعة الله تعالى.

★ ★ ★

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

التفسير:

١٠٣- خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... الآية .

قيل : هى صدقة الفرض ، وقيل : هى صدقة مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها ؛ لأنهم بعد التوبة عليهم ، عرضوا أموالهم على رسول الله ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التى خلَّفتنا عنك : فتصدق بها وطهرنا ، فقال : « ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا » فنزلت ، فأخذ منها الثلث وترك لهم الثلثين.

وأكثر الفقهاء : على أن هذه الآية نص فى فرضية الزكوات الواجبة ، أو إيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء.

قال الجصاص فى أحكام القرآن :

والصحيح أن هذه الآية فى الزكوات المفروضة ؛ إذ لم يثبت أن هؤلاء القوم أوجب الله عليهم صدقة دون سائر الناس ، سوى زكوات أموال ، وإذا لم يثبت بذلك خبر ، فالظاهر أنهم وسائر الناس سواء فى الأحكام والعبادات ، وأنهم غير مخصوصين بها دون غيرهم من سائر الناس ا هـ .[٥]

والمعنى : خذ أيها الرسول – وكل حاكم مسلم بعدك – من أموال هؤلاء التائبين ، ومن غيرهم ، صدقة مقدَّرة بمقدار معيَّن ، تطهرهم بها من داء البخل والطمع ، وتزكى أنفسهم بها ، وتنمِّى بها حسناتهم .

قال الإمام ابن كثير :

أمر الله تعالى رسوله أن يأخذ من أموالهم صدقة ، يطهرهم ويزكيهم بها وهذا عام ، وإن أعاد بعضهم الضمير فى أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم ا هـ .

وعند التأمل نجد أنه يمكن أن تكون الآية شاملة تشمل المعترفين بذنبهم ، وتشمل جميع من تجب عليهم الزكاة .

والمعنى : خذ أيها الرسول من هؤلاء المعترفين بذنبهم ، ومن سائر من تجب عليهم الزكاة المفروضة؛ صدقة معينة ، وهى مال معلوم من شخص معلوم تصرف فى مصارف معلومة ، أى مال زاد عن النصاب، من شخص معلوم هو مالك النصاب وما زاد عليه ، يصرف هذا المال إلى مصارف الزكاة من الفقراء والمساكين.

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا . أى : إن الزكاة أو الصدقة تطهر النفس من أدران الشح والبخل ، وتنمى الحسنات وترفع الدرجات ، وتسبب البركة والنماء فى المال وفى النفس ؛ وفى الحديث الذى رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة: «ما نقصت صدقة من مال»[٦] .

وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ . أى : ادع لهم واستغفر وترحّم ، بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم . والصلاة من الله على عباده : الرحمة ، ومن ملائكته : الاستغفار ؛ ومن النبىّ والمؤمنين : الدعاء .

إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ . أى : إن دعاءك تسكن له نفوسهم ؛ وتطمئن وتهدأ ؛ وتثق بأن الله قد قبل توبتها أو رفع درجتها ، وينبغى للإمام أو نائبه أن يدعو لكل من أحضر الزكاة أو الصدقة ، أو ساهم فى خير أو منفعة للمسلمين ، أو للفقراء والمساكين ، قال تعالى : **هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ** . (الرحمن: ٦٠) .

وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فهو سبحانه **سَمِيعٌ** لدعاء الرسول سماع قبول وإجابة ، و**عَلِيمٌ** بكل شىء فى هذا الكون ، ومطلع على قلوب العباد عند توبتهم أو عند إحضارهم الزكاة ويجازيهم على إخلاصهم .

★ ★ ★

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

المفردات :

ألم يعلموا : استفهام يراد به التقرير . أى : قد علموا .

يأخذ الصدقات : يقبلها ويثيب عليها .

وستردون : وسترجعون .

الغيب والشهادة : الخفى والظاهر .

التفسير :

١٠٤ - أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ .

ألم يعلم هؤلاء التائبون ، وجميع المؤمنين ، أن الله هو الذى يقبل توبة عباده ، ويتجاوز عن سيئاتهم، وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ . أى: يقبلها ويثيب عليها ويضاعف أجرها ، كما قال تعالى : مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (البقرة ٢٤٥) .

قال ابن كثير : هذا تهييج إلى التوبة والصدقة ، اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحقها ، وأخبر سبحانه وتعالى ، أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدّق بصدقة من كسب حلال ؛ فإن الله يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل جبل أحد كما جاء بذلك الحديث . فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل الصدقة ، ويأخذها بيمينه ، فيربّيها لأحدكم ، كما يربى أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»[٧] ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ ، وقوله : يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ (البقرة : ٢٧٦) .

وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ .

من شأنه سبحانه أنه تعالى عظيم التوبة على عباده ، كثير الرحمة بهم ؛ فذلك شأنه الدائم وسنته

المستمرة ، وقد أفادت آيات القرآن أنه سبحانه غافر الذنب وقابل التوب ، وحثت آيات القرآن على التوبة النصوح ونهت عن اليأس من رحمة الله ؛ قال تعالى : قُلْ يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الزمر: ٥٣) .

قيل فى سبب نزول هذه الآية ما يأتى :

قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس ، لا يُكلّمون ولا يُجالسُون ، فمالهم الآن؟ وما هذه الخاصة التى خُصُّوا بها فنزلت : أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ... الآية .

فالضمير فى يعلموا عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين .

١٠٥ – وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وقل أيها الرسول لهؤلاء التائبين ولغيرهم : اعملوا ؛ فإن عملكم لا يخفى على الله وعباده خيرًا كان أو شرًّا ؛ فأخلصوا عملكم لوجه الله .

والعمل أساس السعادة ، وسيرى الله عملكم سرًّا أو جهرًا ، وسيراه الرسول والمؤمنون إن كان جهرًا ، أو سيُطلع الله رسوله والمؤمنين على أعمالكم .

روى الإمام أحمد والبيهقى وأبو يعلى عن أبى سعيد الخدرى : «لو أنّ أحدكم يعمل فى صخرة صمّاء، ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس كائنًا من كان»[٨] .

وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ كما قال أبو داود والطيالسى . روى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم فى قبورهم ، فإن كان خيرًا ؛ استبشروا به ، وإن كان غير ذلك ؛ قالوا : اللهم ، ألهمهم أن يعملوا بطاعتك».

وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وستردّون يوم القيامة إلى الذى يعلم سرائركم وعلانيتكم ، ويعلم الغائب والحاضر ، والباطن والظاهر فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، ثم يجازيكم عليها إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، وهذا كلام جامع للترغيب والترهيب .

ويؤخذ من الآيات ما يأتى :

١- فرضية الزكاة التى أوجبها الله فى خمسة أنواع هى : زكاة المال ، وزكاة التجارة ، وزكاة المحصولات الزراعية ، وزكاة الماشية من البقر والغنم والإبل ، وزكاة الركاز : وهُو كلّ ما يستخرج من باطن الأرض مثل : البترول والمعادن .

٢- قبول الله للتوبة الصادقة ، وللصدقات الصَّادرة عن خلوص النية ، والإثابة عليها .

٣- كل إنسان مَجزِيٌّ بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، والعمل مشهود عند الله ورسوله والمؤمنين ، فى عالم البرزخ كما قال تعالى : يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ . (الحاقة: ١٨) .

★ ★ ★

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾

التفسير :

١٠٦- وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ... الآية .

نزلت هذه الآية بشأن ثلاثة من المسلمين ؛ تخلَّفُوا عن غزوة تبوك بدون عذر ؛ إنما قعد بهم الدَّعة والراحة ، وقد حاولوا أن يلحقوا برسول الله ﷺ فى الجهاد ، بيد أنّهم ترددوا حتى عاد الرسول ﷺ من غزوة تبوك ، وجاء المنافقون فاعتذروا أعذارًا كاذبة ، وقد قبل النبى ﷺ ظواهرهم ووكل سرائرهم إلى الله .

أما هؤلاء الثلاثة فقد صدقوا مع النبى ﷺ ؛ وقالوا : يا رسول الله ، تخلفنا بدون عذر ؛ فأمر النبى ﷺ المسلمين أن يتركوهم حتى ينزل الله فيهم أمره ، فهجرهم المسلمون خمسين ليلة ، لا يسلمون عليهم ، ولا يردّون عليهم السلام ؛ وأمرهم النبىّ أن يعتزلوا نساءهم ، وكان أمْرُهم مترددًا بين قبول توبتهم ، أو رفضها جزاء تخلفهم عن الجهاد ، بيد أن الله تعالى قبل توبتهم فى آخر السورة ، حيث قال سبحانه بشأنهم:

وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . (التوبة: ١١٨) .

وهؤلاء الثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع . كلّهم من الأنصار ، وقد وردت قصتهم فى صحيح البخارى . وقد علَّق الله أمرهم ، وهو العليم بكل أمر ؛ رغبة فى ترك موضوعهم معلقًا ، حتى يستمر ندمهم على ما فعلوا وليكونوا عبرة لغيرهم ؛ حتى لا يتخلف مؤمن عن الجهاد .

المعنى : وآخرون من المتخلفين موقوفون : مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ . أى : مرجئون ومؤخرون لأمر الله فى شأنهم، إما أن يعذبهم لتخلفهم عن الجهاد ، وإما أن يقبل توبتهم ؛ بعد أن تخلص نفوسهم وقلوبهم من الإخلاد إلى الدعة والراحة ، وإيثار ذلك على الجهاد ؛ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، وبما يصلح عباده ويربيهم ، حَكِيمٌ فى أفعاله وأقواله ، ومن حكمته إرجاء النصّ على توبتهم .

من تفسير الفخر الرازى :

وكان المتخلفون عن غزوة تبوك أصنافًا ثلاثة :

١- المنافقون الذين مردوا على النفاق وهم أكثر المتخلفين .

٢- التائبون المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم ، وتابوا فتاب الله عليهم ، وهم الذين ربطوا أنفسهم بالسوارى ؛ وهم أبو لبابة وأصحابه ، فنزلت توبتهم .

٣- الذين بقوا موقوفين مترددين ، لم يعتذروا للنبى ﷺ عن تخلفهم ، وأرجئوا توبتهم ، فلم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، فأرجأ الله الحكم فى أمرهم . فوقف أمرهم خمسين ليلة ، وهجرهم الناس ، حتى صدقت توبتهم ؛ وعظم ندمهم : ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ... (التوبة : ١١٨) .

من أحكام الآية :

الحكمة الإلهية قد تقتضى البتّ فى شأن بعض العباد ، وقد ترجئ ذلك ؛ ليظل الناس فى أمل ورجاء ، ورهبة وخوف ، وقد أثمرت هذه الحكمة فى دفع هؤلاء الثلاثة إلى شدة الندم ، وصدق التوبة حتى تاب الله عليهم .

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

المفردات :

ضرارا : مضارة للإسلام وأهله .

وتفريقا بين المؤمنين : أى : فصلاً بينهم ، بصرف بعضهم عن مسجد قباء الذى يجمعهم ويوحد كلمتهم .

وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله : وانتظارًا للراهب الفاسق الذى حارب الله ورسوله ليصلى فيه .

الحسنى : أى : الخصلة الحسناء .

التفسير :

١٠٧ – وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... الآية .

سبب النزول :

بنى جماعة من المنافقين مسجدًا ؛ رغبة فى التجمع ، واستضافة أعداء النبىّ ﷺ ، حيث قال لهم أبو عامر الراهب : ابنوا مسجدكم ، واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم؛ فآتى بجند من الروم ؛ فأخرج محمدًا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم ، أتوا النبى ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله ، إنا بنينا مسجدًا ؛ لذى العلّة والحاجة والليلة الشاتية ، والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

فقال لهم النبى ﷺ : إنى على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه ، ونزل عليه الوحى بخَبرهم . فلما رجع من سفره ؛ دعا برجال من أصحابه ، وقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ؛ فأحرقوه واهدموه ففعلوا ، وأمر أن يتخذ مكانه موضعًا لإلقاء القمامة ؛ حتى لا تقوم له قائمة ، وهلك أبو عامر الراهب بِقِنَّسْرِين .

ومعنى الآية :

ومن المتخلفين عن غزوة تبوك ، المنافقون الذين بنوا بجوار مسجد قباء ، مسجدًا لمضارة الإسلام والمسلمين ، وَكُفْرًا . بالنبى ﷺ وبما جاء به ، وللطَّعن عليه وعلى الإسلام واتخاذه مقرًا للكيد والتآمر على المسلمين .

وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . حيث أرادوا ألاّ يحضروا مسجد قباء ؛ فتقلّ جماعة المسلمين ، وفى ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة مالا يخفى .

وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ .

الإرصاد: أى : الترقب والانتظار لمجىء من حارب الله ورسوله إليه ويتخذه مقرًّا له ، ومكانًا لقوم راصدين للحرب معه ، وهم المنافقون الذين بنوا هذا المسجد.

وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ .

وليحلفن هؤلاء المنافقون : ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى ؛ وهى الرفق بالمسلمين، وتيسير صلاة الجماعة على أهل الضعف والعجز ، وفى أثناء المطر ، والله تعالى يعلم إنهم لكاذبون فى أيمانهم وادعائهم ؛ فقد بنوه للمضارة وغيرها من الأغراض الفاسدة ، التى بينتها الآية الكريمة .

★ ★ ★

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المفردات :

لا تقم فيه أبدا : لا تؤد فيه الصلاة وغيرها من الطاعات فى أى وقت دائمًا .

لمسجد أسس على التقوى : يعنى : مسجد قباء .

يحبون أن يتطهروا : أى : يرغبون فى التطهر الحسِّى والمعنوى .

التفسير :

١٠٨- لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ... الآية .

أى : لا تقم – أيها الرسول – للصلاة وغيرها من الطاعات ؛ فى مسجد الضرار فى أى وقت من الأوقات ؛ فقد بنى للإضرار بالإسلام وأهله ، والله ! لمسجد قباء الذى بنى أساسه ووضعت قواعده على تقوى الله وإخلاص العبادة له منذ أول يوم بدئ فى بنائه ، أحق أن تقوم للصلاة فيه من غيره .

وقيل : المراد : بالمسجد الذى أسس على التقوى : هو المسجد النبوى بالمدينة ، فقد روى أحمد ومسلم والنسائى أن النبى ﷺ سئل عنه ، فأجاب بأنه مسجده الذى فى المدينة ، ولا مانع من إرادة المسجدين ؛ لأن كلا منهما قد بنى على التقوى من أول يوم بُدئ ببنائه .

فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ .

أى : فى هذا المسجد الذى بنى على التقوى ، رجال يحبون أن يتطهروا طهارة معنوية ، وهى التطهر عن الذنوب والمعاصى ، وطهارة حسية للبدن والثوب ، بالوضوء والاغتسال وطهارة القبل والدبر من آثار البول والغائط .

وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ . أى : يرضى عنهم ويدنيهم من جَنَابِه تعالى ، إدناء المحب حبيبه .

فمحبة الله عباده معناها : الرِّضا والقبول والإدناء ؛ لأن الله تعالى منزَّه عن مشابهة صفاتنا ، فحبه غير حبنا ، وهو شىء يليق بكماله تعالى ؛ كما جاء فى الحديث القدسى الذى يرويه البخارى : «ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته ؛ كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به»[9].

★ ★ ★

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

المفردات :

شفا جرف : الشفا : الحرف والحافة والطرف – (والجُرُف) بضمتين ما جرفه السيل أى : استأصله وحفر ما تحته ، فبقى واهيًا .

هـــــــار : مشرف على السقوط وأصله (هائر) .

فانهار به : فسقط به .

التفسير :

١٠٩ – أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ... الآية .

قارن الله تعالى بين مسجد قباء الذى بنى على التقوى والإيمان وطاعة الرحمن ، وبين مسجد الضرار

الذى بنى ؛ لمعاداة المسلمين واستقبال أعدائهم ، وتبييت الكيد لهم ، الكفر بنبيهم ، فالأول : طيب أطيب الطيب، والثانى : خبيث أخبث الخبيث .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

أى : إن من أسس بنيانه على قاعدة قوية محكمة ، وهى تقوى الله ورضوانه ، خير ممن أسس على ضد ذلك.

والجُرُف : ما ينجرف بالسيول ؛ وهى الجوانب من الوادى التى تنجرف بالماء .

والهار : المشرف على السقوط.

فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ . فانهار الجرف بالبنيان وبانيه فى النار .

وجاء فى تفسير الرازى :

ولا نرى فى العالم مثالاً أجدر مطابقة لأمر المنافقين فى هذا المثال .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى الحقّ الذى هو تقوى الله ورضوانه، **خَيْرٌ أَم مَّنْ**. أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد ، وأرخاها وأقلّها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل: **شَفَا جُرُفٍ هَارٍ** . فى قلة الثبات والاستمساك ، وضع شفا الجرف فى مقابله التقوى ؛ لأنه جعل مجازًا عما ينافى التقوى .

★ ★ ★

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

المفردات :

ريبة : شكًا ونفاقا .

إلا أن تقطع قلوبهم : أى : لا يزال المسجد الذى بنوه شاهدًا على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام ، حتى كأنه نفس الريبة والشك .

التفسير :

١١٠- لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ... الآية .

إن مسجدهم قد بنى بدون إخلاص ولا نية سليمة ؛ لذلك فهو بنيان شاهد على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام ، حتى كأنه نفس الريبة ؛ لأنه يجسّد آثار النفاق والكفر ، فقد أورثهم نفاقًا فى قلوبهم ، وازْدَادُوا بهدم رسول الله ﷺ لمسجدهم ، وإبطاله لكيدهم ؛ تصميمًا على الكفر ومقتًا للإسلام .

إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ . إما بالموت أو بالسيف .

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . فهو سبحانه **عليمٌ** بكل شىء فى هذا الكون ، وبكل ما يفعله هؤلاء المنافقون سرًّا وجهرًا.

حَكِيمٌ . أى : عظيم الحكمة فى تصرفاته وأفعاله .

ويؤخذ من الآيات ما يأتى :

١- وجوب بناء المساجد على تقوى من الله ورضوان .

٢- **قال المالكية** : كل مسجد بنى على ضرار أو رياء وسمعة ؛ فهو فى حكم مسجد الضرار ، لا تجوز الصلاة فيه ، ولا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرًا .

٣- دلَّ قوله تعالى : **وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** . على أنّ المقصد الأسمى من وجود الجماعة تأليف القلوب ، واتحادهم على الطاعة ؛ حتى يأنسوا بالمخالطة ، وتصفوا القلوب من الأحقاد .

٤- كان مسجد الضّرار سببًا لريبة المنافقين ، فإنهم لما بنوه عظم فرحهم به ، ولما أمر الرسول ﷺ بتخريبه؛ ثقل ذلك عليهم ، وازداد بغضهم له ، وزاد ارتيابهم فى نُبوَّته ، وظل ذلك الريب فى قلوبهم حتى الموت .

٥- **قال الإمام ابن كثير** : صرّح جماعة من السلف : بأن المسجد الذى أُسس على التقوى هو مسجد قباء ، وقد ورد فى الحديث الصحيح : «أن مسجد رسول الله ﷺ الذى فى جوف المدينة ؛ هو المسجد الذى أسس على التقوى» . وهذا صحيح – ولا منافاة بين الآية وبين هذا ؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى .

★ ★ ★

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

المفردات :

اشــــترى : استبدل .

ومـن أوفـى : لا أحد أعظم وفـاءً .

فاستبشروا : أى : فـافرحوا غـاية الفرح .

التفسير :

١١١- إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ... الآية .

سبب النزول :

قال القرطبى :

«نزلت هذه الآية فى بيعة العقبة الثانية وهى بيعة العقبة الكبرى ، وفيها زاد الأنصار على سبعين ، واجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة ؛ فقال عبد الله بن رواحة : اشترط يارسول الله لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبى ﷺ : « أشترط لربِّى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ... ؟ قال النبى ﷺ : « الجنة » قالوا : ربح البيع لا نُقيل ولا نستقيل![١٠] فنزلت هذه الآية – ثم هى عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة » اهـ .

والمعنى : إن الله اشترى من المؤمنين الأنفس والأموال بثمن هو الجنة ، أى : مثَّل الله إثابتهم بالجنة ؛ على بذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله بصفة الشراء .

قال أبو السعود :

« الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ، وقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله ، وإثابته إياهم بمقابلتها بالجنة :

بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ، ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصد فى العقد ، أنفس المؤمنين وأموالهم ، والثمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة : الجنة» ا هـ .

وفى الآية حثٌ وتحريض على الجهاد فى سبيل الله ، وبذل النفس والمال دفاعًا عن الإسلام وأهله، وقد وردت آيات كثيرة فى الحث على الجهاد والتحريض عليه ، وبيان فضله وثوابه ، وبيان فضل الشهداء عند ربهم ، وتعددت طرق الحث والتحريض على الجهاد ، وقد أكد الله ثواب المجاهدين بمؤكدات عدة ؛ ذلك أن الله سبحانه هو الخالق وهو الرزاق ، فهو الذى خلق الأنفس وأعطى الأموال ، ثم رغّب فى بذل هذه الأموال على أحسن وجه ، وأبلغه ؛ لأنه أبرزه فى صورة عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

« وأكد الله منحه الثواب والجنة بمؤكدات عشرة هى : كون المشترى هو الله ، وإيصال الثواب بالبيع والشراء ، وذلك حق مؤكد ، وقوله : وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا . ، ووعد الله حق ، وإثباته فى الكتب الكبرى : التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وهذا يتضمن إشهاد جميع الكتب ، وجميع الرسل والأنبياء ، على هذه المبايعة .

وقوله : وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ . وهو غاية فى التأكيد .

وقوله : فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ . وهو أيضًا مبالغة فى التأكيد ، وقوله : وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ . وقوله : ٱلْعَظِيمُ . (١١)

من تفسير الشوكانى فى فتح القدير :

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم .

لما شرح الله تعالى فضائح المنافقين ، بين هنا فضيلة الجهاد ، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، فجادوا بأنفسهم ، وجادوا بالأموال فى الجهاد ، وجاد الله عليهم بالجنة .

يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ .

يقدمون على قتل الكفار فى الحرب ، ويبذلون أنفسهم فى ذلك ، فإن فعلوا ؛ فقد استحقوا الجنة ، وإن لم يقع القتل عليهم ، بعد التعرض للموت بالإقدام على الكفار .

وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ .

إخبار من الله سبحانه أن استحقاق المجاهدين الجنة ، قد ثبت الوعد به من الله فى كتبه المنزلة : التوراة ، الإنجيل ، كما وقع فى القرآن .

وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ . لا أحد ، وهو صادق الوعد ، لا يخلف الميعاد .

فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ . أظهروا السرور بهذا البيع ؛ فقد ربحتم فيه ربحًا عظيمًا لم يربحه أحد من الناس إلا من فعل مثل فعلكم[١٢] .

وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . ففيه ظفر المجاهد بالنعيم المقيم ، ورضوان الله رب العالمين ؛ ولا فوز أعظم من ذلك.

قال الحسن البصرى : أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ؛ ثم يكافئنا عليها متى بذلناها فى سبيله بالجنة.

★ ★ ★

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

التفسير :

١١٢- ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ... الآية .

مدح الله المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة بتسع صفات فى هذه الآية - والآيتان مرتبطان ببعضهما لا مستقلتان .

وأول الأوصاف التسعة هى :

ٱلتَّٰٓئِبُونَ . أى : المقلعون عن معصية الله ، الراجعون إلى طاعته ، والنادمون على معصيته ، ومن علامة قبول التوبة ما يأتى :

١- الندم على فعل الذنوب التى وقعت من الإنسان فى الماضى .

٢- الإقلاع عن الذنب فى الحال .

٣- العزم والتصميم على الاستقامة والبعد عن الذنوب فى المستقبل .

٤- أن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله .

فإن كانت التوبة من ذنب يتعلق بحقوق الآدميين ؛ زيد عليها شرط خامس ، وهو ردّ الحقوق إلى أصحابها ، أو استسماحهم استسماحًا عامًّا .

ٱلْعَابِدُونَ . المطيعون لله بعبادة صحيحة ، قصد بها وجه الله .

ٱلْحَامِدُونَ . الشاكرون لله فى النعماء والضرّاء ، الراضون بقضائه وقدره .

ٱلسَّٰٓئِحُونَ . السائرون فى الأرض للتدبر والاعتبار وطاعة الله ؛ والعمل على مرضاته ؛ وقيل : **ٱلسَّٰٓئِحُونَ** : الصائمون ، وقيل : **ٱلسَّٰٓئِحُونَ** : المجاهدون فى سبيل الله .

ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ . المحافظون على الصلاة وإتمامها ؛ بإتمام الركوع والسجود وسائر الأركان .

ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ . وهو كل ما حسنه الشرع .

وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . المحذّرون للناس من مخالفة أوامر الله ، ومن انتهاك الحرمات ، ومن التقصير فى أداء الفرائض والواجبات .

وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ . أى : القائمون بما أمر به ، والمنتهون عما نهى عنه .

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . أى : أخبرهم يا محمد بما يسرهم ، فهم المؤمنون حقًّا ، المتصفون بهذه الصفات الكريمة ، المستحقون للجنة ولرضوان الله ومحبته ، «وحذف المبشَّر به ؛ للتعظيم كأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام» .

★ ★ ★

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

المفردات :

ما كان للنبى والذين آمنوا : أى : ما صح وما استقام للنبى ﷺ ، وللمؤمنين .

أن يستغفروا : أن يطلبوا الغفران .

أولى قربى : أصحاب قرابة .

موعدة : وعد .

تبرأ منه : بَعُدَ عنه وتنزه عن مصاحبته .

أواه : أصل التأوه: قول الرجل: آه ، أى : توجع . وأواه للمبالغة . والمراد : كثير التأوه من خوف الله.

حليم : صبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، يقابلها بالإحسان والعطف .

ما يتقون : ما يجب اتقاؤه والبعد عنه .

ولى : وال يلى أموركم ويدبر شئونكم .

ولا نصير : ينصركم على أعدائكم ويمنعكم من أذاهم .

التفسير :

١١٣ - مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

سبب النزول :

أخرج الشيخان وأحمد : عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فقال : « أى عم ، قل : لا إله إلا الله ؛ كلمة

أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة : أترغب عن ملة عبد المطلب ... ، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليها ويعودان لتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم : أنا على دين عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك » فأنزل الله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ[١٣] ... الآية ، وأنزل الله فى أبى طالب : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ .. [١٤] .

ومعنى الآية ما يأتى :

ما صح وما استقام فى حكم الله تعالى ، للنبىّ والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين ، ولوكانوا أصحاب قرابة ؛ بعد ما ظهر لهم أنهم أصحاب النار ، بإصرارهم على الكفر ، وموتهم عليه ، أو يعلم الرسول بالوحى أنهم سيموتون على الكفر .

من تفسير القاسمى :

لما بين الله تعالى فى أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيدًا ، حيث نهى عن الاستغفار لهم بعد تَبيُّن شركهم وكفرهم[١٥] .

وقال ابن عباس : كانوا يستغفرون لأمواتهم المشركين ، فلما نزلت هذه الآية ؛ أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء .

١١٤ - وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ... الآية .

هذه الآية إجابة عن سؤال وقع ، أو هو متوقع أن يقع بعد الاستماع إلى قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ . والسؤال الذى يقع بعد الاستماع إلى هذه الآية : وكيف استغفر إبراهيم لأبيه ، وقد كان أبوه من المشركين؟![١٦] .

وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى على لسان إبراهيم : وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ . (الشعراء: ٨٦).

والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإن ذلك كان عن موعدة من آزر لابنه إبراهيم بالإيمان ، أو كان سببه أنّ إبراهيم قد وعد أباه أن يستغفر لأبيه ، ويسأل الله تعالى له الهداية إلى الإسلام حتى يغفر له . فلمَّا مات آزر مشركا ؛ تبرأ منه إبراهيم ، وانقطع رجاؤه عنه وقطع عنه الاستغفار ، وقد جاء فى سورة مريم : قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا *

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا . (مريم : ٤٦-٤٨)

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . أى : فلما ظهر لإبراهيم بالوحى أنّ أباه مصرّ على الكفر غير مؤمن أبدًا ؛ بعد عنه وتَجنّبه ، وترك الاستغفار له .

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ . أى : كثير التأوه من خوف الله تعالى ، متضرع إليه كثير الدعاء والتوبة ، حَلِيمٌ بعباد الله ، عظيم الحلم كثير الصفح واللطف ، ومن حلمه أنه كان يدعو لأبيه ، وأبوه يتهدده ويتوعده بالرجم .

١١٥- وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ... الآية .

تبين الآية جانبا من فضل الله ولطفه وكرمه وعدله ، وهى فى نفس الوقت تفرّج عن صدر المسلمين الحزن ، أو الحسرة والندم على ما وقع منهم . من استغفار منهم لمن مات من أهليهم وأصدقائهم على الشرك قبل أن يجىء النهى عن الاستغفار لهم ، فلا شىء عليهم فى هذا . لقد كان من حكمة الله تعالى أن أرسل الرسل ، وأنزل الكتب لهداية الناس ، ولتلزمهم الحجة ؛ حتى لا يقولوا يوم القيامة : ما أتانا من نذير، قال تعالى: رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء: ١٦٥) .

وفى هذه الآية بين الله سبحانه : أنه لا يأخذ المؤمنين بالعقاب ، ولا ينزلهم منازل الضالين ، إلا بعد أن يبين لهم الطريق الذى يسيرون عليه ، وما يأخذون أو يدعون من الأمور ، أما ما يقع من العباد مما لم يكن قد جاءهم أمر الله فيه ؛ فهو معفو عنه عند الله ولو كان مما نهى عنه بعد أن وقع منهم ...[١٧] .

١١٦- إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ... الآية .

إن الله وحده هو مالك الكون ، وهو سبحانه بيده الخلق والأمر ، والرزق والمنع ؛ فيجب أن تخلصوا له فى عبادتكم وطاعتكم ، وموالاتكم للمؤمنين ، وعدم استغفاركم للمشركين .

جاء فى تفسير ابن كثير :

قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين ، فى قتال المشركين وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر مالك السماوات والأرض ، ولا يرهبوا من أعدائه ، فإنه لا ولى لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه .

وَمَا لَكُم مِّن دونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ . أى : ليس لكم أيها المكلفون من غير الله وال يلى أموركم ، ويدبّر شئونكم ، ولا نصير ينصركم على عدوكم ، ويعينكم عليه ، فهو وحده نعم المولى ونعم النصير .

★ ★ ★

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

التفسير :

١١٧- لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنصَارِ ... الآية .

سبب النزول :

جاء فى تفسير ابن كثير : أخرج ابن جرير : عن ابن عباس قال : قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة ؛ فقال عمر : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء ؛ فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرْثه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرًا ، فادع لنا ! فقال: «تحبّ ذلك؟» قال : نعم ؛ فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت ، فملئوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[١٨] .

من تفسير القاسمى :

ذكر سبحانه فى هذه الآية وما بعدها فضله على فرقة من المؤمنين فكّروا فى التخلف ، ميلاً إلى الدعة والراحة ، أو تأثروا من بُعد الشقة وطول الطريق ووعثاء السفر ، فاضطربت قلوبهم وترددت رغبتهم فى الجهاد ثم ندموا فتابوا وأنابوا .

ثم علم الله صدق توبتهم فقبلها ، ثم أنزل توبتهم فى هذه الآية ، وصدَّرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه ؛ جبرًا لقلوبهم ، وتنويهًا لشأنهم ، بضمهم مع المقطوع بالرِّضا عنهم ، وبعثًا للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلاّ وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبىّ والمهاجرين والأنصار كلٌّ على حسبه، وإبانةً لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأنها صفة التوابين الأوابين ، صفة الأنبياء ، كما وصفهم

بالصالحين ؛ ليظهر فضيلة الصلاح ، والوصف للمدح ، كما يكون لمدح الموصوف ، يكون لمدح الصفة وهو كما قال حسان بن ثابت :

ما إن مدحت محمدًا بمقالتى لكن مدحت مقالتى بمحمد[١٩]

وفى هذه الآية فضل المهاجرين والأنصار ، حيث ذكرهم الله تعالى بعد ذكر النبى ﷺ .

جاء فى التفسير القرآنى للقرآن :

«وذكر النبىّ هنا فى التوبة – وهو صلوات الله وسلامه عليه لم يقع منه شىء وحاشاه – فى هذا تكريم للمهاجرين والأنصار ، وتشريف لهم بنظمهم مع هذا الكوكب الدرّى الوضىء فى ساحة رضوان الله ومغفرته .. وقد قرأ الرِّضا علىّ بن موسى : **لقد تاب الله بالنبى على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ...**» [٢٠] .

المعنى :

لقد غفر الله سبحانه وتعالى ، وعفا عن النبىّ وعن المهاجرين والأنصار ، **ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ** . أى : خرجوا معه فى غزوة تبوك لقتال الأعداء ، وكانت الغزوة فى وقت شديد الحرارة ، وضيق فى الرواحل ، وبعد فى الطريق ؛ حتى سميت : «غزوة العسرة» وسمىّ الجيش الذى خرج فيها : «جيش العسرة» .

مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ . أى : من بعد ما قرب أن تميل قلوب بعضهم إلى التخلف والدعة؛ خوفًا من الشدة والمشقة ؛ ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقوّاهم .

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ . وفقهم الله ورزقهم الإنابة إلى ربهم ، والرجوع إلى الثبات على دينه ، والالتزام بهدى نبيه ، حتى تابوا إلى الله ، وندموا على تفكيرهم فى القعود عن الجهاد .

إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . إنه عليم بالعباد وطبائعهم ، رحيم بالمؤمنين ولهذا منّ عليهم بالتوبة ؛ وقبلها منهم وثبتهم عليها ، قال بعضهم : «ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب ؛ تفضلاً منه ، وتطيبًا لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك ، وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ؛ تعظيمًا لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قبل توبتهم وعفا عنهم، ثم أتبعه بقوله : **إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** . [٢١] ؛ تأكيدا لذلك .

★ ★ ★

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

المفردات :

خـــلـــفـــوا : أُخِّرَ أمرُ قبول توبتهم .

بما رحـــبت : أى : مع رحابتها وسعتها ، والرحب سعة المكان .

لا ملجأ من الله : لا مفر ولا منجى من سخطه وعقابه .

التفسير :

١١٨- وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ... الآية .

قصة هؤلاء الثلاثة أخرجها الإمام أحمد فى مسنده وأخرجها البخارى فى كتاب المغازى ، ومسلم فى كتاب التوبة .

وخلاصة هذه القصة يرويها ابن هشام فيقول[٢٢] :

قدم رسول الله ﷺ عائدًا من تبوك ، وكان قد تخلَّف عنه رهط المنافقين ، وتخلَّف أولئك الثلاثة من المسلمين المخلصين من غير شك ولا نفاق ، وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا تكلمُنَّ أحدًا من هؤلاء الثلاثة » لأنهم لم يقدموا عذرًا عن تخلفهم . وأتاه من تخلَّف من المنافقين ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصفح عنهم رسول الله ﷺ : معاملة لهم بظاهرهم ، واعتزل المسلمون أولئك النفر الثلاثة ، ثم نزلت هذه الآية معلنة قبول توبتهم وعفو الله عنهم .

معنى الآية : هذه الآية معطوفة على سابقتها .

والمعنى : لقد تقبل توبة النبى والمهاجرين والأنصار ، وتقبل كذلك توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو لا بسبب النفاق ؛ وإنما كسلاً وإيثارًا للراحة والقعود ، وخلفوا الغازين بالمدينة ، أى: صاروا خلفاء للذين ذهبوا إلى الغزو.

وقد وصف الله هؤلاء الثلاثة بصفات ثلاث :

الصفة الأولى :

حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . لقد تخلفوا عن الغزو ، ثم ندموا بسبب إعراض الناس عنهم ، ومقاطعتهم لهم ، وإعراض الرسول عنهم، وأمر أزواجهم باعتزالهم ، حتى بقوا على هذه الحالة خمسين يومًا.

الصفة الثانية :

وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ . بسبب الهمّ والغم ، وشدة الندم والألم .

الصفة الثالثة :

وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ . اعتقدوا وتيقنوا أنهم لا ملجأ ولا ملاذ لهم ، من غضب الله وعقوبته إلا بالرجوع إليه ، وصدق الندم والتوبة ، والعزم على الاستقامة والعودة .

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . أى : بعد هذا التأديب الشديد ؛ علم الله منهم صدق الندم على ما فعلوا ، فأنزل الله قبول التوبة منهم ، ليصيروا فى جملة التوابين ، وليستمروا ويثبتوا على توبتهم ؛ إنه سبحانه كثير القبول لتوبة التائبين ، واسع الرحمة بالناس أجمعين .

أثر التوبة :

التوبة : نعمة من الله على عباده ، وكل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

ونلمح من الآية السابقة ، تماسك المجتمع ، وطاعته للرَّسول ، فالمخالف والمتخلف عن الغزو ؛ هُجِرَ وتُرِكَ ؛ حتى اشتد ندمه ؛ فتاب الله عليه .

من تفسير الكشاف :

« بلغ أبو خيثمة الأنصارى بستانه ، إبان غزوة تبوك ، وكانت له امرأة حسناء ، فرشت له فى الظلّ ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ فى الحر والريح ، ما هذا بخير ! فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومرّ كالريح ؛ فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب ؛ فقال : كن أبا خيثمة ! فكان ، ففرح به رسول الله ﷺ ، واستغفر له .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

التفسير :

الصدق طريق النجاة فى الدنيا والآخرة ، وقد كان صدق هؤلاء الثلاثة فى توبتهم طريقًا إلى قبول الله لتوبتهم وفى تعقيب هذه الآية على قبول توبة التائبين تقول :

١١٩– يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بالله ورسوله ، ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ بامتثال أمره واجتناب ما نهى عنه .

وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ . المجاهدين المخلصين فى جهادهم إذا جاهدوا ، وفى عهودهم إذا عاهدوا ، وفى أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا ، وفى توبتهم إذا أذنبوا أو قصروا .

وقد ورد فى القرآن والسنة الصحيحة مدح الصدق ؛ لأنه سلاح المؤمن وتاج الإنسان ، ومبعث إلى الثقة والاحترام بين الناس . كما حذر الإسلام من الكذب فهو صفة المنافقين ، ودليل ضعف الشخصية ، وغضب الله على الإنسان .

أخرج البيهقى ومسلم : أن النبى ﷺ قال : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البرّ يهدى إلى الجنّة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذّابًا »[٢٣] .

★ ★ ★

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

المفردات :

ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه : أى : لا يؤثروا أنفسهم على نفسه .

ولا نصب : ولا تعب .

ولا مخمصة : ولا مجاعة .

واديا : الوادى : هو الأرض التى تكون بين جبلين .

التفسير :

١٢٠ ، ١٢١ – مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ... الآيتان .

يعاتب الله المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فيقول : مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ... أى : ما كان ينبغى لأهل المدينة ، ومن حولهم من قبائل العرب المجاورة لها : كمزينة ، وجهينة ، وغفار ، وأشجع ، وأسْلم ، التخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، ولا أن يؤثروا أنفسهم على نفسه ؛ بأن يطلبوا السلامة بالتخلف عن الجهاد ، فعليهم أن يصحبوه على البأساء والضراء ؛ وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه الشريفة ، مع العلم بأنَّها أعزّ نفس عند الله وأكرمها عليه ، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا أنفسهم دون نفسه ، وأن يدافعوا عنه بأنفة وحمية ، لا أن يتخلفوا عنه بغير عذر ، كما فعل بعضهم .

روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين »[٢٤] .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...

أى : ذلك الذى تقدم من وجوب مصاحبتهم الرسول فى الجهاد ؛ وإيثاره على أنفسهم ؛ بسبب أنه كل ما يصيبهم فى جهادهم - من معاناة ومكابدة ومشاق كالعطش والتعب والجوع والألم فى سبيل الله ، ووطء جزء من أرض الكفر يغيظ الكفار ، والنيل من الأعداء ، بالأسر أو القتل أو الهزيمة أو الغنيمة ؛ يستوجب الثواب الجزيل المكافئ لما قدموه وزيادة ، وذلك مما يوجب المشاركة فى الجهاد .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . أى : لا يدع شيئًا من ثواب المحسنين إلا كافأه عليه ؛ قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف: ٣٠) .

فوائد :

١- خروج المسلمين للجهاد إذا دعاهم الإمام إليه فرض كفاية ؛ إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، أما خروج المسلمين للجهاد إذا دعاهم الرسول ﷺ فهو فرض عين .

٢- لا يصح للمؤمن إيثار نفسه على نفس الرسول ﷺ ؛ لأن الإيمان لا يكمل إلا بأن يحبّ الرسول ﷺ ، أكثر مما يحب نفسه .

٣- إن كل ما يتعرض له المجاهد فى مكابدة ومتاعب ويثاب عليه ثوابًا جزيلاً ؛ فهو فى ضيافة الله وكرمه ومنازل رضوانه منذ أن يبدأ فى التهيؤ للجهاد إلى أن يعود إلى منزله الذى خرج منه ، أو يستشهد فى سبيل الله وقد حفل القرآن الكريم ببيان فضل الجهاد وعظيم ثوابه ؛ وأثره فى حماية الإسلام والمسلمين ، ودفع العدوان وتمكين المستضعفين من الحرية والاختيار ، كما ذكر القرآن : أن الشهداء أحياء حياة معنوية أبدية يتمتعون بخيرات الجنة ونعيمها قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .(آل عمران : ١٦٩-١٧١) .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾

المفردات :

لينفروا كافة : ليخرجوا للجهاد ونحوه جميعًا .

فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة : فهلا خرج من كل جماعة كثيرة منهم ، جماعة قليلة .

ولينذروا قومهم : وليحذروهم من المخاوف والعواقب السيئة لعصيان الله وعدم التدبر فى الأمور .

التفسير :

١٢٢– وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ... الآية .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم : عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال : كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد إذا بعث رسول الله ﷺ سرية خرجوا فيها ، وتركوا النبى ﷺ فى المدينة فى رقة[٢٥] من الناس ؛ فنزلت هذه الآية.

وقال ابن عباس : هذه الآية مخصوصة بالسرايا ، والتى قبلها بالنهى عن تخلف واحد ، فيما إذا خرج النبى ﷺ .

المعنى : ما كان من شأن المؤمنين أن ينفروا جميعًا للجهاد ويتركوا النبى ﷺ وحده ؛ فهلاً نفر من كل جماعة – كالقبيلة أو البلد – طائفة قليلة منهم ؛ للتفقه فى الدين ، ومعرفة أحكام الشريعة وأسرارها ، حتى إذا ما رجع المجاهدون من المعركة ، أرشدوهم إلى مناهج الهدى ومسالك العزة ، ومعرفة أحكام الدين ، وخوفوهم من عصيان الله ، أو تجاوز أحكامه ، لكى يحذروا ما يضرهم فى دنياهم وأخراهم ، ويقبلوا على ما ينفعهم ويعلى قدرهم .

من أحكام الآية :

١– الجهاد فرض عين إذا دعا النبى ﷺ إليه .

٢– الجهاد فى غير ذلك فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين .

٣- قال مجاهد وابن زيد : هذه الآية ناسخة لما قبلها ، والأصح أنها مبينة لا ناسخة ، وكلٌّ مِنْ (مِنْ) المفيدة للتبعيض ، والفرقة (الجماعة الكثيرة) ، والطائفة (الجماعة الأقل) ؛ يفيد كون الجهاد وطلب العلم موجها للبعض .

٤- وجوب طلب العلم ، والتفقه فى القرآن والسنّة ، وهو فرض على الكفاية ، لا على الأعيان ؛ بدليل قوله تعالى : فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٤٣) .

٥- يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم.

٦- طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل ؛ لما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « من يرد الله به خيرًا ؛ يفقهه فى الدين»[٢٦] .

وروى الترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض ، والحيتان فى جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »[٢٧] .

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

التفسير :

١٢٣- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ... الآية .

المعنى : يا أيها الذين آمنوا ؛ قاتلوا الأقرب فالأقرب من الكفار ، أى : إنه يجب على كل بلد مسلم أن يكون مستعدًا ومتأهبًا ، وأن يبدأ بقتال ما يجاوره من الكفار .

وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً . والغلظة هنا يراد بها : الشجاعة والقوة ، ولا يكون ذلك إلا بعد الاستعداد والتمرين والتمرس بأساليب القتال .

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ . أى : تأكدوا وثقوا بأن معية الله وعونه ونصره للمتقين الذين آمنوا بالله وراقبوه وأطاعوه ، واجتنبوا مخالفته .

فى أعقاب الآية :

فى جزيرة العرب تقع مدن متعددة مثل : مكة ، والمدينة ، والطائف ، وخيبر ، واليمامة (الرياض) .

وتجاور هذه المدن صحارى وبادية ممتدة ، وهذه البادية كانت مرتبطة بالمدن المجاورة لها ؛ فأهل البادية يحملون إلى المدينة ما يريدون بيعه من الماشية والألبان والدواجن وأشباه ذلك ؛ ويشترون من المدينة الثياب وأدوات القتال وما يتصل بذلك .

ومن يسيطر على مدينة مثل خيبر أو مكة أو الطائف ؛ يسهل عليه كثيرًا أن يسيطر على ما حولها من سكان البادية والأعراب .

وعندما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ؛ عمل على تأمين المدينة فى الداخل ؛ فعقد معاهدة مع اليهود ، ثم عقد تحالفًا مع الأعراب المقيمين حول المدينة ، وأرسل عددًا من السرايا ؛ لتأمين دائرة حول المدينة ، ثم كانت غزوة بدرٍ الكبرى ، وأعقبها عقد تحالف مع عدد من البلاد المجاورة ، وكانت غزوة خيبر وفتح مكة ، وغزوة حنين ، والطائف ؛ لتأمين السيطرة على المدن الكبرى فى الجزيرة العربية ، ثم أمر الله المسلمين بالاستمرار فى قتال من يجاورهم من الكفار ، فاتجهوا إلى غزوة تبوك ولم يكن فيها قتال ، ولكن وضعت الجزية على أيْلَةَ ، وبُصرى ، وكانت تلك الغزوة إرهابًا للنصارى ، ونزلت سورة براءة عقبها ، فكانت هذه الآية كالوصية للمسلمين بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام .

ولذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ، ثم العراق ، ثم فارس ، ثم انتقلوا إلى مصر ، ثم إلى إفريقية ، ثم الأندلس.

وفى توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبىّ ، إيماء إلى أن النبىّ – عليه الصلاة والسلام – لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب ، ولعل فى قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ . إيماء إلى التسلية للمسلمين على فقد نبيهم ، وأن الله معهم ؛ كقوله فى الآية الآخرى : وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ . (آل عمران : ١٤٤) .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

التفسير

١٢٤- وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ... الآية .

هذه الآية عود الحديث عن المنافقين ، وبيان لسوء أدبهم مع القرآن الكريم ؛ فقد كانوا إذا نزلت سورة مشتملة على تبيان فضائحهم وعيوبهم تأذوا من سماعها ، وكذلك كلما سمعوا سورة - وإن لم يذكر فيها شىء عنهم - . استهزءوا بها وطعنوا فيها ، وأخذوا فى التغامز والتضاحك على سبيل الطعن والهزء .

إذا أنزلنا عليك يا محمد آية سورة من سور القرآن الكريم ؛ نظر المنافقون إلى بعض نظرة استهزاء وسخرية بالقرآن ، وقالوا :

أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا . فهم يتساءلون تساءل مستنكر مستهجن ، ويقولون : من منكم منحته هذه السورة تصديقًا بالقرآن أو بمحمد ؟! وهنا يفاجئهم القرآن بهذا الجواب :

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. إن العيب فى قلوب المنافقين ، وليس فى القرآن الكريم ، بدليل أن هذا القرآن ، له أثر واضح على المؤمنين ؛ فإنه يزيدهم إيمانًا وتصديقًا ، ويقينًا بصدقه ، وصدق قائله ، والإيمان يزيد كلما زاد إيمان القلب بما نزل من الآيات .

قال الزمخشرى :

فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ؛ لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأثلج للصدر ، أو فزادتهم عملاً ؛ فإن زيادة العمل زيادة فى الإيمان ، فإن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل .

وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وهم مسرورون بنزولها وبما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .

١٢٥- وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ .

إن المريض لا يزيده الطعام الهنيء إلاَّ مرضًا ، والأعشى لا يزيده ضوء الشمس إلاَّ ألمًا وانزعاجًا .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ وتنكر النفس طعم الماء من سقم

فالمنافقون مرضى بالنفاق ، قلوبهم عديلة مظلمة ، فكلما نزلت سورة كفروا بها ، فتزيدهم السورة كفرًا ونفاقًا ، مضمومًا إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، ويستحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا ، وهم كافرون بالقرآن ، وبالنبى ﷺ .

مع أن القرآن فى حقيقته هدًى ونورٌ وشفاء لما فى الصدور . قال تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . (الإسراء : ٨٢) .

وقال عز وجل : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ . (فصلت : ٤٤) .

١٢٦- أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ .

المراد من فتنتهم : كشف نفاقهم وفضيحتهم على رءوس الأشهاد ، وكان ذلك مرة أو مرتين فى كل عام كالذى حدث فى غزوة أحد ، حين رجعوا من الطريق ، وكالذى حدث فى غزوة الخندق حين قالوا : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . (الأحزاب: ١٣) .

وغير ذلك من المخالفات الخطيرة التى كشفها الله ، وفضح فيها نفاقهم ، وكشف أستارهم مرة بعد أخرى.

والمعنى : أبلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء ، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق بهم من فتن واختبارات وابتلاءات ، تنزل بهم فى كل عام مرة أو مرتين ؟!

قال الآلوسي : والمراد من المرة والمرتين : مجرد التكثير ، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور .

ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ . ثم إنهم مع توالى الاختبارات لا يقلعون عن نفاقهم ، ولا يتعظون بما يصيبهم من البلاء وانكشاف أمرهم وفضح دخيلتهم .

١٢٧- وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

وإذا ما أنزلت سورة قرآنية على النبى ﷺ، وهم جلوس عنده؛ نظر بعضهم إلى بعض نظرة متلصصة متغامزة؛ غيظًا من السورة أو سخرية بها، ثم يقول بعضهم لبعض إشارة أو همسًا: هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ. من المسلمين إذا خرجتم من المجلس متسللين، ثم انصرفوا جميعًا فى مجلس الوحى، وأعرضوا عنه فهذا حالهم، لا يُقبلون على الوحى، ولا يقبلونه ولا يفهمونه.

صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم . وهذا إما دعاء عليهم أو إخبار عن أحوالهم.

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . لقد جازاهم الله بمثل صنيعهم، فذلك الصرف لقلوبهم عن الحق؛ سببه أنهم لا يريدون التبصر فى هذا الدين، أو التفقه فى أموره وأحكامه، أو الإنصات والتدبر فى آدابه وهديه، وهم فى نفور من القرآن وتشاغل عنه، قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ. (الصف: ٥).

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المفردات:

عزيز عليه ما عنتم: شاق عليه ما تكرهون من مشاق الحياة، والعنت: المشقة.

حريص عليكم: لا يفرِّط فيما يصلحكم.

رءوف رحيم: الرأفة: شدة الرحمة، ولا تكون مع الكراهية، أما الرحمة فقد تكون مع الكراهية.

التفسير:

١٢٨- لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... الآية.

تمهيد :

تأتى هاتان فى آخر سورة التوبة كالتتمة ؛ لما اشتملت عليه ؛ فقد بدأت السورة بالبراءة من المشركين ، وكشفت حيل المنافقين وفضحتهم ويعثرتهم ، وكأنها تتجه إلى جزيرة العرب كلها ؛ تدعوهم إلى الإيمان بهذا النبىّ الكريم ، الذى أُرسل إلى العرب خاصة وإلى الناس عامة .

المعنى : لقد أرسل إليكم أيها العرب رسولاً من خالص نسبكم ، أو من جنسكم من العرب بلسان عربى مبين ، شاق عليه وقوعكم فى العَنَتِ والهلاك ، حريص على هدايتكم ، بالغ الرأفة والرحمة بكم .

قال القرطبى :

قوله : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ . يقتضى مدحًا لنسب النبىّ ﷺ ، وأنه من صميم العرب وخالصها ، وفى صحيح مسلم عن وائلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »[٢٨] .

وعنه ﷺ أنه قال : « إنى من نكاح ولست من سفاح »[٢٩] .

وقال الزجاج : إن الخطاب فى الآية الكريمة لجميع البشر ؛ لعموم بعثته ﷺ ، ومعنى كونه ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أنه من جنس البشر ، قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ . ا هـ . (الأنبياء : ١٠٧) .

ولا تعارض بين الرأيين ؛ فإن الرسول ﷺ أرسل للعرب خاصة وللناس عامّة .

١٢٩– ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

أى : فإن أعرضوا عن رسالتك ، وكفروا بدعوتك ؛ فالجأ إلى الله واعتصم به فهو الإله ولا إله غيره ومن توكل عليه ؛ حفظه وكفاه ، وهو مالك الملك ومدبر أمره وجميع الخلق فى قبضته .

جاء فى التفسير المنير ص ٩٠ جزء ١١ ما يأتى :

وصف الله تعالى هذا الرسول بخمس صفات :

الأولى : قوله : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ . أى : من العرب ، والمقصود منه : ترغيب العرب فى نصرته .

الثانية : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ . أى: شديد عليه عنتكم أى : مشقتكم ولقاؤكم المكروه فى الدنيا والآخرة ؛ إذ هو منكم ، يتألم لألمكم ويفرح لفرحكم .

الثالثة : حَرِيصٌ عَلَيْكُم . أى : حريص على هدايتكم ، وإيصال الخيرات إليكم فى الدنيا والآخرة .

الرابعة والخامسة : بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . أى : شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ؛ قال ابن عباس رضى الله عنهما : سماه الله باسمين من أسمائه .

فَإِن تَوَلَّوْاْ . أى : أعرض المشركون والمنافقون عنك ، وعن الإيمان برسالتك ، والاهتداء بشرعك ؛ فقل : حَسْبِيَ ٱللَّهُ . أى : الله كافىّ فى النصر على الأعداء . لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، أى : لا معبود سواه أدعوه وأخضع له. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ. فوضت أمرى إليه وحده ، فلا أتوكل إلا عليه .

روى أبو داود عن أبى الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : « حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم » سبع مرات ؛ كفاه الله ما أهمّه ، صادقًا كان أو كاذبًا [٣٠] .

وحكى النقاش عن أبى بن كعب أنه قال : أقرب القرآن عهدًا بالله تعالى : هاتان الآيتان : لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... إلى آخر السورة . وقد اتفق الصحابة حين جمع القرآن على ضع هاتين الآيتين فى آخر سورة بَرَآءَةٌ .

روى أحمد والبخارى والترمذى عن زيد بن ثابت ، فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال: « حتى وجدت من سورة براءة آيتين عن خزيمة الأنصارى ، لم أجدهما مع أحد غيره : لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... إلى آخرها ، أى : لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، كما ذكر ابن حجر[٣١] .

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى تفسير سورة التوبة والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★


تفسير سورة يونس

دروس من سورة يونس

نزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السور التى نزلت بين الإسراء والهجرة ، فهى سورة مكية من أواخر ما نزل من القرآن بمكة . وقد سميت بهذا الاسم؛ لذكر قصة يونس فيها ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية .

أهدافها الإجمالية

موضوعات هذه السورة هى موضوعات السور المكية الغالبة ، وهى الجدل حول مسائل العقيدة والتوجيه إلى آيات الله الكونية ، وإلى سنن الله فى الأرض ، وإلى العظة بالقرون الخوالى ومصائرها وعرض بعض القصص من هذا الجانب الذى تبرز فيه العظة واللمسات الوجدانية التى تنتقل بالإنسان من آيات الله فى الكون إلى آياته فى النفس ، إلى مشاهد القيامة المؤثرة ، إلى قصص الماضين ومصائرهم ، كأنها جميعًا حاضرة معروضة للأنظار .

وهذه السورة تتضمن شيئًا من هذا كله ، وينتقل السياق فيها من غرض إلى غرض بمناسبات ظاهرة أو خفية بين مقاطعها ، ولكن جوهرها كله هو هذا الجو حتى ليصعب الفصل بين مقطع ومقطع فيها فى أغلب الأحيان .

الدرس الأول - مظاهر قدرة الله :

يبدأ القسم الأول من السورة بحروف ثلاثة هى: **ألف ، لام ، را** ، كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران بحروف مشابهة ؛ ذكر العلماء أنها أسماء للسورة ، أو إشارة إلى أسماء الله تعالى وصفاته ، أو هى لبيان إعجاز القرآن الكريم ، أو هى مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ثم تأخذ السورة فى عرض عدة أمور هى بيان حكمة القرآن وطريقته فى تنبيه الغافلين إلى تدبر آيات الله ، فى صفحة الكون وتضاعيفه : فى السماء والأرض ، وفى الشمس والقمر ، وفى الليل والنهار ، وفى مصارع القرون الأولى ، وفى قصص الرسل فيهم، وفى دلائل القدرة الكامنة والظاهرة فى هذا الوجود .

ثم تشرح السورة الحكمة فى الإيحاء إلى رجل من البشر يعرفه الناس ويطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج ، وتذكر الحكمة من إرسال الرسل ؛ فالإنسان بطبعه مهيئًا للخير والشر، وعقله هو أداته للتمييز ، ولكن هذا العقل فى حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما اختلط عليه الأمر وأحاطت به الشبهات وجذبته التيارات والشهوات ، وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته .

وتلفت سورة يونس النظر إلى خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر فيهما ، وإظهار قدرة الله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ . (يونس: ٥) .

وقدر اختلاف الليل والنهار ، إن الله الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق أن يكون ربًّا يعبد ولا يشرك به شيء من خلقه .

إن هذا الليل المظلم ، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح ، وهذا الفجر المتفتح فى نهاية الليل كابتسامة الوليد ، وهذه الحركة التى يتنفس بها الصحيح فيدب النشاط فى الحياة والأحياء وهذا الطير الرائح الغادى القافز الواثب الذى لا يستقر على حال ، وهذا النبت النامى المتطلع أبدًا إلى النمو والحياة ، وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة فى تدافع وانطلاق ، وهذه الأرحام التى تدفع ، والقبور التى تبلع ، الحياة ماضية فى طريقها كما شاء الله .

إن هذا الحشد من الصور والأشكال ، والحركات والأحوال والرواح والذهاب والبلى والتجدد والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة فى هذا الكون الهائل التى لا تنى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار ، إن هذا كله ليستنهض كل همة فى كيان البشر للتأمل والتدبر والتأثر حتى يستيقظ القلب ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة فى ظواهر الكون وحناياه . والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب ؛ لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات وتأمل قدرة الله فى اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر ، فيطول الليل فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، ويطول النهار فى الصيف ويقصر فى الشتاء ، ووراء كل إبداع يد الله القدير الذى رفع السماء وزينها بالنجوم وحفظها من التصدع والوقوع ، وبسط سبحانه الأرض وثبتها بالجبال وزينها بالنبات وأحياها بالأمطار ؛ ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ . (يونس : ٦) .

الدرس الثانى - الأدلة على وجود الله :

يستهل الدرس الثانى من سورة يونس بإعلان جزاء المؤمنين وعاقبة المكذبين ، حيث يقول سبحانه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ . (يونس : ٢٦) .

فالجزاء الحق من جنس العمل ، فمن عمل صالحا فى الدنيا ؛ أدخله الله الجنة ، ومتعه بالطيبات ونجاه من النار .

ثم تستمر الآيات فى بيان عقوبة المكذبين ، وجزاء الخائنين ، وتسوق السورة عددًا من الأدلة والبراهين تنتهى كلها إلى هدف واحد ؛ هو إشعار النفس بتوحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر ، والقسط فى الجزاء .

تلمس الأدلة أقطار النفس ، وتأخذ بها إلى آفاق الكون فى جولة واسعة شاملة ، جولة من الأرض إلى السماء ، ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس ومن ماضى القرون إلى حاضر البشر ، ومن الدنيا إلى الآخرة .

وقد لاحظنا فى الدرس الماضى لمسات من هذه ، ولكنها فى هذا الدرس أظهر ، فمن معرض الحشر إلى مشاهد الكون إلى ذات النفس ، وإلى التحدى بالقرآن إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين ، ومن ثم لمحة عابرة عن الحشر فى مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب ، وإلى تصوير علم الله الشامل الذى لا يند عنه شىء ، إلى بعض آيات الله فى الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب.

إنها مجموعة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك نفس سليمة التلقى ، صحيحة الاستجابة إلا أن تستجيب لها ، وألا تتذاوب الحواجز والموانع فيها دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود . لقد كان الكفار صادقين فى إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم ، وهم يتناهون عن الاستماع إليه ؛ خيفة أن يجرفهم بتأثيره ويزلزل قلوبهم ، وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين . وأن سورة واحدة كهذه أو بعض سورة لتحمل من المؤثرات النفسية والعقلية ما لا يحمله جمع كبير من قوى الشرك والانحراف والفسوق .

لقد أخذ القرآن على النفوس كل مسلك ؛ ليسير بها نحو الإيمان ، وساق إليها أدلة محسوسة ملموسة ، حيث يقول سبحانه : **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ** . من المطر الذى يحيى الأرض وينبت الزرع ، ومن طعام الأرض ونباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها ، فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن أعماقها أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق . حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق . **أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ** . يهبهما القدرة على أداء وظائفهما أو يحرمهما ، ويصححهما أو يمرضهما ، ويصرفهما إلى العمل أو يلهيهما ، وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات ، أو تركيب الأذن وأجزائها وطريقة إدراكها للذبذبات لعالم وحده يدير الرءوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التى يعدها الناس من معجزات العلم الحديث .

وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ . أى : النور من الظلام والظلام من النور ، والنهار من الليل والليل من النهار ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والنبتة من الحبة والحبة من النبتة ، والفرخ

من البيضة والبيضة من الفرخ ... إلى آخر هذه المشاهدات العجيبة ، وإلا فأين كانت تكمن السنبلة فى الحبة ؟! وأين كان يكمن العود ، وأين كانت الجذور والساق والأوراق ؟! .

وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ . كله فى هذا الذى ذكر وفى سواه من شئون الكون وشئون البشر؟! من يدبر الناموس الكونى الذى ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟! ومن يدبر السنن الاجتماعية التى تصرف حياة البشر ؟!

فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . (يونس : ٣١) ، أفلا تخشون الله الذى يرزقكم من السماء والأرض والذى يملك السمع والأبصار ، والذى يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، الذى يدبر الأمر كله فى هذا وفى سواه : فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ . هو سبحانه صاحب الحق والأمر تبارك الله رب العالمين .

الدرس الثالث - قصص الأنبياء :

اشتملت الآيات من ٧١ – ٩٣ من سورة يونس على ذكر طرف من قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون وملئه ، وقد تحقق فيهما عاقبة المكذبين ، وهلاك المخالفين لأوامر الله وهدى رسله ، والقصص فى القرآن يجىء فى السياق ؛ ليؤدى وظيفة فيه ، ويتكرر القصص فى المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه فى السياق والحلقات التى تعرض منه فى موضع تفى بحاجة ذلك الموضع ، ونلاحظ فيما عرض من قصتى نوح وموسى هنا ، وفى طريقة العرض ، مناسبة ذلك لموقف المشركين فى مكة من النبى ﷺ والقلة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها فى وجه الكثرة والقوة والسلطان ، كما نلحظ المناسبة الواضحة بين القصص والتعقيبات التى تتخلله وتتلوه .

قصة نوح

بدأت قصة نوح من الحلقة الأخيرة ، حلقة التحدى الأخير بعد الإنذار الطويل والتذكر والتكذيب ، ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ولا التفصيلات الواردة فى سور أخرى ؛ لأن الهدف هنا هو إبراز التحدى الذى واجه نوحًا من قومه ، واستعانته بالله ، ونجاته ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة ، لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة التى يقصها إلى حلقة واحدة ، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة وهى نجاة نوح ومن آمن معه فى السفينة واستخلافهم فى الأرض على قلتهم ، وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم . قال تعالى :

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ . (يونس : ٧٣) .

وأما قصة موسى فيبدؤها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى وينهيها عند غرق فرعون وجنوده، وإذا كانت قصة نوح قد ذكرت فى أربع آيات فقط هى الآيات من ٧١ إلى ٧٤ من سورة يونس ، فإن قصة موسى قد ذكرت على نطاق أوسع خلال ثمانى عشرة آية هى الآيات من ٧٥ إلى ٩٣ ، وقد ألمت قصة موسى بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين فى مكة من الرسول ﷺ وموقف القلة المؤمنة التى معه ، وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى مقسمة إلى ثلاثة مواقف يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها فى هذه السورة على النحو الذى عرضت به . وهذه المواقف الثلاثة تتتابع فى السياق على هذا النحو :

الموقف الأول: وصول موسى إلى فرعون ومعه آيات تسع ذكرت فى سورة الأعراف ؛ ولكنها لم تذكر فى سورة يونس ولم تفصل ؛ لأن السياق لا يقتضيها ، والإجمال فى هذا الموضع يغنى ، والمهم هو تلقى فرعون وملئه لآيات الله ، لقد استقبلوها بالظلم والاستكبار قال تعالى :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ . (يونس : ٧٥، ٧٦) .

ادعى فرعون أن معجزة موسى سحر ظاهر ، وجمع له كبار السحرة وأرادوا أن يغرقوا الجماهير فى صراع السحر بأن تعقد حلقة للسحر يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ؛ ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس إلا ساحرًا ماهرًا .

والموقف الثانى: موقف المبارزة بين السحرة وموسى ، فقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وتحركت الحبال والعصى فبهرت جميع الناس وأرهبتهم ، ثم ألقى موسى عصاه فى الأرض فانقلبت حية هائلة لها شفتان طويلتان ، شفة فى الأرض تبتلع جميع الحبال والعصى التى ألقاها السحرة ، وشفة مرفوعة إلى أعلى ، ثم أمسك موسى بعصاه فعادت كما كانت ، وبطل السحر ، وعلا صوت الحق . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛ لأنها ليست مقصودة فى هذا المجال ، ويسدل الستار ؛ ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل ، وهذه إحدى عبر القصة المقصودة :

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ . (يونس : ٨٣) .

وفى هذا الموضع تفيد الآيات : أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بنى إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار لا مجموعة الشعب الإسرائيلى ، وأنهم تعرضوا للإرهاب من فرعون ، ولكن موسى ثبتهم على الإيمان ودعا موسى ربه أن ينجى المؤمنين وأن يهلك الكافرين ؛ فاستجاب الله دعاءه وجاء الموقف الحاسم .

الموقف الثالث والأخير : فى قصة التحدى والتكذيب : هو غرق الطغاة الظالمين ونجاة من آمن بالمرسلين .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

المفردات :

الٓر : قال السلف فيها وفى أمثالها : الله أعلم بمراده : ويأتي تفصيل الحديث عنها فى الشرح.

الكتاب الحكيم : القرآن المشتمل على الحكمة وهى إصابة الحق .

قدم صدق عند ربهم : مكانة سابقة محققة فى حسن الجزاء عند ربهم فى الجنة والقدم والقدمة بضم فسكون: السابقة فى الأمر .

لساحر مبين : أى : لساحر بين السحر واضحه : كذا قال الكافرون وهم كاذبون .

التفسير:

١ - الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ .

(الٓر)

أسلفنا الحديث عن هذه الأحرف المقطعة فى صدر سورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ومجمل هذا الحديث أن هذه الفواتح للعلماء فيها رأيان رئيسان :

الأول : أنها من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه .

الثانى : أن لها معنًى وتعددت الآراء فى تحديد هذا المعنى .

فمن العلماء من قال : إنَّها أسماء للسور التى تصدرتها ، ومنهم من قال : هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، ومنهم من قال : هى حروف ذكرت للتحدِّى والإعجاز ، وبيان أن القرآن مكون من الحروف العربية التى تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ؛ فدلَّ ذلك على أنَّه من عند الله تعالى .

ومنهم من قال : هى حروف للتنبيه كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ؛ فقد تواصى الكفار بالإعراض عن القرآن وعدم الاستماع إليه ، قال تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦) .

فلمَّا طرق أسماعهم مالم يألفوه ؛ تنبَّهوا ، فكانت هذه الأحرف بمثابة أدوات الاستفتاح التى تدعو النَّاس إلى الإصغاء والانتباه لما يلقى عليهم .

وجاء فى تفسير الطبرى حكاية عن الربيع : أن الإعجاز فى هذه الأحرف : هو جواز اشتمالها على جميع الآراء التى ذكرها العلماء فى تفسيرها ، فهى أسماء للسورة ، وهى حروف للتحدى والإعجاز ، وهى أدوات للتنبيه ، وهى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، وهى فى نفس الوقت مما استأثر الله تعالى بعلمه .

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ . أى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب المشتمل على الحكمة والصواب ، الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدُّنيوية والأُخروية .

٢- أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ... الآية .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير : عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمدًا رسولاً ، أنكرت العرب ذلك فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فأنزل الله : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا .. الآية وأنزل : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ... الآية . (يوسف: ١٠٩) .

فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشرًا فغير محمد كان أحق بالرسالة ؛ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف: ٣١) ؛ يعنون : الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفى من الطائف ، فأنزل الله ردًا عليهم : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ... الآية . (الزخرف : ٣٢) .

المعنى : أبلغ الجهل وسوء التفكير بمشركى مكة ومن على شاكلتهم ؛ أن كان إيحاؤنا إلى رجل منهم، يعرفهم ويعرفونه ؛ لكى يبلغهم الدين الحق أمرًا عجبًا ، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه - ﷺ - حتى لكأن النبوة فى زعمهم تتنافى مع البشرية ؟!

إن الذى يدعو إلى العجب حقًا ، هو ما تعجَّبوا منه ؛ لأن الله جل جلاله اقتضت حكمته أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ لأن كل جنس يأنس إلى جنسه وينفر من غيره ، وقد عجبوا أن يكون الرسول بشرًا لا ملكًا ، فقال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

كما سخروا من اليتيم الفقير ، وقالوا : أما وجد الله من يرسله رسولاً سوى يتيم أبى طالب ، وقد بين الله سبحانه أنه أعلم حيث يجعل رسالته ؛ فالله يصطفى للرسالة من هو أقدر على حملها ؛ بخلقه وقوته النفسية والمعنوية ، وما يتمتع به من صبر واحتمال ، وشجاعة وإخلاص ، وهذه صفات لا يقتصر توافرها على الأغنياء والوجهاء ، بل إن نعم الله موزعة على جميع خلقه ، فربَّ فقير بلغ القمة فى مكارم أخلاقه ، قال تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . (القلم: ٤) ، ورب غنى ليس أهلاً لتحمل أعباء الرسالة ؛ لأنه عنيدٌ مكابر، قال تعالى : ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ... (المدثر : ١١–١٦) .

وقال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم : وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ... (الضحى ٥–٨) .

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ . أى : لا ينبغى أن يعجب الناس من اختيار الله لمحمد رسولاً ؛ لينذر أهل مكة ، ويبشر المؤمنين بأن لهم سابقة محققة فى الفضل وحسن الجزاء عند ربهم ؛ فالنبوة للبشر لا للملائكة ، والتفاوت بين الناس ، ليس بالمال ، بل بالعقل والكمال والاستقامة .

قَالَ ٱلْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ . أى : لا يملك الضعيف أو الخاسر المفلس ، سوى الاتهام الرخيص الكاذب الذى لا فائدة منه ؛ لذلك قال الكافرون : إنَّ محمدًا لساحر ظاهر السحر ، أو إن القرآن لسحر مبين .

قال الإمام الرازى :

ووصف القرآن بأنه سحر يدل على عظم محل القرآن عندهم ، وكونه معجزًا ، وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة ، فاحتاجوا إلى هذا الكلام الذى ذكروه فى معرض الذمّ ، على ما يظهر ، وأرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر ؛ ولكنه باطل فى الحقيقة ، ولا حاصل له ، أو ذكروه فى معرض المدح ، وأرادوا به : أنه لكمال فصاحته ، وتعذر مثله جار مجرى السحر .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

فى ستة أيام : أى : فى ستة أوقات لا يعلم مداها إلا الله تعالى أمَّا اليوم المعروف ؛ فإنه لم يحدث إلا بعد خلق السماوات والأرض .

ثم استوى على العرش : ثم استولى عليه ، ومنه قول الشاعر : استوى بشر على العراق . من غير سيف ودم مهراق .
أى : ثم استولى على العرش ؛ ليدبر شئونه وشئون الكون كُله ، ولم يغلبه عليه أحد ، فهو وحده الخالق المدبر ، وسيأتى فى المعنى الحديثُ عن العرش .

بالقسط : بالعدل .

شراب من حميم : شراب من ماءٍ شديد الحرارة .

التفسير:

٣- إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... الآية .

جاءت هذه الآية لإظهار بطلان تعجبهم من أن الله أرسل إليهم رجلاً منهم ؛ لينذرهم ويبشرهم .

المعنى : إن ربكم ومالك أموركم هو الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أزمنة أو أيام ، قيل : كأيام الدنيا ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدون ، أو خمسين ألف سنة .

والمختار : أن السماوات والأرض خلقت فى ستة مراحل متباعدة ، اقتضاها تطوير خلقها من دخان إلى نجوم وكواكب وأرضين يابسات[٣٢].

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ . أى : ملك سلطان الكون وهيمن عليه .

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ . أى : يدبر أمر الخلائق والملكوت بما يتفق مع حكمته وعلمه ، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته ، وسبقت به كلمته .

مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ . فى هذا النص الكريم تقدير لعظمة الله ؛ فهو المتفرد بالألوهية ، ليس معه إله آخر – وقد ادعى المشركون أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى ؛ فذكر القرآن الكريم فى أكثر من آية أن الشفاعة مقصورة على من ارتضاه الله أهلاً للشفاعة وهو محمد ﷺ .

والمعنى : ما من شفيع لأحد فى وقت من الأوقات إلا من بعد إذن الله المبنىّ على الحكم الباهرة ، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار ، والمشفوع له ممن تليق به الشفاعة من عصاة المؤمنين .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أى : هذا الذى ذكر فضله وآلاؤه هو الله الذى لا إله سواه ، وهو ربكم وخالقكم ؛ فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا .

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أفلا تتفكرون أدنى تفكّر ، فينبهكم على أنَّه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه.

٤– إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ... الآية .

إلى الله تعالى وحده رجوعكم جميعًا بالبعث والحشر لا إلى غيره ، وعد الله ذلك وعدًا حقًّا ، لا خلف فيه ؛ فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه ؛ لتنالوا ثوابه وتنجوا من عقابه .

إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ .

تقع هذه الجملة موقع الدليل على وقوع البعث ؛ فإنَّه سبحانه وتعالى بدأ الخلق بدون مثال سابق ، ومن بدأ الخلق كان قادرًا على إعادته ، بل الإعادة أهون وأيسر ، قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . (الروم : ٢٧) .

وحكمة البعث والجزاء : هى إثابة الطائعين ومعاقبة المكذبين ، قال تعالى :

لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ .

أى : ليكافئ المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحة بالعدل ، فيحسن جزاءهم ويزيدهم من فضله .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ .

إن الدنيا ليست دار جزاء ، وربما تنعّم فيها المفْسدُون ، ونالُوا حظًّا من المال والجاه والسلطان ؛ فلابد من دار جزاء يكافأ فيها المحسنون ، أما الكافرون فيلقون جزاء كفرهم ، ومن ذلك : أن يشربوا ماءً كالمهل يشوى الوجوه ، وأن ينالوا عذابًا شديد الإيلام ؛ بسبب إصرارهم على كفرهم واستمرارهم على الجحود والتكذيب برسالات السماء .

★ ★ ★

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

ضـــيــــاء : أى : ذات ضياء واشتعال ، والضياء : اسم مصدر من أضاء يضىء ، وجمع ضوء كسياط وسوط ، وحياض وحوض .

والقمر نورا : أى : ذا نور ، فيه إنارة ، والضوء والنور بمعنى واحد لغة ، والضوء أقوى من النور استعمالاً بدليل هذه الآية ، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار ، والنور لما كان مكتسبًا من غيره .

ويدل على ذلك قوله : وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا . (نوح : ١٦) . والسراج : نوره من ذاته ، والضياء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التى ترى فى قوس السحاب فهو سبعة أضواء ، وقد كشف ترقى العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلونه فى عصر التنزيل .

أى : قدره ذا منازل . والتقدير : جعل الشىء أو الأشياء على مقادير مخصوصة ، فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان ، كما قال : وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا . (الفرقان : ٢) . وقال : وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ (يس : ٣٩) . والمنازل : واحدها منزل ، وهو مكان النزول ، وهى ثمانية وعشرون منزلاً معروفة لدى العرب بأسمائها .

ويبقى من الشهر ليلة : إن كان ٢٩ وليلتان إن كان ٣٠ يومًا يحتجب فيها فلا يرى .

التفسير:

٥-هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ... الآية .

خلق الله السماء ، وبسط الأرض ، ودبر نظام الكون ، وجعل الشمس مضيئة نهارًا والقمر منيرًا ليلا .

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ . أى : وقدر سير القمر فى فلكه منازل ينزل كل ليلة فى واحد منها لا يجاوزها ولا يقصر دونها ، وهى ثمانية وعشرون منزلا يرى القمر فيها بالأبصار ، وليلة أو ليلتان يحتجب فيها فلا يرى .

لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ . أى : لتعلموا بما ذكر من صفة النيرين ، وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام ؛ لضبط عبادتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية ، ولولا هذا النظام المشاهد ؛ لتعذر العلم بذلك على الأميّين من أهل البدو والحضر ؛ إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يعلم إلا بالدراسة ، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمرى ، الذى يعرفه كل واحد بالمشاهدة .

ولعبادتى الصيام والحج حكمة أخرى وهى دورانهما فى جميع الفصول ، فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات من حارة وباردة ومعتدلة[٣٣] .

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسى بنحو قوله : ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . (الرحمن : ٥) . وقوله سبحانه : وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً . (الإسراء : ١٢) .

مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَالِكَ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ . ما خلق الله ذلك إلا مقترنًا بالحق الذى تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ونظام معايشهم فلا عبث ولا خلل – « كل هذا النظام ، وكل هذا التناسق لا يكون عبثًا ولا باطلاً ولا مصادفة عابرة ، بل تنظيم إله حكيم مدبر»[٣٤] .

يُفَصِّلُ ٱلآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . يوضح الدلائل من حكم الخلق ، مفصلة منوعة من كونية وعقلية ، لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل ، والفرق بين الحق والباطل . باستعمال عقولهم فى فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق هذين النيرين وما فيهما من النظام بالحق ، لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الإنسان العجيب عبثًا ولا أن يتركه سدى ، وفى الآية تنويه بفضل العلم وكون الإسلام دينا علميًا لا تقليديًا[٣٥] .

٦- إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ... الآية .

فى حدوثهما وتعاقبهما فى طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس والنظام الدقيق لهما ، وطبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون وعمل دينى ودنيوى .

وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، ويدخل فى ذلك أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار وأحوال البحار ، وأحوال المعادن وسائر المخلوقات .

لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ . لأدلة ناطقة لوجود الله ، ووحدانيته وحكمته فى الإبداع والإتقان ، وفى تشريع العقائد والأحكام ، لقوم يتقون الله . ويخافون غضبه ، ويرجون رحمته ، ويتأملون فى بديع صنعة. والتقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

لا يرجون لقاءنا : لا يتوقعون الرجوع إلى الله تعالى .

مأواهم : مسكنهم ومقرهم .

التفسير:

٧- إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ .

هذه الآية والتى تليها تبين مصير من كفر بالبعث ، ومصير من غفل عن آيات الله .

لقد وصفتهم الآية بأربع صفات :

١ - إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا .

أى : لا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة للحساب والجزاء ؛ فقد خلت قلوبهم من الإيمان بالآخرة والعمل لها، وعدم عمل أىّ حساب لها – وقريب من ذلك قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا . (الفرقان : ٢١) .

٢ - وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .

لقد رضوا بالحياة الدنيا ، وألفُوا زينتها ، ومُتِّعوا ، ولم يفكروا إلا فى تشبعهم فى زينة الدنيا والركون إليها ، والاغتراف من لذائذها وشهواتها وأعرضوا عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم .

قال الإمام الرازى : استغرقوا فى طلب اللذائذ الحسية ، واكتفوا بها ، وتفرغوا لها .

٣ - وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا .

أى : سكنوا فيها سكون من لا يبرحها ، آمنين من المزعجات .

قال الإمام الرازى : اطمأنوا إلى الدنيا اطمئنان الشخص إلى الشىء الذى لا ملاذ له سواه .

فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تطمئن إلاَّ إلى زينة الحياة الدنيا .

٤ - وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ .

لقد غفلوا عن آيات الله فى هذا الكون ، وعن آيات الله وشرائعه المنزلة على رسله ؛ فلم تتحرك قلوبهم إلى النّظر أو التأمل فى هذا الكون البديع المنظم لينتقلوا من جمال الصنعة إلى جمال الصانع ، ولم تتحرك عقولهم للنظر فى الأدلة الشرعية والبراهين الداعية إلى الإيمان ، ولم يتزودوا ليوم الوعيد .

٨ - أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

أى : أولئك الذين تقدمت صفاتهم ، مقرُّهم وملجأهم الذى يلجئون إليه : النار وبئس القرار ؛ جزاء انشغالهم بالدنيا ، واستغراقهم فى التمتع بلذائذها والاستمتاع بلهوها وباطلها وإعراضهم عن الآخرة وعن العمل لها .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾

المفردات :

تجرى من تحتهم: تجرى من تحت قصورهم فى الجنة .

دعواهم فيها : أى: دعاؤهم فيها .

التفسير:

يقابل الحق سبحانه بين عمل الكافرين للدنيا ، واستغراقهم فى متعها وشهواتها ، وبين إيمان المؤمنين الممزوج بالعمل الصالح فيقول :

٩ – إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

هؤلاء الذين آمنوا بالله إيمانًا صادقًا ، وعملوا الأعمال الصالحة من العبادات والمعاملات والآداب ومكارم الأخلاق – هؤلاء يهديهم الله فى دنياهم ؛ فينير بصيرتهم وتكون سعادتهم فى طاعة الله ومرضاته، والبعد عن معصيته وإذا قام المؤمن من قبره ؛ وجد أمامه صورة حسنة تبشره بالجنة وترشده إلى الصراط المستقيم ؛ فيسأل صاحب الصورة : من أنت؟! فيقول له : أنا عملك الصالح ؛ فيجعل عمله الصالح بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالى : يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ .

والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة فيلزم صاحبه حتى يقذفه فى النار[٣٦] .

تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

أى : تجرى من تحت قصورهم الأنهار فى جنات النعيم والخلد ، وهذا مثل للتنعم والراحة والسعادة ، والانسجام فى تلك المناظر الخلابة ، التى تأخذ بمجامع القلوب .

١٠ – دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ .

أى : يبدءون دعاءهم وثناءهم على الله بهذه الكلمة : سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ . أى : تنزيهًا وتقديسًا لك يا آلله ، أو اللَّهم ، إنا نسبِّحك .

قال الإمام الرازى : إنه لا عبادة لأهل الجنة ، إلا أن يسبِّحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله تعالى .

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ .

وما يُحيُّون به فى الجنة لفظ السلام ، الدالّ على الأمن والطمأنينة والسلامة فى كل مكروه ؛ وهذا السلام هو تحية الله لهم .

قال تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَـٰمٌ . (الأحزاب : ٤٤) . وهو تحية الملائكة لهم عند دخول الجنة .

قال تعالى : وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ . (الزمر : ٧٣) .

وأهل الجنة يعيشون فى سلام وأمان بعيدين عن اللغو والآثام ؛ قال تعالى : لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا . (الواقعة : ٢٥ ، ٢٦) .

وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أى : أن آخر دعائهم : أن يشكروا الله تعالى ؛ على ما أنعم عليهم من نعم ظاهرة وباطنة ، ويختمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين .

قال ابن كثير : وفى هذا دلالة على أنه سبحانه هو المحمود أبدًا ، المعبود على طول المدى ؛ ولهذا حَمَد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وعند ابتداء تنزيل كتابه ، حيث يقول تعالى : الحَمْدُ لِلَّهِ الذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ . (الأنعام : ١) .

ويقول سبحانه : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا . (الكهف : ١) .

كما نجد أن حمد الله هو آخر كلام الملائكة ؛ قال تعالى : وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . (الزمر : ٧٥) .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

المفردات :

لقضى إليهم أجلهم : لانتهى الأجل الذى قدره الله لعذابهم وأميتوا جميعًا وما أمهلوا لحظة واحدة .

لا يرجون لقاءنا : لا يتوقعون الرجوع إلينا لإنكارهم البعث .

فى طغيانهم : الطغيان : مجاوزة الحد فى الظلم والمراد هنا : إنكارهم البعث وتكذيب الرسل وارتكاب ما يترتب على ذلك من المفاسد والموبقات .

يعمهون : يترددون ويتحيرون .

وإذا مس الإنسان الضر : وإذا أصابه أى ضرر .

دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما : تضرع إلينا وهو مضطجع على جنبه أو دعانا قاعدًا أو قائمًا ، طالبًا إزالته عنه.

مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه : أى : مضى واستمر على ما كان عليه قبل البلاء من التكذيب ، كأنه لم يلجأ إلينا لإزالة ما أصابه .

زين للمسرفين ما كانوا يعملون : حسن للمتجاوزين الحد فى ارتكاب القبائح ما عملوه منها .

التفسير:

١١- وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ ... الآية .

تمهيد :

كان كفار مكة يتعجلون نزول العذاب بهم ؛ استهزاءً بالنبى ، وتهكمًا بالعذاب ، واستهانة به .

قال تعالى : وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

فردّ القرآن عليهم بقوله سبحانه : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣)

فهم يستعجلون نزول العذاب عند يأسهم أو قنوطهم من الهداية ؛ ولكنّ الله تعالى لا يُعجّل عقوبتهم فى هذه الدنيا ، ويمنحهم الفرصة لعلهم أن يتوبوا ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله .

المعنى : ولو يعجل الله لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث ، ولا يتوقعون الرجوع إلى الله – لو يعجل لهم العذاب الذى كانوا يستعجلون وقوعه بهم ، مثل : إسراعه بتحقيق الخير لهم عند استعجالهم به وطلبهم إياه .

لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .

أى : لأُميتوا وأهلكوا فى هذه الدنيا ، وما أمهلوا لحظة واحدة ؛ جزاء جرأتهم .

كما قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ . (فاطر : ٤٥) .

ولكنه سبحانه يمهلهم ويملى لهم ، ولا يعجّل لهم الشر الذى طلبوه .

فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ .

أى : فنترك الذين لا يتوقعون لقاءنا يوم البعث ، ولا يصدقون بيوم القيامة فيما هم فيه من طغيان الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين ، ولا نعجل لهم عذاب الاستئصال ؛ تكريمًا للنبى ﷺ ، ونمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم ؛ إلزامًا للحجة عليهم .

وقد روى الإمام الآلوسى : أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث حين قال : ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

وقال الإمام الرَّازى : «بيَّن سبحانه فى هذه الآية : أنهم لا مصلحة لهم فى تعجيل إيصال الشر إليهم ؛ لأنه تعالى لو أرسل ذلك العقاب إليهم ؛ لماتوا وهلكوا ، ولا صلاح فى إماتتهم ، فربَّما آمنوا بعد ذلك ، وربما خرج من أصلابهم من كان مؤمنًا ، وذلك يقتضى ألا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر» .

ومع أن الآية تشمل المشركين اشتمالا أوليًّا ، فإن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ فهى كذلك تشمل طائفة من الناس يتعجلون وقوع الشرِّ بهم أو بأولادهم أو بأحبابهم فى حالة الغضب أو الحزن منهم ؛ فيدعون على أنفسهم أو على أولادهم . والله تعالى من فضله ولطفه لا يعجل استجابتهم ، إذا دعوا على أنفسهم ، أو أموالهم وأولادهم . بالشر فى حال ضجرهم وغضبهم ؛ لأنه سبحانه يعلم منهم عدم القصد

إلى إرادة ذلك ؛ فلهذا لا يستجيب لهم فى هذه الحالة ، مع أنه يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم ، أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة .

وقد اختار الإمام ابن كثير هذا الرأى فى تفسيره ؛ فذهب إلى أن الآية تخصّ المسلم الذى يدعو على نفسه أو ولده فى حال غضبه ، فلا يُعجّل الله إجابته ؛ لطفًا منه ورحمة .

ثم قال الإمام ابن كثير :

ولكن لا ينبغى الإكثار من دعاء الإنسان على نفسه أو ولده ؛ كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو البزار فى مسنده عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم» .

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، فلو يعجل لهم الاستجابة فى ذلك كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم [٣٧] .

وقال ﷺ : «إنى سألت الله عز وجل ألا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه»[٣٨] .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولاً﴾ . (الإسراء : ١١).

أى : أن الإنسان إذا غضب أو انفعل من ولده ؛ فإنه يدعو عليه بالشر مثل : المرض أو الفقر ، وكان الأولى والأوفق أن يدعو له بالهداية والتوفيق والخير ، ولكن الإنسان عجول يتعجل فى دعائه بالشر على أحبابه ، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد .

وقد ورد فى هدى السنة النبوية : النهى عن دعاء الإنسان على ولده ؛ خشية أن تكون أبواب السماء مفتوحة ؛ فيستجاب الدعاء ، وينحرف الابن ، ويكون دعاء الأب سببا فى فساد الابن .

١٢- ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ...﴾

من طبيعة الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى فى البأساء ، وأن ينسى ذلك فى النعماء ؛ فمن الناس من إذا نزل به الضر ؛ فزع إلى ربه داعيًا راجيًا .

قال تعالى : ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ . (الإسراء : ٨٣) .

وقال سبحانه : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ . (فصلت : ٥١) .

والآية مع كونها تتناول الكافر تناولاً أوليًا ، فإنها تشمل كذلك المؤمن العاصى ، فهو فى حالة المرض والفقر والخطر يدعو ربَّه ، صارخًا مستغيثًا متبتلاً راجيًا فضله ، متبتلاً بذكره ، طارقًا باب مولاه بالليل والنهار ، فى النوم ، واليقظة والجلوس والقعود ، وفى جميع الحالات .

دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا .

أى : دعا الله تعالى حالة كونه مضطجعًا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا وفى جميع أحواله ؛ لأن فائدة الترديد فى القعود والقيام والرقاد ؛ تعميم الدعاء لجميع الأحوال .

قال الزمخشرى : معناه : أن المضرور لا يزال داعيًا لا يفتر عن الدعاء ؛ حتى يزول عنه الضرّ ، فهو يدعونا فى حالاته كلها ، سواء أكان منبطحًا عاجزًا عن النهوض ، أم كان قاعدًا لا يقدر على القيام ، أم كان قائمًا لا يطيق المشى ، ويجوز أن يراد : أن من المضرورين من هو أشد حالاً ، وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء ، واستدفاع البلاء ؛ لأن الإنسان للجنس [٣٩] .

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ .

فلما كشف الله كربه ، وأزاح عنه الضرّ والبلاء ؛ اندفع فى غمار الحياة ، ناسيًا ما كان فيه من ضر وبلاء ، غارقًا فى بحار الغفلة كأنه لم يكن متلهفًا ، متبتلاً ، راجيًا ، داعيًا ، مستغيثًا فى وقت البلاء ، كثير الدعاء والرجاء .

قال الشوكانى : وهذه الحالة تتفق لكثير من المسلمين ؛ تلين ألسنتهم بالدعاء عند نزول ما يكرهون بهم ، فإذا كشفه الله غفلوا ، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة على إجابة دعائهم ، ورفع الضّر ودفع المكروه [٤٠].

كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

زُيِّن لهم الإعراض عن الدعاء ، والغفلة عن الشكر ، والاشتغال بالشهوات ، والجدير بالمسلمين أن يلجئوا إلى الله فى السّراء أيضًا ؛ فإن ذلك أرجى للإجابة فى الضراء .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «تعرف إلى الله فى الرخاء ؛ يعرفك فى الشدّة» .

١٣– وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ .

هذه الآية خطاب لأهل مكة ، وفيها تذكير وتحذير .

والمعنى : ولقد أهلكنا أهل القرون السابقة من قبلكم بسبب ظلمهم وكفرهم . مثل : قوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وفرعون وقومه ، والرومان واليونان ، وكل أمة كذبت رسل الله أو كفرت بنعمة الله.

فإمَّا أن يعذبها عذاب استئصال بالغرق أو الصاعقة والهلاك ، وإمَّا أن يعاقبها بالفقر واستيلاء الآخرين على أرضها ، وسيطرتهم على أملاكها مثل : قوم سبإ .

قال تعالى : ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ . (سبأ : ١٧) .

وقال سبحانه : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ . (النحل : ١١٢) .

وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ . لقد أرسل الله لهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وقدَّم مع الرسل المعجزات ، مثل : ناقة صالح ، وعصا موسى، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى ؛ لكنهم كذبوا هذه المعجزات الظاهرة؛ التى لا ينبغى فيها التكذيب والكفران ، لأنها تدعوا إلى التصديق والإيمان .

وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ .

وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا ؛ لعدم استعدادهم لذلك ؛ إذْ أفسدوا فطرتهم ؛ باختيارهم الضلالة على الهدى .

كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ .

أى : مثل ذلك الجزاء الأليم الذى حلّ بالمكذبين ، من الأمم الماضية ؛ نجزى كل طائفة أجرمت وطغت وبغت وكفرت بأنعم الله .

فى هذه الآية تهديد ووعيد لأهل مكة ولأمثالهم ؛ بأن يهلكهم الله إذا كذبوا محمدًا ﷺ ، لكن حكمة الله اقتضت تأجيل وقوع العذاب بهم ؛ أملا فى استغفارهم وتوبتهم .

★ ★ ★

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

خلائف فى الأرض : خلفاء فى الأرض بعد إهلاك المكذبين السابقين .

التفسير :

١٤- ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

وهذا خطاب لمن أرسل إليهم رسول الله محمد ﷺ ؛ فقد كان من شأن الله وحكمته أن يرسل الرسل وينزل الكتب ، ويعاقب المكذبين جزاء ظلمهم وكفرهم وتكذيبهم للرسل ، ثم خاطب الذين أرسل إليهم محمد ﷺ بقوله :

ثم جَعَلْنَٰكُمْ . خلفاء فى الأرض بعد تلك القرون والأمم التى أهلكنا ؛ لننظر أتعملون خيرًا أم شرًّا ، وننظر طاعتكم لرسولنا واتباعكم له .

وفى آيات أخرى بين الحق سبحانه : أن الخلافة فى الأرض والتمكين فيها ؛ سببه العمل الصالح ، والاستجابة لأمر الله وقوانينه ونواميسه فى تمكين العاملين المجتهدين فى الخير ، والانتقام من المهملين المتقاعسين عن عمل الخير .

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

وقال عز شأنه : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . (النور : ٥٥) .

والله تعالى يستخلف قومًا بعد آخرين ؛ لينظر كيف يعملون خيرًا أو شرًّا .

قال تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . (الملك : ٢) .

وقال عز شأنه : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . (الكهف : ٧) .

وجاء فى صحيح مسلم : عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ؛ فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت من النساء» (متفق عليه)[11] .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

لا يرجون لقاءنا : لا يتوقعون مجىء البعث ، والمراد : أنهم ينكرونه .

ولا أدراكم : ولا أعلمكم الله بالقرآن عن طريق الوحى به إلىَّ .

فقد لبثت فيكم عمرا من قبله : أى : فقد أقمت بينكم زمنًا طويلاً من قبل نزول القرآن علىَّ .

لا يفلح المجرمون : أى : لا ينجون مما يحذرون ولا يفوزون بما يطلبون .

التفسير:

١٥- وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ... الآيات .

تكشف هذه الآيات عن وجه مشركى مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ وعبدوا الأصنام ، ثم نزلت آيات القرآن تدعو إلى توحيد الله ونبذ الأصنام والأوثان ، وتدعو العقول إلى التأمل والتفكر ، فى خلق هذا الكون العظيم ، وأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ؛ وعندئذ جاء كفار مكة إلى النبى ﷺ يطلبون منه تبديل آيات القرآن ؛ حتى يمكن الاستجابة لها أو التفكير فيها – طلبوا حذف الآيات التى تندد بعبادة الأصنام ، وطلبوا تبديل آيات الوعيد ، إلى آيات تقدم الوعد والجنة ، بدلاً من التوعّد بالنار .

والمعنى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ . تدعو إلى توحيد الله ونبذ الأوثان وإبطال الشرك ، وتشرح حقيقة الإيمان وتنفر من الغرور والعصيان .

قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ .

جاء فى تفسير الآلوسى عن مقاتل قال :

نزلت هذه الآية فى جماعة من قريش ؛ قالوا للنبى ﷺ : إن كنت تريد أن نؤمن لك ، فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى ، وليس فيه ما يعيبها ، وإن لم ينزل الله تعالى عليك ذلك فقل أنت هذا من عند نفسك ، أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان حرام حلالاً ، ومكان حلال حرامًا .

والمعنى : وإذا تتلى على المشركين آياتنا الواضحة ، المنزلة عليك يا محمد ؛ قالوا – على سبيل العناد والحسد – : ائت بقرآن آخر غير هذا القرآن الذى تتلوه علينا ، أو بدله بأن تجعل مكان الآية التى فيها ذم لآلهتنا ، آية أخرى فيها مدح لها .

قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ .

كان المشركون يطمعون فى استجابة محمد لكلامهم ؛ وبذلك يتحول القرآن من أنه وحى من السماء، إلى أن يكون كلامًا من كلام البشر ؛ والقرآن هنا يوجه الرسول ﷺ إلى إجابتهم ، وتوضيح حقيقة موقفه؛ فهو يبلغ عن الله ، وهو أمين على وحى السماء ، وما ينبغى له أن يبدِّل كلام الله ، بكلام من عند نفسه ؛ ومن جهتها ؛ وإنما هو مبلغ عن الله ، ملزم بهذا التبليغ .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ . (المائدة : ٦٧) .

وقد بلغ الرسول كلام ربه ، وأدى هذه الأمانة .

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ .

أى : أنا أبلغ وحى الله إلىّ ، بدون تحريف ولا تبديل ، وبدون زيادة أو نقصان ؛ فهذا وحى الله وأنا عبد الله ورسوله ، ما علىّ إلا البلاغ .

إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

إنى أخشى إن ارتكبت أى مخالفة أو عصيان لما أمر ربّى ، عذاب يوم عظيم هو عذاب يوم القيامة .

١٦- قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَاكُم بِهِۦ .

أى : قل أيها النبى لهؤلاء المنكرين ؛ عنادًا واستكبارًا : لو شاء الله تعالى ألا يجعلنى رسولاً إليكم ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ولا أعلمكم به ، ولا أخبركم به ، ولكنه شاء أن أتلوه عليكم ، وأن يعلمكم به بواسطتى ؛ فأنا رسول مبلغ عن الله .

فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أى : مكثت فيكم وأقمت بينكم أربعين سنة قبل نزول القرآن علىَّ ، شاهدتم أحوالى وأخلاقى ، وعرفتم صدقى وأمانتى ، وعرفتم أننى أمّى لم أجلس إلى معلم ؛ فكيف أستطيع أن أجىء بهذا الكتاب المشتمل على التشريع والآداب والأخلاق وقصص الأولين وأخبار القيامة والبعث . أنَّى لأمّى مثلى أن يفصح عن كل هذا، إلا إذا كان ذلك عن طريق الوحى ؟!

أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أفلا تستخدمون عقولكم ، وتعرفون أن أمثال هذه الاقتراحات المتعنتة التى اقترحتموها ؛ لا يملك تنفيذها أحد إلا الله تعالى .

١٧- فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ .

أى : لا أحد أظلم من رجلين:

الأول : من يفترى على الله كذبًا ، بأن ينسب إليه سبحانه ما هو برىء منه ، أو يبدل القرآن من عند نفسه وينسب ذلك إلى الله أو يتقول على الله ويزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك .

والثانى : من كفر بآيات الله وكذب بوحى السماء .

إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ .

أى : إن حال وشأن هؤلاء المجرمين أنهم لا يفلحون ، ولا يصلون إلى ما يبتغون ويريدون ؛ فشتان بين محمد ﷺ الصادق الأمين المؤيد بوحى السماء ، المنزل عليه القرآن الصادق المعجز المتحدى به ، وبين مسيلمة الكذاب المدَّعى للنبوة كذبًا ؛ إن الفرق بينهما كما بين الشمس فى رائعة النهار ، وبين نصف الليل فى شدة الظلام ؛ فالحق أبلج ، والباطل لجلج .

★ ★ ★

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

المفردات :

أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض : أى : أتخبرون الله بشفعاءَ لا يعلمهم فى السماوات ولا فى الأرض ، والمراد : نفى وجودهم إذ لو وجدوا لعلمهم الله سبحانه .

أمة واحدة : جماعة متفقة على الحق فى أصل الفطرة .

ولولا كلمة سبقت : أى : ولولا قضاءُ الله بتأخير الفصل بين المحق والمبطل إلى يوم القيامة .

التفسير :

١٨- وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ... الآية .

هذه قصة أخرى من قصص هؤلاء المشركين ، الذين عبدوا اللات والعزى ومناة ، وزعموا أن هذه الأصنام تشفع لهم فى الدنيا ، بالنعيم والسعادة والغنى والعافية ، وتشفع لهم فى الآخرة ، بدخول الجنة.

أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كان النضر بن الحارث يقول : إذا كان يوم القيامة ؛ شفعت لى اللات والعزى ؛ فنزلت هذه الآية :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ . أى : إن من شأن الإله المعبود أن ينفع صاحبه الذى يعبده ويستجيب دعاءه ، ويدفع عنه المكروه والضرّ ، لكن هذه الأصنام التى يعبدونها لا تضرهم إن لم يعبدوها ، ولا تنفعهم إن عبدوها ؛ لأنها صماء لا تسمع ولا تعقل ولا تحس ولا تجيب ، وهى غافلة عن عبادتهم .

وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ .

إذا توجه القول إلى الكفار : بأن هذه الأصنام لا تسمع ولا تجيب ولا تنفع ولا تضّر ؛ قالوا : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . (الزمر : ٣) ؛ فهم شفعاؤنا عند الله ، أى : نتوسل بهم إلى الله ؛ لإصلاح معاشنا في الدنيا ، وإصلاح معادنا فى الآخرة .

وحال هؤلاء المشركين إن دل على شىء ، فإنما يدل على فرط الحماقة والجهل ؛ حيث تركوا عبادة الإله ، القادر الواحد الأحد ، النافع الضار ؛ الفرد الصمد ، وتوجهوا بعبادتهم إلى ما لا يضر ولا ينفع .

قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الحمقى ؛ إنكارًا عليهم وتوبيخًا لهم ، وسخرية منهم : أتخبرون الله تعالى بشىء لا وجود له أصلاً فى السماوات والأرض ، وهو أن الأصنام شفعاؤكم عند الله تعالى .

جاء فى تفسير التحرير والتنوير ما يأتى :

ولما كان ذلك شيئا اخترعوه من عند أنفسهم ، وهو غير واقع ؛ جعل اختراعه بمنزلة أنهم أعلموا الله به ، وكان لا يعلمه فصار ذلك كناية عن بطلانه؛ لأن ما لم يعلم الله وقوعه فهو منتف ، ومن هذا قول من يريد نفى شىء عن نفسه : ما علم الله هذا منّى ، وفى ضدّه قولهم فى تأكيد وقوع الشىء : يعلم الله كذا حتى صار عند العرب من صيغ اليمين (٤٢) .

سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وهى اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى أى : تنزيهًا لله تعالى عن إشراكهم الذى بنوا عليه هذا القول الزائف ، وعن الشركاء الذين يشركونهم فى العبادة معه تعالى .

١٩- وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إن الإنسان بفطرته ينزع إلى توحيد الله الخالق .

أى : وما كان الناس كافةً من لدن آدم عليه السلام ؛ إلاَّ متفقين على الحق والتوحيد ، وظلوا كذلك حتى أغوى الشيطان فريقا منهم فكفر ، وثبت الآخرون على التوحيد ، الذى فطروا عليه ؛ فخالف كل من الفريقين الآخر.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

شاء الله ألاَّ يُهلك المبطلون فى هذه الدنيا ؛ بل يمهلهم بعض الوقت ؛ علهم أن يتبينوا الحق والهدى وهذه منة من الله ورحمة .

فقد خلق الإنسان بيده ، وأسجد له الملائكة ، وميزه بالعقل وحرية الاختيار ، وأخّر عنه العذاب والأخذ بغتة ، وأرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، وأخبره بما أصاب المكذبين من الهلاك ، كلّ ذلك ليكون لدى الإنسان فرصة مناسبة ؛ للتأمل والتفكر والتدبر ، واختيار الحق والبعد عن الباطل .

جاء فى تفسير التحرير والتنوير :

وجملة : وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ .

إخبار بأن الحق واحد ، وأن ذلك الاختلاف مذموم ، وأنه لولا أن الله أراد إمهال البشر إلى يوم الجزاء؛ لأراهم وجه الفصل فى اختلاقهم ؛ باستئصال المبطل ، وإبقاء المحقّ ، وهذه الكلمة أجملت هنا ، وأشير إليها فى سورة الشورى بقوله : وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ . (الشورى : ١٤) .

والأجل : هو أجل بقاء الأمم ، فالقضاء بينهم إذن مؤخر إلى يوم الحساب ، وأصرح من ذلك فى بيان معنى (الكلمة) قوله فى سورة هود : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .[٤٣] (هود : ١١٨ ، ١١٩) .

لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أى : لحكم بينهم عاجلاً فى الدنيا بإهلاك المبطلين .

★ ★ ★

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾

التفسير :

٢٠- وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ... الآية .

تعنَّت المشركون تعنتًا شديدًا أمام دعوة الإسلام ، والآية تحكى جانبًا فى تعنتهم وامتناعهم عن قبول دعوة الإسلام ، حتى يشاهدوا آية أى معجزة مثل : معجزات الرسل السابقين ؛ كما حدث لسيدنا إبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى .

وقد جعل الله القرآن معجزة رسولنا ﷺ ، وجعله معجزة عقلية تشريعية تخاطب العقل والفكر وتحكى تاريخ الأمم ، وتبين سنن الله فى الكون والحياة ؛ ليكون إيمان الناس عن بينة ودليل .

قال تعالى : وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا . (الإسراء : ١٠٦) .

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

أى: إن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة، وعلقتم إيمانكم بنزوله؛ من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ولا علم لى به، فإن كان قدّر إنزال آية علىّ؛ فهو يعلم وقتها، وينزلها فيه، ولا أعلم إلا ما أوحاه إلى.

فانتظروا هذا الغيب، لكننى منتظر ما يفعله الله بكم من نكال فى الدنيا أو عذاب فى الآخرة.

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة تحكى تعنت المشركين فى طلب معجزات مادية ومنافع دنيوية؛ حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.
(الإسراء: ٩٠ – ٩٣)

وقد أعطى الله رسوله معجزات أخرى لم تكن للتحدى، مثل: استجابة بعض أدعيته ﷺ؛ كشفاء المريض، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة بدر وغزوة تبوك، وغير ذلك من المعجزات؛ لكن حجته على نبوته كانت كتاب الله المعجز بهدايته وعلومه.

روى الشيخان والترمذى: عن أبى هريرة مرفوعا: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» (٤٤).

★ ★ ★

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾

المفردات:

أذقنا الناس رحمة: أنعمنا عليهم بالرحمة والمراد بها: الصحة والسعة.

من بعد ضراء مستهم: أى: من بعد ضراء أصابتهم حتى أحسوا بشدتها عليهم.

إذا لهم مكر فى آياتنا : المراد بالمكر هنا : الطعن فى آيات الله وعدم الاهتداء بها ، والاحتيال فى ردها . والمكر فى الأصل : تدبير الكيد فى خفاء .

قل الله أسرع مكرا : المراد : بيان أن الله أعجل عقوبة وأشد أخذًا .

التفسير:

٢١ - وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ... الآية .

سبب النزول :

روى البخارى ومسلم : عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أن قريشا لما استعصوا على رسول الله ﷺ ؛ دعا عليهم بسنين كسِنِىّ يوسف ؛ فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع .

فأنزل الله تعالى : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . (الدخان : ١٠ ، ١١) .

فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قومك ربما هلكوا ؛ فادع الله لهم ، فدعا لهم ؛ فكشف الله عنهم العذاب ، ومُطروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول ، يطعنون فى آيات الله ، ويعادون رسوله ويكذبونه !

وعلماء القرآن يذكرون : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ فالآية تسجل طبيعة الناس عامة؛ وهى التضرع والبكاء فى البأساء ، فإذا رزقهم الله الغنى بعد الفقر ، واليسر بعد العسر ، والهناء بعد الشقاء ؛ لم ينسبوا هذه النعم إلى الله تعالى بل نسبوها إلى الصدفة أو أهليتهم لهذه النعم ، ودبروا كيدًا ومكرًا للتخلص من شكر الله على النعماء . والمراد : أنهم انصرفوا عن شكر الله وحمده ، وانشغلوا بأهوائهم ، وقريب من هذا المعنى ما سبق فى هذه السورة : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ . (يونس : ١٢) .

جاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

والمعنى : وإذا أنعمنا على هؤلاء الكفار وأمثالهم بنعمة الصحة والسعة ، وأفضنا عليهم أنواع الخير ؛ ورحمناهم بكشف ما نزل بهم من المصائب الأليمة ، والمكاره الشديدة التى خالطتهم وأحاطت بهم ؛ حتى أحسُّوا بشدة وطأتها عليهم ، وسوء أثرها فيهم ، إذا رحمناهم بكشفها ؛ سارعوا سرًّا وفى خفاء إلى تدبير ضروب الكيد لآياتنا ؛ التى أنزلناها على رسولنا محمد - ﷺ - واحتالوا فى دفعها وبالغوا فى تكذيبها. ا هـ.

قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا .

أى : الله سبحانه وتعالى أقوى أخذًا للمكذبين وأشد إهلاكًا للماكرين ، فلن يمهلكم حتى تظفروا بمحمد ﷺ ، وتنالوا منه بمكركم وكيدكم ، بل إن الله سيدبر حفظه ونصره وحمايته ، وقد دبر المشركون كيدًا ومكرًا لرسول الله ﷺ ليلة الهجرة فدبروا حبسه أو نفيه أو قتله ، بيد أن الله دبر نصره وحفظه ؛ فأمره بالهجرة إلى المدينة وأعقب ذلك بالنجاح والنصر المبين .

قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ..(الأنفال : ٣٠) .

ونسبة المكر إلى الله تعالى من باب المشاكلة وهى شىء طريف فى اللغة العربية ، مثل قول الشاعر :

قالوا : اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت : اطبخوا لى جبة وقميصًا

إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ .

أى : إن الحفظة من الملائكة الكرام الكاتبين يسجلون عليكم أعمالكم وكيدكم ومكركم ، ويخبرون بها الله سبحانه وتعالى حتى يجازيكم عليها .

وفى هذا دليل على تمام الضبط والحفظ والعناية ، وأن كيدهم ومكرهم لن يخفى على الله سبحانه .

قال تعالى : أَحْصَٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ . (المجادلة : ٦) .

وقال سبحانه : وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

★ ★ ★

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

المفردات :

حتى إذا كنتم فى الفلك : فى السفن فى البحر .

جاءتها ريح عاصف : شديدة .

وظنوا أنهم أحيط بهم : أن الهلاك قد أحاط بهم ، وأحدق بهم .

مخلصين له الدين : دون آلهتهم وأوثانهم .

الدين : الطاعة لايدعون سواه .

فلما أنجاهم : يعنى : الذين أحيط بهم .

إذا هم يبغون : يتجاوزون أمر الله إلى الكفر والعصيان .

إنما بغيكم على أنفسكم : إياها تظلمون ، وعليها تعتدون ، لما توجبون عليها من سخط الله ونقمته .

متاع الحياة الدنيا : إنما هو متاع لكم فى الحياة الدنيا .

فاختلط به نبات الأرض : فنبت بذلك المطر أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض .

حتى إذا أخذت الأرض زخرفها : زينتها وبهاءها .

وازينت : تزينت .

وظن أهلها : أهل الأرض .

قـادرون عـليـهـا : على ما أنبتت .

أمـرنـا : قضاؤنا بهلاك ما على الأرض من نبات .

فجعلناها حصيدًا : فجعلنا ما عليها مقطوعًا مقلوعًا من أصله .

كأن لم تغن : كأن لم تعش أو كأن لم تنعم .

يقول : كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس .

التفسير:

٢٢ - هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ... الآية .

الله تعالى يمدكم بتوفيقه وحفظه عند سيركم فى البحر والجو ، وهو صاحب الفضل أن مهد لكم الأرض وسخر لكم البحر ، ويعرض القرآن لوحة حافلة بالحياة والحركة مليئة بالانفعالات ، هى صورة ركب فى سفينة ، تسير رخاء بريح طيبة يفرح بها الراكبون ، ثم فاجأهم موقف خطير يحتوى على رياح عاصفة ، وأمواج عالية ، واغتلم البحر واشتدت الأزمة ، واقترب الموت وساد الفزع والخوف .

فى هذه الشدة لا يلجأ الإنسان إلا إلى الله ، مخلصًا له الدعاء والنداء ، متضرعًا إليه فى البأساء ، مترددًا إليه فى شدة الاضطراب والخوف .

قال تعالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ . (الإسراء : ٦٧) .

وهذا دليل جديد من دلائل الألوهية - دليل الدعاء والالتجاء إلى هذه القوة الغيبية فى الشدة والاضطرار ، وهم يناشدون الله ملحين فى الدعاء : لئن تفضل عليهم بالنجاة ، وأنقذهم من براثن الموت ؛ ليخلصن له العبادة وليشكرنه على نعمه ، شكرًا يليق بذاته الكريمة ، فلا يشركون معه فى العبادة أحدًا ، وليفردنه بالعبادة كما أفردوه بالدعاء .

٢٣ - فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ....

فلما أنجاهم الله من هذه الشدة ، ومن عليهم باليسر بعد العسر ، وبالفرج بعد الكرب ، وأعادهم إلى البر سالمين غانمين ، إذا بهم ينسون عهدهم ، وينقضون ميثاقهم ، ويسرفون فى البغى والعدوان ، ويتسلطون على عباد الله ظلمًا وعدوانًا ، وينسون حق الله عليهم ، وحق العدالة والإنسانية ، فحق الله عليهم : أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد : أن ينصفوهم من أنفسهم وألا يتطاولوا عليهم بالظلم والبغى والعدوان .

وقد رددت آيات القرآن هذا المعنى ، فكشفت عن طبيعة الإنسان وهى الالتجاء إلى الله فى الشدة ، والإعراض عن الله فى الرخاء والنعمة .

قال تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ . (فصلت : ٥١) .

وقال عز شأنه : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . (يونس : ١٢) .

وقال تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ . (الزمر : ٨) .

وينبه القرآن الناس إلى أن البغى لا يدوم ، فللظالم يوم يعض فيه على يديه ، والبغى مرتعه وخيم .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم . (يونس : ٢٣) .

فالظالم يظلم نفسه ، ويعرضها للحساب والعقاب ، وهو الذى سيتحمل مسئولية هذا الظلم فى يوم الحق والجزاء .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا . (آل عمران : ٣٠) .

مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . أى : إنما هو لكم متاع فى الحياة الدنيا الفانية المحدودة [٥٥] أى : أن البغى عاقبته وخيمة على الباغى ، ومتعته محدودة بهذه الحياة ، أو أن الباغى يبغى على إنسان مثله ، ويقضى متعة محدودة ، ثم يبغى عليه إنسان آخر فذلك شأن الدنيا ، تهارش وتناوش ، وتنازع البقاء وتنافس فى متع الدنيا والعدوان على الآخرين ، وهناك قصاص عادل من رب الأرض والسماء .

ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .

ثم يقف الإنسان أمام الله ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فيسأله عما قدم فى دنياه ، وعن نقضه عهد الله ، ويخبره بحصيلة عمله فى هذه الحياة .

فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وقد صرح القرآن بهذا المعنى فى كثير من آياته مثل قوله سبحانه : أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ . (المجادلة : ٦) .

وقوله : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (الكهف : ٤٩) .

٢٤ - إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... الآية .

من شأن القرآن أن يضرب الأمثال ؛ تشبيها للمعقول بالمحسوس ، وإبرازًا للمعنى المقصود فى صورة حسية مجسمة يراها الناظر ويتأملها .

ومن هذه الأمثال : تشبيه الدنيا فى إقبالها وجمال بهجتها وحسن منظرها ، ثم فى سرعة تحويلها وانتهاء أمرها ، بحال المطر ينزل من السماء فيختلط بالنبات ، ثم يثمر النبات وينمو ، وتزدهر الزروع والثمار، بما يأكل منه الناس والأنعام وتدب الحياة فى الأرض ، وتعمها الخضرة والجمال ، ويصبح وجهها كالبساط السندسى ، وترى الأرض فى أبهى حلتها وزينتها ، كالعروس الحسناء ليلة زفافها ، أى : أن جنى الثمرة أصبح وشيكًا ، وقطف الثمار صار قاب قوسين أو أدنى .

فإذا نظر الزارع إلى أرضه ؛ أعجبه الزرع ومنَّى نفسه بيوم الحصاد وظن أن الزرع لن يفلت من يده ، فهو قادر على جنى الثمرة فى يوم قريب .

ثم حدثت المفاجأة ؛ فجاء أمر الله وقدره ، وأرسل بأسه وعقابه على هذا الزرع ، فصار يابسًا بعد الخضرة والنضارة ، وتحول العرس إلى مأتم وموسم حصاد الزرع إلى حصاد الندم !!!

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ .

نبين الحجج والأدلة ونوضح الأمثال .

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

فيعتبرون بهذا المثل ، فى سرعة زوال الدنيا عن أهلها ، مع اغترارهم بها ، وتفلتها من بين أيديهم ، والدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا أقبلت على رجل أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عن رجل سلبته محاسن نفسه .

وقد ضرب القرآن هذا المثل فى كثير من الآيات محذرًا من الاغترار بالدنيا ، مبينًا سرعة نهايتها وفجأة تحولها ؛ قال تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ

خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا . (الكهف : ٤٥ ، ٤٦) ، وتجد هذا المعنى فى الآية ٢١ من سورة الزمر [٤٦] كما تجده فى الآية ٢٠ من سورة الحديد [٤٧] .

وجهة نظر :

بعض العلماء يرى فى هذه الآية دليلاً على نهاية الكون ، واحتمال هذه النهاية فجأة بين عشية وضحاها ، عندما يظن الإنسان أنه امتلك ناصية الكون ؛ وأصبح قادرًا على تحطيم الذرة ، أو إطلاق صاروخ إلى القمر ، فإن ذلك لن يمنع إنهاء حياته ، وإنهاء حياة الكون عندما تتعلق بذلك مشيئة الله وإرداته والمتخصصون من علماء الطبيعة يرون أن عمر الكون محدود فالكون موجود من عدم ، وستنتهى حياة هذا الكون بحسب قوانين الطبيعية .

يقول الأستاذ الدكتور : زغلول النجار متحدثًا عن النجوم :

وتختلف النجوم فى أحجامها وألوانها ، وفى درجات حرارتها ، ويعتقد العلماء أن النجوم التى فى السماء تختلف اختلافًا كبيرًا فى أعمارها ، وأنها تمر بدورة تشبه دورة الحياة على الأرض ، فهى تبدأ نجومًا زرقاء حارة ، ثم تصير بيضاء فصفراء ، ثم تصير فى آخر الأمر نجومًا باردة حمراء . والنجوم كلها تتحرك فى الفضاء الكونى فى اتجاهات ثابتة محددة .

ويتحدث فى مكان آخر عن النجوم والكواكب فيقول :

وبالسماء ما يعرف باسم النجوم البيضاء القزمة ، ومادتها ذات كثافة هائلة ، ويعتقد بأنه دور لشيخوخة فى حياة النجم العادى ، وفى مادة هذه النجوم القزمة ، يعتقد أن الألكترونات فى حالة انحلال بمفهوم نظرية الكم وحتى بمفهوم النظرية النسبية فى بعض الحالات ، وهناك أيضًا حدًّا أعلى لكتلة النجم التى تكون فى وضع اتزان ميكانيكى فى مثل هذه الحالات .

ويتحدث عن الشمس فيقول :

وتبلغ درجة حرارة السطح الخارجى للشمس ستة آلاف درجة مئوية تقريبًا ، بينما يتزايد اتجاه مركزها إلى حوالى عشرين مليون درجة مئوية ، وبالتحليل الطيفى لأشعة الشمس تبين أن الشمس تحتوى على نفس العناصر التي تتكون منها الأرض ، ولكن بنسبة متفاوتة كثيرًا ، حيث يكون الهيدروجين معظم كتلة الشمس .

والشمس فى تمدد مستمر ، ولولا ذلك لانفجرت كقنبلة هيدروجينية هائلة ، والشمس تشع أضواءها فى الفضاء المتسع منذ نشأتها ، وهى تفقد من طاقتها فى الثانية الواحدة ما يعادل خمسمائة وثمانية آلاف مليون مليون مليون قوة حصان .

ولما كان للطاقة كتلة ؛ فإن الشمس تفقد من كتلتها ما يعادل خمسة ملايين من الأطنان فى كل ثانية ، وعلى ذلك فقد حسب أنه بعد خمسة آلاف مليون سنة من الآن ستتوهج الشمس أكثر من ذلك ألف مرة ويزداد حجمها مائة مرة ، ثم بعد ١٥ ألف مليون سنة من الآن ستتحول الشمس إلى ما يعرف بالنجوم البيضاء القزمة ، وحينئذ تنطفئ جذوتها ويخبو نورها ، وهذا بالطبع إذا استمرت الأمور فى إطارها العادى دون طارئ خارجى يتدخل من إرادة عظمى تهيمن على هذا الكون وتسيره [٤٨] .

لقد أخبر القرآن الكريم : أن الدنيا محدودة الأجل ، وإذا جاء يوم القيامة ؛ انشقت السماء ، وامتدت الأرض ، ونسفت الجبال ، وفجرت البحار ، وكورت الشمس ، وانكدرت النجوم .

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

(إبراهيم : ٤٨ – ٥١)

★ ★ ★

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٥ – وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ ... الآية .

بعد أن بين لهم زوال الدنيا وسرعة تغيرها ؛ دعاهم هنا إلى العمل للآخرة؛ المؤدى إلى دخول الجنة.

والمعنى : والله يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح ، والمسارعة إلى الخير ؛ فإن ذلك يؤدى إلى الجنة وهى دار السلام ، وسميت الجنّة دار السلام ؛ لسلامتها من الآفات والشوائب ، والنقائص والأكدار ، فالله تعالى حثنا على طاعته ، وحذرنا من معصيته ، وأمرنا بالجهاد وبذل النفس والمال فى سبيل الله .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ . (التوبة : ١١١) .

وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مستقيم .

أى : ويرشد من أراد هدايتهم إلى طريق معتدل لا عوج فيه وهو الإسلام والعمل بشرائعه .

★ ★ ★

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦ ﴾

المفردات :

الحسنى : أى : المثوبة الحسنى فى الجنة ، وهى تتفاوت حسب تفاوت درجات الإحسان .

يـرهـق : يغشى ويغطى .

قـتـر : أى : غبرة فيها سواد كالقترة ، ومن معانيها فى اللغة: الدخان الكثيف من شواء أو فحم أو حطب أو غيره .

التفسير:

٢٦ - لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ ... الآية .

أى : للذين أتقنوا عملهم فى الدنيا الجزاء الحسن فى الآخرة وهو الجنة . والزيادة : هى رضوان الله تعالى ورؤية الله عز وجل .

روى أحمد ومسلم وجماعة من الأئمة : عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه ؛ فيقولون: وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقرّ لأعينهم»[٤٩] .

وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌ .

ولا يعلو وجوههم شىء مما يغشى وجوه الكفار من الغبرة التى فيها سواد ، والهوان والصغار . أى : لا يحصل لهم إهانة فى الباطن ولا فى الظاهر وفى شأن أهل النار .

قال تعالى : وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ * تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ . (عبس : ٤٠ ، ٤١) .

وقال سبحانه : وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ . (الغاشية : ٢ ، ٣) .

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ . أى : أولئك السعداء هم المقيمون فى الجنة إقامة دائمة كأنهم أصحابها ، وهم خالدون فى الجنة خلودًا أبديًا ، لا خوف معه ولا زوال .

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

كسبوا السيئات : عملوا المعاصى من كفر وغيره .

من عاصم : من حافظ ومانع .

أغشيت : غطيت .

التفسير :

٢٧ - وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثۡلِهَا ... الآية .

أثاب الله المتقين بالحسنى وزيادة ، ثم عاقب مرتكب السيئة بمثل ما ارتكب ، فالجزاء الحق من جنس العمل ؛ فمن ارتكب السيئات جازاه الله على كل سيئة بمثلها ، أى : بمقدارها فى الصغر والعظم ، بدون زيادة.

قال تعالى : مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا . (الأنعام : ١٦٠) .

وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ . أى : يغشاهم الهوان الذى يلفّ وجوههم ونفوسهم .

قال تعالى : وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ . (عبس : ٤٠ - ٤٢) .

فشدة العذاب قد أثرت فى نفوسهم وأرهقها بالمذلة والهوان ، نعوذ بالله تعالى من حال أهل النار !

قال تعالى : وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ . (الشورى : ٤٥) .

مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن عَاصِمٍ .

أى : ليس لهم من دون الله منقذ أو مدافع يحميهم من عذابه .

كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا .

كأنما ألبست وجوههم أجزاء أغشية من سواد الليل المظلم ؛ لفرط سوادها وظلمتها ، فالسواد قد علا وجوههم ، وتراكم السواد طبقات فوق طبقات ، وفيه تعبير عن ظلام النفس وظلام الوجه ، ومن حكمة الله أن ظلام النفس يظهر أثره على ظلام الوجه .

قال تعالى : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . (آل عمران: ١٠٦ : ١٠٧) .

وقال الشوكانى :

كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ؛ لشدة ما يغشاها من دخان النار وسوادها . اهـ .

أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

أى : أولئك المتّصفون بتلك الصفات ، هم أصحاب النار لا انفكاك لهم عنها ، وهم فيها خالدون خلودًا أبديًّا لا نهاية له . وفى الآيتين صور من كمال الرضوان للمؤمنين ، وصور رائعة من الأدب الرفيع فى ألوان العذاب التى تحيق بالكافرين .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

فزيلنا : فرقنا وفصلنا .

التفسير:

٢٨ - وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ... الآية .

هذا مشهد فاصل من مشاهد يوم القيامة ؛ حيث يُحشر العابد والمعبود لسؤالهم على رءوس الخلائق، ثم يؤمر الجميع بالوقوف فى أماكنهم ؛ استعدادًا للسؤال .

قال تعالى : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . (الصافات : ٢٤) .

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ . أى : فرقنا بين العابدين والمعبودين ، وانقطع ما كان بينهم فى الدنيا من صلات وآمال ، حيث كان المشركون يعبدون الشركاء على أمل شفاعتهم ، وهم الآن قد يئسوا من نفع هذه الأصنام وابتعد المشركون عن اللجوء إليها .

وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .

أى : لم نأمركم بعبادتنا ، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم ، وشياطينكم ، الذين أغووكم ، أمروكم بعبادتنا فأطعتموهم ، وفى هذا تهديد ووعيد ، وأنه تتبدد حينئذ آمال المشركين فى شفاعة الشركاء .

والشركاء : هم كل من عُبد من دون الله تعالى ، من صنم وشمس وقمر ومَلك وإنسى وجنى .

وتبرؤ الأصنام وما فى حكمها من عبادة المشركين ، إما أن يكون بلسان الحال ، وإما أن يكون بلسان المقال ؛ بأن ينطقها الله الذى أنطق كل شىء .

قال تعالى : إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ . (البقرة : ١٦٦).

٢٩ - فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ .

أى : إن الله يشهد بيننا وبينكم ، وهو أعظم شهيد تكفينا شهادته بأننا ما رضينا عن عبادتكم ، ولأمرناكم بها ، ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ؛ لأنا كنا جمادًا لا روح فينا .

★ ★ ★

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

المفردات :

تبلو : تعرف يقينا ما قدمت .

التفسير :

٣٠ - هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ... الآية .

عندئذ فى الآخرة بعد أن تبرأ الشركاء ممن عبدوهم ، وغاب عن المشركين من كانوا يأملون فى شفاعتهم ، يظهر لكل نفس ما قدمت من عمل فى هذه الدنيا ، وأىّ هذه الأعمال تثاب عليه يوم القيامة ، وأىّ هذه الأعمال تعاقب عليه .

قال الشوكانى : أى : فى ذلك الموقف تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل .

وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ .

أى : رجع المشركون يوم القيامة إلى الإله الحق الذى كان يرزقهم ويطعمهم ويخلقهم ويميتهم ويحييهم دون ما اتخذوا من الشركاء .

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ .

أى : وغاب عنهم وذهب عنهم ما كانوا يدعون زورًا وبهتانًا من الشفعاء والشركاء والآلهة ؛ فلم تنفع ولم تشفع .

★ ★ ★

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾

المفردات :

يدبر الأمر : يصرف شأن الكائنات بنظام دقيق وحكمة بالغة .

التفسير :

٣١ - قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... الآية .

تناقش هذه الآية موقف المشركين ، فى الانصراف عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، فتقول لهم :

من ينزل لكم رزق السماء بالأمطار والهواء ، والشمس والقمر والنجوم ويسخر هذا الكون ؟! ومن يرزقكم من الأرض بالنبات والحيوان والطيور والأسماك ؟! فلا شك أن هذا الرزق كله من عند الله ؛ تكريمًا لكم ، وحفظًا لحياتكم .

أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ .

أى : أخبرونى من يملك أداة السمع وما أعد فيها من أسباب إدراك المسموعات ؟! ومن يملك أداة البصر وما هيئت به لإدراك المبصرات ؟! وخصَّ السمع والبصر ؛ لأنهما أهم الحواس ، وأداة تحصيل العلوم .

وقد جاء لفظ السمع مفردًا ، ولفظ الأبصار جمعًا ؛ لأن السمع يتناول نوعًا واحدًا هو الأصوات ، أما الأبصار فتتناول الأحجام والأبعاد والألوان والأشكال .

وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ .

أى: من ذا الذى يملك الحياة والموت فى العالم كله؛ فيخرج الأحياء من الأموات، والأموات من الأحياء، فيخرج الليل من النهار ، والنهار من الليل ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ؟! من يملك إخراج النبات من الأرض ، ومن يملك إخراج الإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والطير من البيضة ، والبيضة من الطير ؟!

وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ .

أى : من يتولى تدبير الأمر فى هذا الكون فيرفع السماء ويبسط الأرض ويرسى الجبال ، ويسخر الشمس والقمر ، ويمسك بزمام هذا الكون ويحفظ نظامه ومسيرته ؟!

ومن يجيب الدعاء ، ويحقق الرجاء ، ويشفى المريض ويعافى المبتلى ويغنى الفقير ويفقر الغنى ؟ ومن بيده الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير ؟!

فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ .

أى : سيقولون الله وحده هو الذى فعل كل ذلك .

فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

أى : إذا أقروا بأن الله هو الخالق الرازق ، المنعم المدبر ، المتفرد بالملك والواحدانية ؛ فقل لهم يا محمد: أفلا تتقون الله فتفردوه بالعبادة ؟!

★ ★ ★

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

فأنى تصرفون : أى : فكيف تتحولون عن الحق .

فسقوا : خرجوا عن طاعة الله ، وأصل الفسق: الانسلاخ عن الجلد ، ومنه فسقت الرطبة عن قشرها ، أى : انسلخت منه ، والفاجر : فاسق ؛ لانسلاخه عن طاعة الله .

التفسير:

٣٢ - فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ... الآية .

أى : هذا هو الإله الخالق الرازق المبدع ، مالك الملك ، هو الإله الحق الذى ينبغى أن نتوجه جميعًا إليه بالعبادة .

فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ .

أى : ليس بعد ترك الحق إلا الضلال، وهو إشراك الأصنام مع الله فى العبادة وهو أمر لا يختاره عاقل.

فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .

أى : كيف تتحولون عن الحق إلى الضلال ؟! وكيف تصرفون عن الهدى إلى الباطل ؟! ذلك ما لا يقبله عقل ولا منطق .

٣٣- كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : كما ثبت أن الحق ليس بعده إلا الضلال ، ثبت حكم الله تعالى على الذين تمردوا على طاعته ، وعتوا عن أمره ، واستمروا على كفرهم ؛ عنادًا ومكابرة . أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . فقد سلب الله عنهم الهدى ، ولم يمنحهم التوفيق ؛ جزاء كفرهم وعنادهم .

قال تعالى : وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (آل عمران : ١١٧) .

★ ★ ★

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات:

أنـــى : كيف .

تؤفكون : أى : تصرفون عن الحق إلى الباطل .

التفسير:

٣٤ - قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ... الآية .

يستمر القرآن الكريم فى هذه المناقشة الفريدة التى توضح ضياع الأصنام ، وضياع عبَّادها ، وتبدأ بكلمة : قُلْ . وتتكرر مع بداية الآية .

أى : قل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون آلهة من دون الله : هل ادعى أحد من هذه الآلهة التى تعبدونها أنه بدأ الخلق ؛ فخلق هذا الكون بما فيه من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وفضاء ، وهواء وماءٍ وتربة ، وتكامل بين أجزاء هذا الكون بحيث يؤدى إلى استمرار الحياة ؟

وهل من شركائكم من يخلق الإنسان من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم من عظام ، ثم يكسو العظام لحمًا ، ثم ينشؤه خلقًا آخر ؟!

فإذا عجزوا عن الجواب ، أو أنكروا البعث والمعاد ؛ فتطوع يا محمد لهم بالجواب وقل لهم :

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ .

فهو الذى بدأ هذا الكون على غير مثال سابق ، وهيأ هذا الكون للحياة ، ثم خلق الإنسان وأمدَّه بالسمع والبصر والفؤاد وسائر الحواس ثم سخر له هذا الكون .

فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ .

أى : كيف تصرفون عن الحق ، وتتجهون إلى الباطل مع وضوح الأمر أمامكم ، وقيام الدليل على وحدانية الله ؛ فكيف تتركون التوحيد ، وتتجهون إلى الشرك بالله ؟!

★ ★ ★

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

المفردات :

يَـهِـدِّى : يهتدى .

يُـهْـدَى : أى : إلا أن يهديه الله تعالى .

تمهيد :

الإنسان جسم وروح ، والله تعالى خالق الكون وخالق الأجسام وخالق الأرواح . وفى الآية السابقة تحدث القرآن عن أن الله يبدأ الخلق ويوجده بخلق الكون ، ثم خلق الإنسان ، وهو سبحانه يعيد الخلق مرة

أخرى بالبعث يوم القيامة . وفى هذه الآية تحدث عن هداية الأرواح ؛ بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، وهداية البشر ، وتوجيه الروح إلى الحق ، ومنح العون والرشاد للمؤمنين ، وسلب الهداية والتوفيق عن الضالين .

قال تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ . (الشعراء : ٧٨) .

وقال سبحانه : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ . (الأعلى : ١ – ٣) .

التفسير :

٣٥– قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ... الآية .

المعنى : قل لهم يا محمد : هل من شركائكم من يستطيع أن يهدى غيره إلى الدين الحق ؟ فينزل كتابًا أو يرسل رسولاً أو يشرع شريعة ، أو يضع نظامًا دقيقًا لهذا الكون ؟ أو يحث العقول على التدبّر والتفكر فى ملكوت السماوات والأرض ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يفعل كلّ ذلك ، أمَّا شركاؤكم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا من ذلك . أفمن يهدى غيره للحق والهداية والرشاد أحقّ أن يُتبع فيما يأمر به وينهى عنه ، أم من لا يستطيع أن يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره ، أحق بالاتباع ؟!

فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

أى : ما صرفكم عن الحق ؟! كيف تحكمون فى شأن هذه الحجة التى أوردناها لكم ؟ وكيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله ؟!

وقوله سبحانه : أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ . ورد فيه ست قراءات منها قراءة يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال ومنها قراءة حمزة والكسائى بالتخفيف كيرْمى .

★ ★ ★

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾

التفسير :

٣٦ – وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ .

أى : ما يتبع أكثر المشركين فى عبادة الأصنام ، إلا التقليد للآباء ، والظن بأن هذه الأصنام تشفع لهم يوم القيامة ، وليس معهم دليل يقينى بذلك .

إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا .

إن أمر الدين ينبغى أن ينبنى على العلم اليقينى ، وبه يتضح الحق من الباطل ، وإن الظن الفاسد المبنى على الأوهام ، لا يغنى صاحبه شيئًا من الإغناء ، عن الحق الثابت الذى لا ريب فى ثبوته ، والمراد من الحق هنا : ما ثبت بطريق سماوى ، أو دليل عقلى مبنىٌّ على الآيات الكونية ، وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقينى واجب على كل مسلم فى أصول العقائد .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ . تذييل قصد به : التهديد والوعيد .

★ ★ ★

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات :

ما كان : ما صح ولا استقام .

يفترى : يختلق .

ولكن تصديق الذى بين يديه : أى : ولكن أنزله؛ تصديقًا للكتب السماوية التى سبقته فى أصول العقائد والأحكام قبل تحريفها.

وتفصيل الكتاب : تبيين ما كتب وأثبت فى الكتب السماوية .

التفسير:

٣٧ – وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... الآية .

تتابع هذه الآية مع ما قبلها وما بعدها تفنيد حجج المشركين ؛ حيث ادعوا : أن القرآن من عند محمد ؛ فبينت الآية أن هذا القرآن فى إعجازه واشتماله على التشريع والآداب وأخبار السابقين ، وعلوم الآخرين ، وأخبار الغيب ، ومجىء جميع ما فيه فى أقصى درجات الفصاحة والبلاغة والدقة ، وفى أنماط سامية ، وآفاق عالية ، كلّ ذلك يدل على أنه ليس من صنع بشر بل هو كلام الله ، ولا يستطيع مخلوق أن يخترعه أو يختلقه ؛ لأنه فوق طاقة الإنس والجن.

وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ .

ولكن الله أنزله مصدقًا وموافقا لما تقدم من الكتب السماوية ، ومعنى تصديق القرآن لما سبقه من الكتب السماوية مثل : التوراة ، والإنجيل ، والزبور : أنه اتفق معها فى الدعوة إلى توحيد الله ، والإيمان بالرسل والملائكة واليوم الآخر ، والتحلّى بالآداب ومكارم الأخلاق .

وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

أى : وتفصيل ما كُتب وأثبت من الشرائع والأحكام ، والعبر والمواعظ وشئون الاجتماع .

لَا رَيْبَ فِيهِ . أى : لا ينبغى لعاقل أن يرتاب فيه ؛ لوضوح برهانه ؛ لأنه الحق والهدى .

مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . أى : من وحيه ، لا افتراء من عند غيره ولا اختلاقًا . كما قال تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا . (النساء : ٨٢) .

★ ★ ★

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) ﴾

التفسير:

٣٨ – أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ... الآية .

والمعنى : بل أيقولون : افتراه محمد واختلقه من قبل نفسه ؟! فإذا كان ذلك صحيحًا ؛ فأنتم أرباب البيان والفصاحة والبلاغة ، فأتوا بسورة مثله !.

وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ .

وهذا توسع فى دائرة التحدى ، أى : اجمعوا ما شئتم ، واستعينوا بمن تستطيعون الاستعانة بهم لمعاونتكم فى الإتيان بسورة واحدة مثله .

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

أى : فى دعواكم : أنى افتريت هذا القرآن . والآية دالة على إعجاز القرآن الكريم فى فنون متعددة .

الإعجاز اللفظى ، والإعجاز التشريعى ، والإعجاز الغيبى ، مع الإحاطة بنفسية ومعرفة ما يناسبها مما يعجز عن الإتيان به فحول العلماء فى جيل من الأجيال ؛ بل فى سائر الأجيال .

وقد استمر هذا التحدّى وامتد فى مكة والمدينة ، مع وجود الحاجة والدافع ، واستمرار القتال بين المشركين والمؤمنين . والعرب أفصح الناس وأبلغهم ، وأحوج الناس إلى إسكات صوت محمد ؛ فلو كانت أمامهم أىّ وسيلة للإتيان بسورة مثله ؛ لفعلوا ، وقد حاولوا وجاءوا ببعض السور ؛ فكانت أدل على عجزهم.

وصدق الله العظيم : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

★ ★ ★

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٣٩) ﴾

التفسير:

٣٩ – بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ... الآية .

أى : بل هم سارعوا إلى تكذيبه من غير إحاطة بعلم ما فيه ولا تدبّر لمعانيه ، ولا وقوف على ما جاء به من الأدلة الشاهدة بصدقه ، من تشريع حكيم ، وآداب وحكم عالية ، وغير ذلك من أسرار إعجازه .

قال الزمخشرى :

أى : بل سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يفقهوه ، ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ؛ وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم .

وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ .

أى : كذبوا به على البديهة قبل التدبر ، و معرفة معانيه وفضائله ؛ تمردًا وعنادًا .

جاء فى تفسير المراغى:

وخلاصة ذلك : أنهم – على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب – قد أسرعوا فى تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره ، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به . وفى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع حصوله، شناعة وقِصر نظر لا تخفى على عاقل ، وفيه دليل على أنهم مقلدون [٥٠] .

كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : مثل ذلك التكذيب الناشئ عن عدم التدبر؛ كذب الذين من قبلهم من مشركى الأمم رسلهم ؛ فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت نتيجة هذا التكذيب ؛ أن أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر .

قال تعالى : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٠).

★ ★ ★

﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير:

٤٠ - وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ... الآية .

أى : ومن هؤلاء المشركين من يؤمن بالقرآن فى قلبه وباطنه ؛ ولكن منعه العناد والحسد والكبر أن يؤمن به ظاهرًا أمام الناس .

قال تعالى : وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . (النمل : ١٤) .

وقال عز شأنه : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

ومن هؤلاء - أهل مكة - من لا يؤمن بالقرآن ظاهرًا وباطنًا ؛ فقد طمس الله على بصيرته فآثر تقليد الآباء على الإيمان ، وآثر الغى على الرشد . وقيل : إن المعنى: ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ، ومنهم من يصر على الكفر والعناد ولا يؤمن بالقرآن الكريم .

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ .

أى : إن الله عليم بمن أفسد فى الأرض بالظلم واتباع الهوى ، وترك الإيمان بالله وتكذيب وحى السماء . وهذا العلم مراد به : لازمه ، وهو الحساب والعقاب .

٤١ – وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ... الآية .

أى : وإن تمادى هؤلاء الكفار فى طغيانهم وتكذيبهم ؛ فقل لهم : أنا مسئول عن عملى أمام الله ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه .

أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ . فلا تتحملون مسئوليته .

وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ . فلست مسئولا عنه ؛ فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ ؛ بأنّ عليه البلاغ فقط أمّا حسابهم فعلى الله تعالى .

قال الله تعالى : ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ. (الشورى : ١٥)

★ ★ ★

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

الصـــــم : فاقدى حاسة السمع .

لا يبصرون : أى : لا يدركون ببصيرتهم .

التفسير:

٤٢ – وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ .

أى : ومن هؤلاء المشركين من يستمع إلى القرآن بآذانهم ولا يتدبرون معناه بقلوبهم ، وقد وصف الله حالهم فى آى أخرى فقال سبحانه : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا. (الأنعام : ٢٥)

وقال سبحانه : مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ . (الأنبياء : ٢، ٣).

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ . أى : إن السماع النافع للمستمع هو الذى يعقل به ما يسمعه ويفقهه ويعمل به ، ومن فقد هذا ؛ كان كالأصم الذى لا يسمع ، وإنك أيها الرسول الكريم لم تؤت القدرة على إسماع الصمّ الذين فقدوا حاسة السمع حقيقة ؛ فكذلك لا تستطيع أن تسمع إسماعًا نافعًا من فى حكمهم وهم الذين لا يعقلون ما يسمعون ، ولا يفقهون معناه فيهتدوا به ، وينتفعوا بعظاته .

٤٣ – وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ.

أى : يتأمل فى وجهك ، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ؛ فإن وجهك ليس بوجه كذّاب ، وسيرتك السابقة واللاحقة تدل على أنك صادق أمين ؛ ولكنك يا محمد لا تستطيع أن تهدى العمى ولو انضم إلى فقدان بصرهم ، فقدان بصيرتهم .

والمقصود فى الآيتين : أن هداية السماء وتوفيق الله ومعونته ، لا تمنح إلا لمن كان أهلا لذلك ، بأن استخدم عقله وفكره ، وسار فى طريق التأمل والتبصر ، فيعينه الله بتوفيقه ومعونته . والمقصود : أنت لا تستطيع إسماع الأصم الغافل ، ولا هداية أعمى القلب والبصيرة .

قال تعالى : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ . (الحج : ٤٦) .

٤٤ – إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

من عدالة الله تعالى : أنه خلق الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب ومنح الإنسان العقل والتفكير ، ووسائل الإدراك ؛ فالله تعالى لم يظلم الإنسان ، بمعنى : أنه لم ينقصه شيئًا من وسائل الإدراك والهداية ، بل منحه العقل وهداه النجدين ، وبين له الطريقين ، تلك سنة الله فى خلقه ، وهى سنة كونية وإنسانية ؛ فهو سبحانه عادل فى خلقه ، وعادل فى حكمته .

بيد أن الإنسان هو الذى يظلم نفسه فيختار الضلال على الهدى ، ويفضل الكفر على الإيمان ، وعندئذ يستحق الجزاء العادل فى الآخرة وهو الحساب والعقاب .

قال تعالى : كُلُّ ٱمْرِئِۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

وقال سبحانه : كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . (المدثر : ٣٨) .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٤٥ – وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ ... الآية .

يذكِّر الله تعالى الناس بقيام الساعة والحشر فى قبورهم ، على طريقة القرآن الكريم فى عرض مشاهد القيامة ، كأنها مشاهدة أمام الإنسان ؛ ليأخذ العظة والعبرة .

والمعنى : واذكر لهم أيها الرسول الكريم وأنذرهم يوم يجمعهم الله بالبعث والحشر ، والبعث : هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية ، ثم يحشرون إلى أرض المحشر للحساب والجزاء ، وعندما يشاهدون هول الموقف يلاحظون هوان الدنيا ، وقصر عمرها ؛ كأنهم لم يمكثوا فيها إلا وقتًا يسيرًا أو ساعة من ساعات النهار ، يشاهد بعضهم بعضًا . وفى هذا المحشر يعرف الظالمون بعضهم بعضًا ، ويتناولون إلقاء التهم على بعض ؛ فيقول الضعفاء للذين استكبروا : لقد كنا لكم أتباعًا فى الدنيا ؛ وسِرنَا وراءكم ؛ فهل تتحملون عنا شيئًا من العذاب ؟! ويتنصَّل الذين استكبروا من تبعتهم ، ويذكرون أن العذاب سينزل بالتابعين والمتبوعين ، ويستمر التعارف فترة ثم ينقطع التعارف عند شدة الأهوال فى الحساب والجزاء .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ .

وهذه جملة تقديرية تعلن خسارة هؤلاء الكفار ؛ حين باعوا الآخرة ونعيمها الدائم ، وأعرضوا عن هداية السماء ، واشتروا متع الدنيا ولهوها وغرورها ، فآثروا العاجلة على الآجلة .

وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ؛ حين أعرضوا عن الإيمان بالرسل ، وأسرفوا فى عنادهم ، وخسروا نعيم الآخرة مع أن الدنيا إلى زوال وهى ساعة محدودة ، ومدة وجيزة ، ثم يساق الناس إلى الجزاء العادل .

قال تعالى : فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ . (النازعات : ٣٧ – ٤١) .

★ ★ ★

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير:

٤٦ - وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ... الآية .

كان المشركون يكذبون النبى ﷺ فى توعده لهم بالعذاب ، وكانوا يستعجلون نزوله ؛ تكذيبًا له واستهزاء به ، ويتمنون موته ؛ لتموت دعوته ، فردَّ الله عليهم مخاطبًا رسوله ﷺ بقوله : إن ننتقم منهم فى حياتك ؛ لتقر عينك كما حدث يوم بدر وحنين وغيرهما فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فمصيرهم إلينا ، وسوف نذيقهم العذاب الشديد ؛ جزاء عنادهم وكفرهم .

ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ .

وهذه الجملة تأكيد للوعيد السابق والمراد : أن الله مطلع على أعمالهم وكفرهم ، فيجازيهم على علم وشهادة حق .

وذلك كقوله تعالى : وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ. (الرعد : ٤٠).

★ ★ ★

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٤٧ - وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

من حكمة الله تعالى أنه أرسل الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ؛ لهداية الإنسان ، وتذكير عقول البشر بما ينفعهم.

قال تعالى : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .
(النساء : ١٦٥)

فليس محمد ﷺ بدعًا من الرسل ، بل أرسل الله رسلاً إلى كل أمة ؛ قال تعالى : وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . (فاطر : ٢٤) .

لقد أرسل الله الرسل إلى أمم سابقة ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وفى يوم القيامة يجمع الله كل أمة ومعها رسولها ، والملائكة تشهد عليها ، والكرام الكاتبون . وفى هذا اليوم يقضى الله بين الخلائق ، وأول من يُقضى بينهم من الأمم أمة محمد ﷺ ؛ تكريمًا لرسولها . ثم يقضى بين جميع الأمم بالقسط والعدل، ويوفّى كل إنسان جزاء عمله بدون أن يُظلم مثقال ذرة .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . (النساء : ٤٠) .

٤٨ – وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

رفض المشركون دعوة الإسلام ، واستخفوا بها ، واستهانوا بوعيد الله لهم بالعذاب ، ثم تساءلوا حين تأخر العذاب عنهم ؛ فقالوا : متى يتحقق ما أنذرتمونا به من العذاب إن كنتم صادقين فى هذا الوعيد ؟!

★ ★ ★

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

التفسير:

٤٩ – قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ... الآية .

أمر الله رسوله أن يجيبهم : بأن إنزال العذاب بالأمم المكذبة شأن من شئون القدرة الإلهية ، وأنا بشر مثلكم؛ لا أملك لنفسى ضرًا أمنعه ، ولا خيرًا أجلبه ؛ إلا ما شاء الله أن يقدرنى عليه .

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

وللأمم المكذبة وقت معين مضروب عند الله ، لا يعلمه إلا هو ؛ فإذا جاء ذلك الأجل نزل فى الموعد المحدد؛ بدون تأخير ولا تقديم ، والساعة يراد بها : هنا : جزء من الوقت ؛ وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ؛ تأكيدًا بأن وعد الله لا يتخلف .

قال تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (النحل : ١) .

★ ★ ★

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

أرأيتم : أى : أخبرونى .

بياتا : أى : ليلا ، وقت نومكم وغفلتكم .

ماذا يستعجل منه المجرمون : أى شىء يستعجل المجرمون من العذاب ؟

أثم إذا ما وقع آمنتم به : أى : أبعد ما يقع العذاب حقيقة تؤمنون به ، ودخول همزة الاستفهام على ، ثُمَّ ؛ لإنكار تأخيرهم الإيمان إلى وقت وقوع العذاب وتوبيخهم عليه .

التفسير :

٥٠ - قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا ... الآية .

أى : أخبرونى عن حالكم إذا باغتكم العذاب وأنتم نائمون أو مستقرون فى بيوتكم بالليل ، أو جاءكم وأنتم مشغولون فى معاشكم بالنهار ؛ إن هذا العذاب فيه نهايتكم وهلاككم ، والعاقل لا يستعجل وقوع المصائب به .

قال القرطبى : قوله : مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ .

استفهام معناه : التهويل والتعظيم ، أى : ما أعظم ما يستعجلون به ، كما يقال لمن يطلب أمرًا تستوخم عاقبته : ماذا تجنى على نفسك ؟! اهـ .

وقوله تعالى : إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا . أسلوب شرط وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن أتاكم عذابه في أحد هذين الوقتين ؛ أفزعكم وأهلككم ؛ فلماذا تستعجلون وقوع شىء هذه نتائجه ؟!

٥١ - أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ .

من شأن القرآن تصريف القول ، وتلوين الوعيد ، واستحضار الغائب ، وهنا عرض القرآن مشهدًا من مشاهد العذاب ؛ حين يشاهد الكفار المكذبون عذاب الله رأى العين ؛ فيؤمنون بالله بعد فوات الأوان!

ومعنى الآية :

إنكم أيها الجاهلون لستم بصادقين فى استعجال وقوع العذاب بكم ، فإنكم حين ينزل العذاب ، وتشاهدون أهواله وتذوقون مرارته ؛ تؤمنون بأنه حق .

ويتحول استهزاؤكم به إلى تصديق وإذعان وتحسر ؛ لكن هذا الإيمان لن يقبل منكم ؛ لأنه جاء بعد فوات الأوان ، ومن سنة الله أن يرسل الرسل وينزل الكتب ، ويترك الفرصة للإيمان فى سعة الحياة فإذا انتهى الأجل وحلّ العذاب ؛ لا يقبل من الإنسان الإيمان بعد انتهاء السعة والفرصة السانحة فى دنياه .

قال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ . (غافر : ٨٤ ، ٨٥) .

٥٢ – ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

بعد أن أنكر عليهم الإيمان بعد فوات الأوان فى الآية السابقة ؛ أفاد هنا أنه يقال للظالمين المعاندين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان وتكذيب الرسول تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبدا ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ . أى : إن الجزاء الحق من جنس العمل وقد اخترتم الكفر على الإيمان ؛ فذوقوا العذاب بما كسبت أيديكم، وفى هذا المعنى قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات:

ويستنبئونك : أى : ويطلبون منك النبأ وهو الخبر .

إى وربى : نعم وحق ربى .

وما أنتم بمعجزين : أى : وما أنتم بمفلتين من عذاب الله .

وأسروا الندامة : قال أبو عبيدة: معناه: وأظهروا الندامة . وقال غيره: وأخفوا الندامة – فهو من الأضداد.

بالقسط : القسط بكسر القاف: بمعنى: العدل أما بفتحها: فبمعنى: الظلم وليس له موضع هنا.

التفسير :

٥٣ – وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

لا يزال الكلام متصلاً فى نقاش الكافرين ، والنبأ : الخبر الهام ، والاستنباء : طلب النبإ .

والمعنى : وقع فى قلب الكفار رُعب وخوف من عذاب الله فى الدنيا والآخرة ؛ فطلبوا من الرسول بيان الحقيقة، وهم يسخرون ويستهزءون ، كما صنع قوم نوح .

قال تعالى : **وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ** . (هود : ٣٨) .

بيد أن الله أمر رسوله أن يرد عليهم ، ويجيبهم : بأن العذاب حق واقع لا محالة من وقوعه ، وأنتم لن تهربوا من عقاب الله ، ولن تنجوا من عذابه ، ولن تستطيعوا الامتناع عن العذاب ؛ فإن قدرة الله فوق كل قدرة ، وأنتم فى قبضته وهو قادر على عذابكم . وكلمة إى : بمعنى : نعم ، وقد ورد القسم بالله فى آيتين أخريين فى القرآن ردًا على مزاعم الكافرين وإنكارهم للبعث .

قال ابن كثير : وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلاَّ آيتان أخريان :

الأولى : فى قوله تعالى : **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ** . (سبأ : ٣) .

والثانية : فى قوله تعالى : **زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ** . (التغابن : ٧) .

٥٤ – وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ ...

الظالم لن يعجز الله ولن يستطيع الإفلات من عذابه ، وكل نفس ظلمت فى الدنيا بالشرك أو المعاصى؛ تندم أشد الندم على ظلمها ، ولو أنها كانت تملك جميع ما فى الأرض ؛ لقدمته فِدية من هذا العذاب ؛ إن كان الافتداء يجديها .

والآية قصد بها : التهويل من شأن العذاب والتعظيم له حتى إن الكافر لو كان يملك ما فى الأرض من مال ومتاع ، وأمكنه أن يقدمه كفداء لنفسه ؛ لقدمه سريعًا .

وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ.

أى : أخفى هؤلاء الظالمون الندامة ؛ حين رأوا مقدمات العذاب ، وأيقنوا أنهم لا نجاة لهم منه ، وقد فاجأهم العذاب فأسكتهم وأذهلهم ؛ حين رأوا من فظاعة الخطب ما جعلهم جامدين مبهوتين .

وقيل : أَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ . أظهروها ولم يكن عندهم تجلد على كتمها والكلمة من الأضداد تطلق على الجهر والإسرار ؛ وفى سورة الملك : وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . (الملك : ١٣) .

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

أى : حكم الله تعالى بينهم بالعدل التام الذى لا ظلم فيه بوجه من الوجوه .

قال تعالى : وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣) .

★ ★ ★

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التفسير :

٥٥ – أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... الآية .

تأتى هذه الآية والتى بعدها ؛ لتبين أن الكافر لن يجد ما يفتدى به نفسه من العذاب ، وعلى فرض أنه وجد فلن يقبل منه شىء .

وبدأت بأداة الاستفتاح للتنبيه ؛ لتنبه الناس قاطبة ؛ على أن الله مالك السماوات والأرض بكل ما فيهما .

قال تعالى : لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى . (طه : ٦ ، ٧) .

أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

تكررت أداة التنبيه لبيان أهمية ما بعدها وهو أن وعد الله حق لا يتخلف أبدًا .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ . (آل عمران : ٩) .

ولكن أكثر الكفار منكر للبعث ، غافل عن الآخرة مقصر فى الاستعداد لها .

★ ★ ★

﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٥٦ - هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

أى : هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة للحساب والجزاء ؛ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

التفسير:

٥٧ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.

هذا نداء من الله تعالى للناس كل الناس ، حيث أنزل الوحى ، وأرسل الرسل وبين للناس ما يشفيهم من أمراض الجاهلية ، وما يهديهم إلى طريق الصواب ، وهذا الكتاب رحمة للمؤمنين ؛ لأنهم هم الذين استفادوا بهدايته، وعملوا بأحكامه ؛ فنالوا سعادة الدنيا والآخرة .

وقد وصف الله القرآن بأربع صفات :

١ - موعظة تعظ الناس وترشدهم ، وتشرح لهم أسباب الهداية والرشاد .

٢ - شفاء حسى ومعنوى لأمراض القلوب ؛ وهى : الرياء ، والشرك ، والكبر ، وحبّ الدنيا ، ودليل إلى الصفاء والنقاء ومحبة الله وإيثار الآخرة ؛ وذكر بعض المفسرين : أن القرآن شفاء للأمراض الحسية ؛ بشرط الأخذ فى الأسباب ، والجمع بين الطب الإكلينيكى والطب الروحى .

قال الآلوسى فى تفسيره : واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية كما يشفى من الأمراض القلبية ، والحسن البصرى ينكر كون القرآن شفاء للأمراض ؛ ويقول جعل الله القرآن شفاء لما فى الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم [٥١]

وعند التأمل نجد أنه لا مانع من دلالة الآية على أن يكون القرآن شفاء للأمراض المعنوية ، وللأمراض الحسية ؛ حيث قد ورد فى السنة الصحيحة : أن القرآن شفاء للأمراض الحسية ، وأقرَّ النبى ﷺ أن الفاتحة رقية من المرض وسبيل للشفاء .

٣ – القرآن هداية للناس ؛ لأنه شرح لهم أصول الدين ؛ وبيّن أسباب السعادة ، وأرشد إلى دعائم الإيمان المحقق لسعادة الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ . (فصلت : ٤٤) .

٤ – رحمة للمؤمنين خاصة ؛ حيث كان سبيلاً لهم إلى الإيمان والإحسان ، وتلاوة القرآن ومرضاة الرحمان.

سمع عمر بن عبد العزيز رجلاً وقف للفتيا عشية عرفات ، وظل يجيب على أسئلة كل سائل من أهل الموسم حتى غربت الشمس ؛ فقال عمر بن عبد العزيز : «هذى المكارم لا قعبان من لبن» . أى : هذا هو الفضل الحقيقى ، وليس هناك فضل سوى ذلك .

٥٨ – ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد : إنَّ فضل الله على الناس بالإسلام ، ورحمته لهم بنزول القرآن ، وهدايته لهم إلى طريق الصلاح والاستقامة ؛ هو الاصطفاء والهداية التى تستحق الفرح والسرور ؛ لأن هذا خير من مال الدنيا ومتاعها .

روى أبان عن أنس : أن النبى ﷺ قال : «من هداه الله للإسلام ، وعلمه القرآن ، ثم شكا الفاقة ؛ كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ثم تلا : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٥٢] .

من تفسير ابن كثير :

قال ابن كثير : «﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ..﴾» أى : بهذا الذى جاءهم من الهدى ودين الحق فليفرحوا ، أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية ، والذاهبة لا محالة ؛ فعن أيفع ابن عبد الكلاعى قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر – رضى الله عنه – خرج عمر ومولى له فجعل يعد الإبل ، فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله تعالى ، ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته ، فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذى يقول الله فيه : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ . اهـ .

أى : ليس هذا المال هو المعنى بهذه الآية ، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله تعالى من دين قويم ، ورسول كريم ، وقرآن مبين .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

رزق : الرزق فى اللغة : ما ينتفع به ، ومعلوم أنه ليس كله نازلا من السماء ، وإنما الذى أنزل من السماء هو التشريع الذى أحله ، أو أسبابه التى حدث بها كالمطر والهواء وأشعة الشمس ، وعلى هذا فالمراد من إنزال الرزق من السماء : إنزال تشريعه أو أسبابه ، وفسر بعض العلماء إنزال الرزق بمعنى : خلقه ؛ وعليه فلا إشكال .

التفسير :

٥٩ - قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلاً ... الآية .

كان أهل الجاهلية يحرمون على أنفسهم أنواعًا من الحيوانات مع أنّ الله أحلّها لهم وهنا يوجّه السؤال إليهم ويقول لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين : أخبرونى أيها الجاحدون للوحى والرسالة ، المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم ، إن الله تعالى قد أنزل عليكم ألوانًا من الرزق الحلال ، فجئتم أنتم ، وقسمتم هذا الرزق الحلال ، فجعلتم منه حلالاً ، وجعلتم منه حرامًا .

وقد حكى الله عنهم ذلك فى آيات متعددة منها قوله تعالى فى سورة الأنعام : **وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا** . (الأنعام : ١٣٦) .

وقوله فى سورة المائدة : **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ** . (المائدة : ١٠٣) .

قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل الزجر والتوبيخ : إن الله وحده هو الذى يملك التحليل والتحريم ، فهل هو سبحانه أذن لكم بذلك بوحى من عنده ، أم أنتم تفترون على الله بزعمكم أنه حرّم ما حرَّمتم ، وحلَّل ما حللتم .

والخلاصة : أنه لا مندوحة لكم فى الاعتراف بأحد أمرين : إمَّا دعوى الإذن لكم من الله بالتحريم والتحليل ؛ لأن الله أحل هذه الأنعام فى شريعة إبراهيم وشريعة الرسل من بعده ؛ وإمّا اعترافكم بالافتراء على الله .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

والمعنى : أخبرونى : آلله أذن لكم فى التحليل والتحريم ، وأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه . اهـ .

٦٠ – وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ .

أى : هؤلاء الذين أحلُّوا وحرموا ، افتراء على الله ، ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة ؟ أيظنون أن الله سيتركهم بدون عقاب ؟ كلاّ إن عقابهم لشديد بسبب افترائهم عليه الكذب .

قال تعالى : وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ . (النحل : ١١٦).

إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ. أى : إن الله لذو فضل عظيم على الناس أجمعين ؛ حيث خلقهم بقدرته ، ومنحهم العقل والإرادة والاختيار ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل الكتب السماوية ؛ لبيان الحلال والحرام والمباح وأمور التشريع ، وما يهمهم من أمر المعاش والمعاد ، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث .

وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ. تلك النعم كما يجب ، قال تعالى : وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ . (سبأ : ١٣) .

ومن ثم ترى بعض الناس تحرم ما لم يحرمه الله ، فيغالون فى الزهد ، وترك الزينة والطيبات من الرزق ، أو يسرفون فى الأكل والشرب والزينة ؛ ابتغاء الشهوة ، والتكبر على الناس مع أن الإسلام أمر بالتوسط والاعتدال ؛ حيث مدح الله التوسط . فقال : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . (الإسراء : ٢٩) .

وقال عز شأنه : وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا . (الفرقان : ٦٧) .

أخرج الإمام أحمد : عن أبى الأحوص عن أبيه قال : «أتيت رسول الله ﷺ ، وأنا رثّ الهيئة فقال : «هل لك مال» ؟ قلت: نعم ؛ قال : «من أى المال؟» قلت : من كل المال ، من الإبل والرقيق والخيل والغنم ، قال : «إذا آتاك الله مالاً ؛ فلير أثر نعمته عليك وكرامته» [٥٣] .

وأخرج البخارى والطبرانى عن زهير بن أبى علقمة مرفوعا : «إذا آتاك الله مالاً ؛ فليُر عليك ؛ فإن الله يحبّ أن يرى أثره على عبده حسنًا ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس» [٥٤] .

★ ★ ★

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾

المفردات :

فى شان : فى أمر تقصده .

كنا عليكم شهودا : كنا رقباء مطلعين عليكم .

تفيضون فيه : تخوضون وتندفعون فيه ، وأصل الإفاضة : الاندفاع بكثرة أو بقوة .

وما يعزب : ولا يغيب .

مثقال ذرة : المثقال : الوزن ، والذرة : النملة والهباء .

كتاب مبين : المراد به : اللوح المحفوظ أو هو كناية عن علمه تعالى ، ومعنى مبين : بين واضح .

التفسير :

٦١ - وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ... الآية .

بينت هذه الآية الكريمة إحاطة القدرة الإلهية بكل شيء في هذا الوجود ، وإحاطة علم الله بالصغير والكبير فى هذا الكون ؛ إن الله قد أحاط بكل شىء علما .

والمعنى : وما تكون يا محمد فى شأن من شئونك الهامة ، خاصة كانت أو عامّة .

وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ .

وما تقرأ من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزله الله عليك ؛ تعبدًا به أو تبليغًا له ولا تعملون أيها الناس الذين بلغتكم دعوته من عمل خيرًا كان أو شرًّا، شكرًا كان أو كفرًا ؛ إلا كنّا عليكم رقباء وحافظين وشهداء فنحفظه عليكم ونجازيكم به .

وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِي ٱلسَّمَآءِ .

وما يغيب عن علم ربك شيء فى وزن الهباء الدقيق ؛ سواء أكان ذلك الشيء الدقيق فى الأرض أمام أنظاركم ، أو فى السماء بعيدًا عنكم ، وقدّم ذكر الأرض ؛ لأن الكلام مع أهلها .

وَلآَ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .

أى : ولا شيء أصغر من الذرّة ، ولا أكبر من ذلك وإن عظم مقداره ؛ إلا وهو معلوم ومحصى عنده فى كتاب عظيم الشأن ، أى : إن علمه محيط بكل صغير وكبير ؛ فكيف تخفى عليه أعمالكم ؟

جاء فى تفسير المراغى ما يأتى :

وفى معنى الآية قوله تعالى : فَلآَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ . (الحاقة : ٣٨ ، ٣٩) .

وفى ذلك إشارة إلى أن فى الوجود أشياء لا تدركها الأبصار وقد أثبت العلم الحديث بواسطة الآلات التى تكبر الأشياء أضعافًا مضاعفة (المكروسكوبات) أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبُرت عن حقيقتها آلاف المرات كالجراثيم (المكروبات) ولم تكن تخطر على البال فى عصر التنزيل ، وقد ظهرت للناس الآن فهى من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير [٥٥] .

وأضيف أننى أكتب هذا التفسير اليوم بتاريخ ١٩٩٣/١٢/٢٧ ، وبالأمس أفادت أخبار من أمريكا أنها استردت قمرًا صناعيًّا استمر دورانه فى الفضاء ٤ سنوات ؛ ليجيب عن سؤالين هما :

١ – كيف كان خلق الكون ؟

٢ – ما عمر هذا الكون ؟

وذكروا أن الكون خلق بعد الانفجار الكبير الذى ترتب عليه وجود السماوات والأرض وما بينهما من الفضاء والهواء وأن عمر الكون ١٥ بليون سنة ، وسيمكث الكون ١٥ بليون سنة أخرى ثم يشيخ وينتهى . ا هـ .

ونقول : إن تقدم العلوم لا يصطدم مع حقائق القرآن ؛ بل ينزع إلى تأكيد ما جاء فى القرآن ، وتأكيد أنه كلام الله الذى أحاط بكل شيء علمًا .

لقد كانت الأرض صماء لا تنبت ، وكانت السماء رتقاء لا تمطر ؛ ففتق الله السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات وسبب الأسباب ؛ لإعمار الكون وتكامله ، فسخر الشمس تلقى أشعتها على المحيطات ؛ فيتصاعد البخر ثم يسوق الله السحاب ثم ينزل منه المطر .

وعندما يشاء الله ينتهى عمر هذا الكون، فتتكدر النجوم ، وتنشق السماء ؛ وتتمدد الأرض ، ويستجيب الجميع لأمر الله .

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨) .

ويقول سبحانه : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

ويقول عز شأنه : إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ(٥٦) وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (البقرة : ١٦٤) .

★ ★ ★

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات :

أوليــــاء الله : أولياء : جمع ولى ، ومن معانيه : لغة القريب ، وقد أطلق الأولياء فى عرف القرآن على المؤمنين الصادقين ؛ لقربهم الروحى من الله تعالى .

البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة : البشرى : مصدر أريد به : المبشر به ، وبشرى الحياة الدنيا : خيراتها العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك ، وبشرى الحياة الآخرة : ما أعد لهم فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

التفسير :

٦٢ - أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

توعد الله المفترين فى الآية ٦٠ من هذه السورة ؛ وهنا يبين جزاء أوليائه المقربين إليه .

والولىّ : هو من يوالى طاعة الله ويتقرب إليه سبحانه فهو فى محبة الله تعالى .

وفى الحديث القدسى : «ما تقرب عبدى إلىّ بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته ؛ كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن سألنى لأعطينه» [٥٧] .

إن هؤلاء الأولياء ، الذين يلتزمون طاعة الله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، **فالخوف** : حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر ؛ لتوقعه حصول ما يكرهه .

والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه . أى : أن الخوف : يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله ، بينما الحزن : يكون من أجل مكروه قد وقع فعلاً . أى : أن أحباب الله الذين صدق إيمانهم ، وحسن عملهم ؛ **لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** . فى الدنيا ؛ لثقتهم بالله ، **وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** .على شىء فاتهم من هذه الدنيا ؛ فإن متاعها قليل ، كما أنَّهم فى الآخرة لا ينالهم الحزن ولا الخوف ؛ لأن الله يبشرهم بالمنزلة العالية، ويطمئنهم على منازلهم فى الجنة .

قال تعالى : **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** . (فصلت : ٣٠ ، ٣٢) .

والخلاصة : إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فى الدنيا والآخرة ؛ فإن الله منحهم نعمة الرضا فى دنياهم ؛ فإن أقبلت عليهم النعمة والصحة والنصرة والقبول ؛ شكروا وحمدوا ، وإن فاتهم شىء من ذلك ؛ صبروا ورضوا ، وقد منّ الله عليهم فى الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض ، وفيها النعيم المقيم ، وهم يحمدون الله فيها قائلين : **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** . (فاطر : ٣٤) .

٦٣- ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ .

هذه صفات أولياء الله تتمثل فيما يأتى :

١- الإيمان الصادق بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

٢- تقوى الله سبحانه ومراقبته ، وطاعته والبعد عن معاصيه .

وما نراه من ادعاء بعض الناس الولاية ، وهم لا يؤدّون الفرائض ، ولا يأخذون بأسباب الكسب ، ولا يشاركون فى نهضة الأمة ؛ فإنهم لم يفهموا هذا الدين حق الفهم ؛ لأن دين الله سهل سمح وسط ، واضح لا شبهة فيه ولا غلوّ ، بل هو الصراط المستقيم ، والمحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك.

٦٤ - لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ... الآية .

أى : إن هؤلاء الأولياء الموصوفين بالإيمان والتقوى يبشرهم الله بالنصر والنجاح فى أعمالهم الدنيوية كالزراعة والصناعة والتجارة ويبشرهم فى الآخرة بدخول الجنة .

قال تعالى : يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . (الحديد : ١٢) .

ورأى بعض المفسرين : أن البشرى هى الرؤيا الصادقة ؛ فالله تعالى يبشرهم فى منامهم بالخير الذى ينتظرهم .

قال الآلوسى فى تفسيره :

وأكثر الروايات تفيد أن البشرى فى الحياة الدنيا ، هى الرؤيا الصالحة – فقد أخرج الطيالسى وأحمد والدّارمى والترمذى وغيرهم : عن عبادة بن الصامت . قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ؛ فقال : «هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» [٥٨] .

لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ .

أى : لا تغيير ولا خلف فى مواعيده تعالى ، ومن جملتها بشارة المتقين بجنات النعيم والخير العميم.

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

أى : تلك البشرى لأولياء الله بالفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة ؛ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وأىُّ فوز أعظم من طاعة الله ورضوانه ، والفوز فى الدنيا والنجاة يوم القيامة ، ودخول الجنة والتمتع برضوان الله ، وهو أكبر من كل نعيم ؟!

جاء فى تفسير القاسمى :

«وإذا كان أولياء الله هم المتقون ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيمانا وتقوى ؛ كان أكمل ولاية لله ، فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل ؛ بحسب تفاضلهم فى الإيمان

والتقوى ، ومن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ولا يجتنب المحارم ؛ كان كاذبًا فى دعواه ، أو كان مجنونًا ، وليس لأولياء الله شىء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصير ؛ بل يوجدون فى جميع طبقات الأمّة ، فيوجدون فى أهل القرآن، وأهل العلم ، وفى أهل الجهاد والسيف وفى التجار والصناع والزراع ، وليس من شرط الولى أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ...»[٥٩].

★ ★ ★

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٥) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾

المفردات :

العـزة : الغلبة والقهر .

إن يتبعون إلا الظن : ما يتبعون إلا التوهم .

يخرصون : يكذبون . وهو فى الأصل بمعنى : يقدرون بالاجتهاد الجزافى وكثيرًا ما يحدث فيه الخطأ ، فلذا يطلق على الكذب مجازًا وهو المراد هنا .

التفسير :

٦٥ – وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... الآية .

كان الرسول ﷺ حريصًا على هداية قومه ، وكان الحزن يشتد عليه بسبب تكذيبهم وإيذائهم له ، وكان القرآن يمسح آلامه ويدعوه إلى التسرية وانشراح الصدر .

قال تعالى : فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

قال تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣)

وفى هذه الآية يقول الله تعالى : وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .

لا يشتد حزنك من قولهم : إن محمدًا ساحر أو كاهن أو شاعر أو كذاب ، أو ينقل أساطير الأولين .
والنهى عن الحزن وهو أمر نفسى لا اختيار للإنسان فيه ، والمراد به هنا : النهى عن لوازمه كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ويصعب نسيانها .

إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .

إن القوة الكاملة ، والقدرة الكامنة ، والخلق والأمر بيد الله وحده ، لا رادّ لأمره ولا معقب لقضائه ؛ فالخلق جميعًا فى قبضته ، والملك كله فى يده ، وهؤلاء المشركون لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ؛ فهم مخلوقون مربوبون خاضعون لقدرة الله .

قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

وعزة المؤمنين مستمدة من عزة الله ، فهم فى طاعته وكنفه وهو يفيض عليهم من فضله ونعمه .

قال تعالى : وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (المنافقون : ٨) ، فلا تعارض بين هذه الآية والآية التى معنا ؛ فإن العزة جميعًا لله سبحانه ، كما قال عز شأنه : أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . (النساء : ١٣٩).

وقال عز شأنه : سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . (الصافات : ١٨٠) .

قال الشوكانى فى تفسير هذه الآية :

إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .

أى : إن الغلبة والقهر له فى مملكته وسلطانه ، فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم .

هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

فهو ٱلسَّمِيعُ لكل مسموع ، ٱلْعَلِيمُ بهم وبجميع من فى الكون ؛ فينصرك عليهم ويحقق لك الغلبة ، وقد تحقق وعد الله لرسوله ؛ فتم له النصر والفتح ، وذلك من المبشرات التى عجلها الله لرسوله فى الدنيا .

٦٦ - أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ .

فى هذه الآية تأكيد لما بشر الله به رسوله فى الآية السابقة ، فالملك الحقيقى كامل لله لجميع من فى السماوات ومن فى الأرض ، وما بينهما من الملائكة والجن والإنس ، فهم جميعًا مملوكون لله تعالى ، ومقهورون بسلطانه ، وعبيد لمشيئته ، وكذلك جميع الكائنات فهى أيضًا تحت سلطانه وقهره .

وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ .

أى : وما يتبع هؤلاء المشركون شركاء لله فى الحقيقة ، فليس لله شريك أبدًا ؛ فالأصنام ، والمسيح ، وعزير ، وسائر الشركاء المزعومين مملوكة لله تعالى ، ولا قدرة لها على شىءٍ من تدبير أمور العباد ، ودفع الضر عنهم ، بل إنهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، ولا يملكون جلب أى نفع لمن يعبدهم .

إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

أى : ما يتبع المشركون ، إلا الظن الفاسد ، والخطأ الفادح ، وما هم فى هذا الظن إلا متخرصون كاذبون .

قال الشوكانى :

وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ .

أى : إنهم وإن سمّوا معبوداتهم : شركاء لله ، فليست شركاء له على الحقيقة ؛ إنما هى أسماء لا مسمّيات لها ، والله مالك لمعبوداتهم .

إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ . أى : ما يتبعون يقينا ، والظن لا يغنى من الحق شيئًا .

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أى : يقدّرون أنهم شركاء تقديرًا باطلاً وكذبًا بحتًا .

★ ★ ★

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

المفردات :

لتسكنوا فيه : لتطمئنوا وتستقروا فيه بعد حركتكم بالنهار.

مبصرا : مضيئًا لتتحركوا فيه وتهتدوا فى ضوئه إلى حوائجكم . ونقل القرطبى عن قطرب أنه قال : أظلم الليل أى : صار ذا ظلمة ، وأضاءَ النهار وأبصر ، أى : صار ذا ضياء وبصر – يقصد : صاحب ضياء وبصر من الناس فيه .

التفسير :

٦٧ – هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ... الآية .

من شأن القرآن أن ينوِّع فى أدلته ، وأن يستلفت الأنظار إلى آثار القدرة الإلهية فى خلق الكون وإبداع نظامه ومن ذلك ما ورد فى هذه الآية :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا .

أى : أن الله سبحانه قسّم الوقت نصفين ، فجعل نصفًا منه للسكن والهدوء والنوم والراحة ، وهو الليل، وجعل النصف الثانى مبصرا ، أى : منيرا فيه ، الشمس والحياة والحركة والسعى والعمل ؛ وذلك فى النهار وبذلك يتم التكامل فى هذا الكون .

ولو استمر الليل دائمًا ؛ لتعطلت مصالح الناس وتعطنت أجسامهم ، ولو استمر النَّهار دائمًا ؛ لضَجّ الناس من السعى والحركة ، وتعبت أجسامهم وضعفت أعصابهم .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

إن فى هذا التدبير الحكيم لدلائل واضحة لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . سماع تأمل وتدبر وتعقل .

وفى معنى هذه الآية يقول الحق سبحانه وتعالى :

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ

أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (القصص : ٧١ - ٧٣) .

★ ★ ★

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

المفردات :

إن عندكم من سلطان بهذا : ليس عندكم من حجة عليه .

التفسير :

٦٨ - قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ... الآية .

أى : قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال المشركون : الملائكة بنات الله .

سُبْحَـٰنَهُۥ : أى : تنزه الله عن أن يكون له ولد ؛ لأنه هو الغنى بذاته عن الولد ، وعن كل شىء ، وهو المالك لجميع الكائنات ، علويّها وسفليها ، وهو الذى لا يحتاج إلى غيره ، وغيره محتاج إليه ، وخاضع لسلطان قدرته .

وفى معنى هذه الآية قال تعالى :

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا .

(مريم : ٨٨ - ٩٦)

إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ . هذه الجملة تجهيل لهم وردّ عليهم ، وإنْ هنا نافية بمعنى : ما ، أى : ليس عندكم من الدلائل والبراهين ؛ ما يؤيد صحة هذا القول الذى تقولونه بلا علم ولا وحى إلهى .

أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ .

أى : أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته ، وتنسبون إليه تعالى مالا يجوز إضافته إليه .

قال الآلوسى : وفى الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه ؛ فهو جهالة ، وأن العقائد لابدّ لها من قاطع، وأن التقليد بمعزل من الاهتداء [٦٠].

٦٩ – قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الذين يختلقون الكذب على الله ، وينسبون إليه ما يتنزه عنه ، هؤلاء لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوب أصلاً ، فالنار مثواهم ، والجنة حرام عليهم .

٧٠ – مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ .

أى : أن ما يتمتعون به فى الدنيا من شهوات وملذات ، هو متاع قليل بالنسبة لنعيم الآخرة ، ثم إن مرجع الخلائق جميعًا إلى الله تعالى ، وبيده الخلق والأمر والحساب والجزاء .

ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ .

وفى يوم القيامة يلقى الكافرون جزاء كفرهم وافترائهم على الله ، عذابًا شديدًا فى أفواه جهنم .

قال تعالى : وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣) .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

المفردات :

نبأ نوح : النبأ : الخبر الذى له شأن وخطر .

كبر عليكم مقامى : شق وعظم عليكم قيامى ووجودى بينكم .

فاجمعوا أمركم : إجماع الأمر : العزم عليه ، تقول : أجمعت الأمر وأجمعت عليه . أى : عزمته وأردته بهمة ومضاء عزيمة ، والصيغة الأولى أفصح من الثانية ، وقال أبو الهيثم : أجمع أمره : جعله مجموعًا بعد ما كان متفرقًا .

غمة : أى : مستورًا ، من غمه ؛ إذا ستره .

اقضوا إلى : أى : أدوا إلى الأمر الذى تريدونه بى .

ولا تنظرون : ولا تمهلونى .

توليتم : أعرضتم عن تذكيرى .

من المسلمين : من المنقادين لحكم الله ؛ لا أخالف أمره .

الفلك : السفينة .

التفسير :

٧١ - وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ... الآية .

نوع القرآن فى أساليب دعوته للحق والإيمان ؛ فهو قد جابه المشركين فى الآيات السابقة ، وفنّد شبههم ، وانتقل إلى نقل جانب من قصص المرسلين السابقين .

وفى ذكر هذا القصص حكم متعددة من بينها ما يأتى :

١ - تسلية الرسول ﷺ ؛ بذكر قصص الرسل السابقين ، وبيان ما تعرضوا له من البلاء وبذلك يهون عليه ما يلقاه من قومه .

٢ - بيان عاقبة المكذبين من الهلاك ، وجزاء المؤمنين من النصر ، وفى هذا تهديد للمشركين ؛ حتى تلين قلوبهم نحو الحق ، وتثبيت للمؤمنين ؛ حتى يثقوا بوعد الله فى النصر .

٣ - تنويع القول ؛ لأن الكلام إذا سار على وتيرة واحدة ؛ فربما أصاب السامع شيء من الملالة ؛ كما يقول الإمام الرازى فى تفسيره ، وفى ذكر القصص ؛ دفع للسآمة والملل .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣).

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ . أى : واذكر لقومك يا محمد : قصة نوح عليه السلام وقد ذكرت قصة نوح بصورة أكثر تفصيلاً فى سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، وسورة نوح ...

لكنها ذكرت هنا بصورة مجملة لإبراز جانب التحدى من رسول لا يملك جيشا ولا قوة وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ . (هود : ٤٠) ، ولكنه هنا يجاهر قومه ، بأنه بلَّغ الرسالة لهم خلال عمر طويل هو : أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا . (العنكبوت: ١٤) .

ولكنهم صمُّوا آذانهم عن سماع الحق ، وأغلقوا عقولهم عن النظر فى أدلة الإيمان ودعوته ، وهنا أزمع نوح أمره على هجرهم وتحدِّيهم .

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ .

وفى الآية فقرات تحتاج بعض التوضيح وهى :

١ - إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى .

أى : شق عليكم طول مكثى بينكم وطول دعوتكم إلى الإيمان والتوحيد .

٢ – فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .

لقد اعتمدت على الله القوى الجبار ذى القوة المتين ؛ فلا أخاف منكم ولا أتهدد من وعيدكم ، ولا أبالى بمكركم وكيدكم .

٣ – فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ .

أى : اتخذوا قرارًا جماعيًّا بشأن دعوتى ، واجمعوا معكم الأصنام التى تعبدونها وترجون نصرتها – يقال : أجمع أمره على كذا ، أى : استقر على قرار بشأنه بعد أن كان الرأى فيه مشتتًا متفرقًا.

قال الشاعر :

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما	أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من منادٍ ومن مجيب ومن تصـ	ـهال خيل خلال ذاك رغاء

أى : أنهم باتوا على نية السفر فى الصباح وأجمعوا أمرهم عليه .

٤ – ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .

غُمَّةً : أى : خفيًّا مستورًا ؛ بل اجعلوه ظاهرًا واضحًا علنًا ، ومنه الحديث الشريف : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمّ الهلال ؛ فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا» [٦١] .

ومعنى الحديث : «فإن غمّ» أى : إن استتر الهلال ، وحال دون رؤيته لكم حائل من غيم أو ضباب ؛ فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا .

وإنما قال نوح ذلك ؛ إظهارًا لقلة مبالاته بهم ، وثقة بأن الله سينصره ويحفظه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً.

ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ .

وهذه الجملة زيادة فى تحديهم وإثارتهم . أى : أنفذوا قضاءكم ، الذى تريدون أداءه نحوى : من إيذائى أو إهلاكى ، بدون إنظار أو إمهال ويصح أن يكون القضاء بمعنى: الحكم . أى : ثم احكموا على بما تريدون من أحكام ، ولا تتركوا لى مهلة فى تنفيذها ، بل نفذوها فى الحال.

وكل ما فى الآية يؤيد ثقة نوح بنصر الله ، وعدم مبالاته بكيدهم أو وعيدهم ؛ فهو نموذج للداعية المؤمن الثابت أمام الباطل ؛ الواثق بعون الله ونصره .

ومعنى الآية : يا قوم ، إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم ، وتذكيرى إياكم بآيات الله ، الدالة على وحدانيته ، فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد ، ثم ادعوا شركاءكم ؛ ليساعدوكم فى ذلك ، ولا تجعلوا أمركم الذى تعتزمونه خفيًّا ملتبسًا عليكم بل أظهروه لى وتبصروا فيه ؛ فإن كنتم ترون أنكم محقون ، فاقضوا إلى ذلك الأمر ، ونفذوه بالفعل ، ولا تؤخرونى ساعة واحدة ، عن تنفيذ هذا القضاء ، ومهما قدرتم فافعلوا ؛ فأنا لا أبالى بكيدكم ؛ لأنى توكلت على الله ربى وربكم .

وهذا الموقف من نوح عليه السلام ، مشابه لموقف هود عليه السلام حين قال لقومه :

إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (هود : ٥٤ - ٥٦) .

وهكذا يتبين الفرق بين موقف المؤمن الراسخ الإيمان الذى لا يعرف التردد ، وبين موقف الكافر الضعيف المتردد ، الذى لا ملاذ له إلا بالقوة الوهمية للشركاء ، والآلهة المزعومة .

٧٢ - فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ... الآية .

أى : فإن أعرضتم عن نصحى ، وكفرتم برسالتى ؛ فإنى لا أنتظر منكم على تبليغ الرسالة أجرًا ولا مالاً؛ لأن أجرى وجزائى من الله وحده .

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

أى : أمرنى ربى بأن أكون من المسلمين . أى : المستسلمين الخاضعين لحكمه ، الراضين بقضائه وقدره، والإسلام هنا بمعنى : الخضوع والاستسلام لأمر الله عزَّ وجلَّ ، وهو دين الأنبياء والرسل جميعًا من أولهم إلى آخرهم وإن تنوعت شرائعهم التفصيلية فهذا نوح يقول : وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . (البقرة : ١٣١ ، ١٣٢) .

وقال موسى : يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ . (يونس : ٨٤) .

وقال سحرة فرعون : رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ . (الأعراف : ١٢٦) .

وقال النبى محمد ﷺ : إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ . (الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣) . أى : من هذه الأمة .

وقد روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «الأنبياء أخوات لعلاّت ؛ أمهاتهم شتى، ودينهم واحد» .

فالأنبياء والرسل أشبه بإخوة من أب واحد وأمهات متعددة ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أرسل الرسل ، وأنزل الكتب داعية إلى التوحيد ومكارم الأخلاق ، ولكل رسول شرعة ومنهاج ؛ قال تعالى : لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا . (المائدة : ٤٨) .

٧٣ - فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ... الآية .

لقد لوّن نوح فى دعوته كما ذكر فى سورة نوح ، وفى سورة هود ، وفى سور أخرى ، بيد أن قومه كذّبوه ؛ فأغرقهم الله بالطوفان ، وأمر نوح ومن معه من المؤمنين بركوب السفينة والسير بها ، باسم الله مجريها ومرساها ، ثم استخلف الله المؤمنين فى عمارة الأرض ، والممتلكات التى تركها المشركون الهالكون ، وأغرق الله المكذبين ونجى المؤمنين .

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ .

أى : فانظر وتأمّل يا كل ذى عقل سليم ، كيف كان عاقبة المنذرين الذين أنذرهم نوح بالعقوبة على كفرهم فسخروا منه واستهزءوا به ؛ فكان عاقبتهم الهلاك والدمار وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ .(هود : ٣٨ - ٤٠) .

★ ★ ★

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

التفسير :

٧٤ – ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ... الآية .

ثم أرسل الله رُسلاً كثيرين لهداية البشرية .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . (إبراهيم : ٤) .

وكان كل رسول يأتى إلى قومه فيدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، ومع كل رسول معجزة خارقة للعادة ؛ تصديقًا له فى دعواه .

فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ .

إن القوم مرنوا على التكذيب بالرسل ، فكلما جاء أمةً رسولٌ كذبوا به ، وكأنما وصّى السابق منهم اللاحق وتعودوا على هذا التكذيب ، كأن التكذيب طبيعة فى جبلّتهم ، والعناد صفة ملازمة لهم ، فما كان اللاحقون ليؤمنوا بما كذب به السابقون .

ومن معانى الآية أيضًا : أن المكذبين كذّبوا الرسول عندما جاءهم بالرسالة أول مرة ، ثم استمروا على عنادهم ، ولم يعاودوا النظر فى هذه الرسالة ، ولم يعودوا إلى الإيمان بها بعد أن كذبوا بها أول مرة جاء بها رسولهم .

وقد ذهب إلى هذا المعنى الإمام ابن كثير فى تفسيره ، حيث قال :

قوله : فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ .

أى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم .

قال تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ . (الأنعام : ١١٠) .

وتفيد الآية عمومًا : استمرار هؤلاء الكفار على التكذيب والعناد ، دون أن تحوّلهم الآيات البينات التى جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم .

كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ .

أى : كما نختم على قلوب هؤلاء فلا يؤمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا نختم على قلوب من أشبههم فى العناد ممن بعدهم من المعتدين كقومك ؛ فقد جرت سنة الله تعالى ، أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب فإذا استمرَّ أقوام الرسل فى تكذيبهم ، ولم يفتحوا قلوبهم للنظر ، واستمرُّوا على العناد ؛ سلب الله عنهم الهدى والرشاد ، وتركهم فى غيهم وضلالهم كأنما ختم على هذه القلوب فلا تفقه الحق ولا تتأمل الرشاد ، وقريب من ذلك قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . (البقرة : ٦ ، ٧) .

قال الزمخشرى :

والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم ؛ لأن الخذلان يتبعه ، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به .

وبعبارة أخرى : المراد بالطبع : عدم قبول القلوب شيئًا من نور الهداية والمعرفة ؛ لأنهم تجاوزوا كل حد فى الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا .

★ ★ ★

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

وملئه : الملأ : أشراف القوم .

لتلفتنا : لتصرفنا ، واللفت والفتل بمعنى واحد .

التفسير :

٧٥ – ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا ... الآية .

تأتى هذه الآيات عن قصة موسى عليه السلام ، من باب ذكر الخاص بعد العام ؛ فقد أرسل الله رسلاً إلى قومهم ، ومن بينهم موسى ، كما ذكر فى الآية السابقة ، لكنه ذكر موسى هنا ؛ لاشتمال قصته على أمور كثيرة ، ولأن اليهود كانوا يجاورون العرب ، ويعرفون هذه القصة ، ولاشتهار فرعون وأعماله ، ولأنها أيضا تشتمل على حوار بين ملك متكبر ؛ يملك الأرض والمال والنِّيل والأتباع ، وموسى وهارون لا يملكان شيئًا سوى الرسالة والتأييد الإلهى ، ويشاء الله أن يغرق فرعون فى ماء النيل ، وأن يرث المؤمنون الملك والأرض؛ فهو نموذج لزهاق الباطل ، وإحقاق الحقّ .

ومعنى الآية : ثم بعثنا موسى وهارون ، من بعد الرسل الذين أرسلهم الله بعد نوح ، مثل : هود إلى قومه عاد ، وشعيب إلى قومه مدين ، وصالح إلى قومه ثمود .

وقد أيد الله موسى بتسع آيات وهي :

السنون (أعوام الجدب والقحط) ، ونقص الأموال ، ونقص الأنفس ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدّم .

قال تعالى : **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ** ... (الأعراف : ١٣٣).

وقد أُرسل موسى وهارون إلى جميع الأمة المصرية ، ولكنه خصّ فرعون وملأه ؛ لأن السلطة كانت فى يده ، ولأن الحديث كان مع فرعون أولا ؛ رغبة فى إيمان من خلفه بإيمانه .

فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

أى : امتنعوا عن قبول الحقّ والانقياد له ، وعن الإيمان بموسى وهارون .

وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . أى : معتادى الإجرام راسخين فى الجريمة والظلم ، والإفساد فى الأرض . وأعظم الكبر : أن يتهاون الناس برسالة ربهم ، بعد قيام الأدلة على صحتها .

٧٦ - فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ .

فلما جاءهم موسى برسالة السماء ؛ تحمل الدعوة إلى الحق والإيمان ، ومع موسى معجزات ظاهرة ؛ تؤيد رسالته ؛ قال فرعون وقومه : هذا سحر ظاهر وليس بمعجزة ، وأكدوا كلامهم بأدوات التأكيد ، وهى: إنّ ، ولام القسم ، واسمية الجملة ، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان .

قال تعالى : وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ . (النمل : ١٤) .

٧٧ – قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ... الآية .

قال موسى منكرًا عليهم عزوفهم عن قبول الحق ، واتهام المعجزة بأنّها سحر ، وحذف مقول القول ؛ لتنزيه لسانه عن إعادة الجملة الباطلة التى قالوها ؛ وهى اتهام الحق بأنه سحر واضح .

أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ .

أى : عجبًا لكم أهذا الحق المؤيد بالمعجزات سحر ، والسحر فى حقيقته تخييل وخداع ، والساحر لا يفوز فى ساحات الحقائق ، وقضايا الدين ، وأصول الحياة ، وإقامة الممالك ؛ لأن السحر حيلة وشعوذة وخفة يد . وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ . (طه : ٦٩) .

٧٨ – قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ .

رفض فرعون وحاشيته رسالة موسى لسببين :

١ – أنها تصرفهم عما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم .

٢ – أن موسى وهارون سينالان تأييدًا شعبيًا ، وزعامة دينية ، فأثر الدين غالب فى نفوس الناس أجمعين؛ ويصبح ملك فرعون صوريًا ؛ بعد تصديق الناس برسالة موسى .

ونلاحظ فى الرد عليهما ما يأتى :

١ – الرسالات السماوية جاءت لإصلاح الخلل وتقويم العوج ، وشنّعت على الناس تقليد الآباء والأجداد فى الباطل ، وعبادة الهوى .

٢ – وقف الكفار فى وجه رسالات السماء من عهد نوح ؛ خوفًا على ملكهم وجبروتهم وتسلطهم ، وحاولوا منع أتباعهم من الإيمان بالرسل ؛ تمسكًا بالملك والجبروت ، وكراهية لكل رسالة إصلاح ودعوة إيمان ، فقوم نوح قالوا عنه : مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ... (المؤمنون : ٢٤) .

وقوم محمد كانوا أعرف الناس بصدقه وأمانته ، وبأن الشرك تهافت ، ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة ، القائمة على ما فى عقيدة الشرك من خرافات وتقاليد ، وكذلك خشى الملأ من قوم

فرعون؛ من دعوة موسى وهارون ؛ لأنها ستغير الهرم الاجتماعى ، وتجعل القيادة فى يد الحق والرسالة ؛ ولذلك جحدوا وكفروا بهذه الرسالة وقالوا :

وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ .

أى : لن نصدق برسالتكما ؛ لأنها ستسحب بساط الملك من تحت أقدامنا وهكذا يتعلل فرعون وملؤه بهذه التعللات ؛ فقد كان الملك والسلطان أهمّ عندهم من الهداية والإيمان مع أن الدنيا فانية ، وأثر الإيمان خالد باق !

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات:

السحر : يطلق على ما لطف ودق ، ويطلق على ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها ، مثل ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ، ويكون السحر أيضًا بمباشرة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد من التأثير على الشخص المقصود ، بحيث يغير مزاجه ويؤثر فى حواسه ووجدانه ، كأن يجد الحلو مرًا ، وينقبض صدره وتضعف قواه ، ويكثر اضطرابه .

سيبطله : سيمحقه ولا يبقى له أثرًا .

لا يصلح : لا يثبت ولا يؤيد .

ويحق الله الحق : ويثبت الله الحق ويقويه ويؤيده

بكلماته : بأوامره ووحيه .

التفسير:

٧٩ - وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ .

لقد ألقى موسى عصاه فانقلب ثعبانًا كبيرًا أمام فرعون ، وأدخل يده فى جيبه ، فخرجت بيضاء بياضًا يغلب ضوء الشمس ، وادعى فرعون أن هذا سحر مبين ، وليس معجزة إلهية ، وحاول أن يؤيد قوله بالفعل ؛ فأرسل فرعون أوامره فى سائر المدن ، وجمع أمهر السحرة ، وأعلاهم قدرًا .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ .

أى : قال فرعون آمرًا قومه : اجمعوا لى من جميع أنحاء مملكتى كل ساحر واسع العلم بفنون السحر ، عظيم الخبرة به ، قوى التأثير ، بارع الحيلة .

٨٠ - فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ .

جاء السحرة وعرضوا على موسى أن يبدأ هو أو يبدءوا هم ؛ فترك لهم موسى عنصر المبادأة ؛ ليظهروا كل ما فى حوزتهم ؛ وليفعلوا كل ما يستطيعون فعله ، فإذا أبطله موسى ، أدركوا أن مافعله ليس سحرًا ؛ لأنهم أعلم الناس بالسحر .

وقد حكى القرآن فى سورة الأعراف هذا الموقف فقال :

قَالُواْ يَامُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَواْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . (الأعراف :١١٥ - ١١٧) .

٨١ - فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

عندما ألقى السحرة سحرهم ؛ بهروا جميع الناس ، وأدخلوا الرهبة فى قلوبهم ، بالحيلة والشعوذة ، فقد دهنوا حبالهم بالزئبق، وأرسلت الشمس أشعتها على الحبال ؛ فصار لها بريق وتموج كأنها حيات تسعى.

قال موسى : ما جئتم به الآن هو السحر ، وليس ما أتيتم به من المعجزات ، التى قال عنها فرعون وملؤه:

إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ .

ثم قال موسى : هذا السحر الذى أظهرتموه ؛ إن الله سيبطله وسيمحقه ، وسيظهر بطلانه قطعًا أمام الناس ، بما يفوقه من المعجزة التى هى آية خارقة للعادة ، تفوق السحر وأشكاله المختلفة .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ . الذين يتخذون الباطل مركبا لخداع الناس ، وتزييف الحقائق ؛ فالسحر باطل وفساد ، والله تعالى لا ينصر الباطل ولا يصلح عمل المفسدين ، وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ . (طه : ٦٩) .

قال العلماء : لا تكتب هذه الجملة على مسحور ؛ إلا دفع الله عنه السحر وهى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

٨٢ - وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ .

ويريد الله أن يحق الحق ويؤيده وينصره على الباطل بقدرته وآياته ؛ فهو سبحانه إذا أراد أمرًا فإنما يقول له : كن ؛ فيكون ، ومن إرادة الله : أن ينصر الحق وأن يؤيد الرسل بآياته ، قال تعالى : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ . انتصار الحق واستقراره ، ففى إحقاقه قطع أطماعهم ، وتقويض سلطانهم ، والقضاء على باطلهم ومن سنن الله فى خلقه : أن البقاء لمبادئ الخير والحق ، قال تعالى : وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا . (الإسراء : ٨١) .

★ ★ ★

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفردات :

ذرية من قومه : جماعة من قومه ، شبابًا أو كهولا ، فقد آمن به السحرة وهم كهول غالبًا كما آمن به غيرهم.

أن يفتنهم : أن يعذبهم .

لعال فى الأرض : لغالب فيها .

التفسير:

٨٣ - فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ... الآية .

فى الآيات السابقة ما يفيد: أن الله أبطل عمل السحرة ، ونصر موسى وأيده بالمعجزات ، وقد كان هذا النصر كفيلاً بأن يؤمن بموسى أعداد كثيرة ، لكن الآية هنا أفادت بأن من آمن بموسى ، كان أعدادًا قليلة من الشبان ، وكانوا خائفين من التعرض للعذاب والفتنة .

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ .

أى : لم يؤمن بدين موسى إلا جماعة من شبان بنى إسرائيل ، أمَّا الآباء والرؤساء ، فقد شايعوا فرعون ؛ طمعًا فى المناصب والرئاسة ، وقد رجَّح هذا الرأى ابن جرير ، حيث ذكر : أن الذرية كانت من بنى إسرائيل ؛ لعود الضمير على أقرب مذكور .

وذهب فريق من المفسرين : إلى أن الذين آمنوا بموسى ذرية من قوم فرعون ، آمنوا بموسى مع وجود الخوف ، والتعرض للفتنة من فرعون وملئه .

قال العوفى : عن ابن عباس : «إن الذرية التى آمنت بموسى من قوم فرعون منهم : امرأته ، ومؤمن آل فرعون ، وخازنه ، وامرأة خازنه» ، وقد اختار هذا الرأى ابن كثير فى تفسيره ؛ حيث قال : من المعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى ، واستبشروا به ؛ فقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به .

وأيد هذا الرأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن ، حيث اختار أن هذه الذرية : ذرية المصريين الذين آمنوا بموسى عليه السلام ؛ فقد آمن بموسى طائفة من المصريين ، منهم السحرة : الذين أعلنوا إسلامهم وتحملوا صنوف العذاب فى سبيل الله ، ومنهم : مؤمن آل فرعون ، الذى أخذ يبشر قومه بدعوة موسى عليه السلام ، وقد سميِّت سورة غافر ، بسورة المؤمن ، أى : مؤمن آل فرعون .

وفيها يقول الله تعالى : وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ . (غافر : ٢٨) .

وقال تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . (غافر : ٣٨) .

ونلاحظ أن الذين استجابوا لدعوة موسى كانوا من الذرية ، أى : من الأبناء والشبان ؛ لأن الكبار أشد تمسكا بما ألفوه ، والشباب هم أتباع الرسل .

قال تعالى : فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ .

أى : آمن بموسى شبان وأولاد ونساء من أهل مصر ، مع خوفهم من بطش فرعون وحاشيته بالمؤمنين بموسى .

« وإنما جاء فى القرآن : أَن يَفْتِنَهُمْ دون أن يفتنوهم ؛ حتى يشمل فرعون وملأهم ؛ لإفادة : أن الخوف من الملإ كان بسبب أن كل ظالم فى دولة فرعون ؛ كان يستمد ظلمه من طغيان فرعون وجبروته» [٦٢] .

وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ .

تؤكد هذه الجملة ما سبقها ، وتؤيد أن فرعون كان جبارًا ، عنيدًا ، غالبًا للناس ، قاهرًا لهم فى أرض مصر بالسلطان والملك .

وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ .

كان مسرفًا فى البطش والظلم ، والتمرد والعتوّ ، متجاوزا الحدّ فى الظلم والفساد ، شديد البطش والفتك ، حتى إنه ادعى الربوبية ، واسترق أسباط الأنبياء ، وكانت له سطوة ومهابة ، تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا .

٨٤ – وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ .

قال موسى لقومه الذين أظهروا الإيمان والانقياد لأمر الله ، مع الخوف من فرعون وملئه – قال لهم موسى : إن الإيمان الحق ينبغى أن يتبعه صدق اليقين ، بأن الله هو خالق الكون وبيده الخلق والأمر ، والتوكل على الله تعالى من شعب هذا الإيمان ، والتوكل يقتضى الأخذ بالأسباب ، مع اليقين الجازم بأن المسبب الحقيقى هو الله تعالى ، كما أن الإيمان بالقلب يستتبع التوكل ، ويقتضى الاستسلام لحكم الله ، والالتزام بما أمر الله ، وتنفيذ المأمورات ، واجتناب المنهيات .

إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ . أى : إن كنتم مستسلمين له خاضعين لشرعه .

٨٥ – فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : استجاب المؤمنون لدعوة موسى ، وقالوا : على الله وحده توكلنا ، واعتمدنا ، وفوضنا أمورنا إليه ، ثم دعوا ربهم قائلين :

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِين .

أى : يا رب ، لا تجعلنا موضع فتنة من القوم الظالمين ؛ بأن تسلطهم علينا ، فنجنا يا رب من مكرهم وكيدهم . أو يكون المعنى : اللَّهم ، لا تنصر علينا القوم الظالمين ؛ فنكون مصدر فتنة لهم ؛ حيث يظنون أنهم على الحق ، وأن المؤمنين على الباطل بدليل انتصار الظالمين على المؤمنين ، وكان أتباع فرعون يأخذون المؤمنين بالأعمال الشاقة .

٨٦ - وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ .

أى : أنقذنا بفضلك وعونك من هؤلاء القوم الكافرين ، الذين كفروا بك ؛ فقد ادعى فرعون الألوهية ، وعذّب بنى إسرائيل أشد العذاب ؛ فتضرع المؤمنون إلى ربهم : أن ينجيهم من هؤلاء الزبانية الذين كفروا بنعمة الله عليهم ، ومارسوا أشد ألوان الظلم والعدوان .

★ ★ ★

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

تبوءا لقومكما بمصر بيوتا : أى: اجعلا لقومكما منازل يقيمون فيها – يقال : تبوأ المكان، وتبوأ به: نزل فيه وأقام به.

واجعلوا بيوتكم قبلة : أى : اجعلوها أماكن الصلاة متجهين فيها إلى القبلة .

اطمس على أموالهم : الطمس فى اللغة: المحق والمحو ، أى : أهلكها واجعلها غير صالحة للانتفاع بها .

واشدد على قلوبهم : أى : اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان؛ لاختيارهم الكفر وإصرارهم عليه.

التفسير:

٨٧ – وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون ، بوحى أوحاه إليهما ، أن يجعلا لقومهما بمصر بيوتا خاصة بهم ، ينزلون بها ويسكنون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .

أى : اجعلوا هذه البيوت التى حللتم بها مكانًا لصلاتكم وعبادتكم – وكان فرعون وجنده ، قد خربوا معابد بنى إسرائيل ومنعوهم من الصلاة فى أماكن العبادة الخاصة بهم .

وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ .

أى : حافظوا على الصلاة فى خشوع وخضوع ، وحضور قلب ؛ فهى وسيلة لتثبيت الإيمان ، وتفريج الكروب وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر ؛ فزع إلى الصلاة .

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : بالنصر والفلاح فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة .

تنوع الخطاب فى الآية :

أول الآية فيه خطاب مثنى ، توجه الخطاب بالوحى إلى موسى وهارون ، فاتخاذ البيوت التى تخصّ القوم ، قرار رئيس تمّ بتوجيه نبى الله موسى ونبى الله هارون ، لكن تهيئة البيت ليكون مُعدًّا للصلاة ، والاتجاه جهة القبلة للعبادة ، أمر ينبغى أن يقوم به جميع المؤمنين ، وكذلك إقامة الصلاة ، أمر عام للجميع فجاء الأمر فيه بواو الجمع .

أما البشارة بالنصر فكانت من موسى وحده ؛ لتكون أوقع فى نفوس المؤمنين وأنسب فى إدخال السرور عليهم ، وذهب بعض المفسرين : إلى أن المراد بالبيوت هنا: المساجد ، وتبنى المساجد جهة القبلة .

قال الشوكانى فى تفسير الآية :

تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا . أى : اتخذوا لقوكما بمصر بيوتا ؛ لعبادة الله تعالى ، أى: مساجد ، قيل: ومصر فى هذه الآية هى: الإسكندرية ، وقيل: هى مصر القديمة ، بجوار القاهرة الآن . وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . أى : متوجهة إلى جهة القبلة ، وقيل: المراد : البيوت التى يسكنون فيها ، أمروا بأن يجعلوها متقابلة ، والمراد بالقبلة على القول الأول هى : جهة بيت المقدس ، وقيل : جهة الكعبة . ا هـ .

٨٨ – وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ .

الزينة : اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ، ومركوب ، وحلية ، وفراش ، وسلاح ، وغير ذلك .

كان موسى يُعدُّ بنى إسرائيل للخروج من مصر ؛ لذلك اتخذ لهم بيوتا خاصة بهم ، وحثهم على كثرة العبادة والصلاة ، وبشرهم بالنصر ، ثم شاهد موسى ما يتمتع به فرعون وقومه من المال والزينة ، والزراعة والترف ، والتنعم بصنوف الأموال والمتع ، ولكنهم لا يشكرون الله على نعمائه ، ولا يؤدُّون حق الله فيما

رزقهم ، بل استغلوا هذه النعم فى الضلال والإضلال ؛ فجحدوا الدين ، ورفضوا الإيمان بموسى ، وعذبوا المؤمنين وفتنوهم ؛ فدعا موسى ربه أن يختبرهم بصنوف العذاب ، ومنها : محق الأموال ، وطمس القلوب ، وعدم تفتحها للحق حتى يفاجئها الموت .

قال الإمام الشوكانى فى فتح القدير :

رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ .

أى : فكانت عاقبة أمرهم أن استعملوا نعمك فى صرف الناس عن دينك ؛ دين الحق .

رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ . دعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها.

وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ . أى : اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ، ولا تنشرح للإيمان .

فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ .

أى : لا يحصل منهم الإيمان إلاّ مع المعاينة لما يعذبهم الله به ، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم . ا هـ .

ونلاحظ أن موسى قدّم بين يدى دعائه ، على فرعون وقومه : ذكر طغيانهم ؛ ليكون أرجى لاستجابة الله ، وتشهيرًا بهؤلاء الذين لم يقدّروا نعم الله حق قدرها ، وكرر النداء رَبَّنَآ ؛ مبالغة فى الضراعة إليه تعالى.

قال الإمام ابن كثير : وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ؛ غضبًا لله تعالى ، ولدينه ؛ على فرعون وملئه ، كما دعا نوح على قومه .

٨٩ – قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

كان موسى عليه السلام يدعو ربه ، وهارون يُؤَمِّنُ على دعائه ، فاعتبر الله الدعاء متوجها منهما معًا، فقال سبحانه :

قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا . لقد استجيبت دعوتكما ، وسوف أحقق هذا الدعاء ؛ بتدمير فرعون ، وإهلاك أمواله ، لكن هذه الإجابة لها وقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر .

فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فاستمرا على دعوة الناس إلى الإيمان ، والزما الاستقامة على دين الله ، ولا تسيران فى طريق من يخرج عن شرع الله ، أو يتعجل إجابة الدعاء قبل أوان ذلك وهذا

توجيه من الله للناس بأهمية الدعاء ، والإخلاص فيه ، وعدم الاستعجال ؛ لأن الله لا يعجل لعجلة العباد ، وإن من علامات الإيمان الصادق : أن يكون الإنسان غيورًا على دين الله تعالى ، وكان موسى قد علم أن فرعون لنْ يؤمن ، فلما أعلمه الله بذلك ؛ دعا بهذه الدعوة ، كما سبق أن أعلم الله نوحا بعدم إيمان قومه .

قال تعالى : وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءَامَنَ . (هود : ٣٦) .

فلما علم نوح بذلك قال : رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوٓا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا . (نوح : ٢٦ ، ٢٧) .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

المفردات :

وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر : أى: وجعلناهم يجاوزونه ويعبرونه من الغرب إلى الشرق حتى وصلوا إلى شاطئه الشرقى.

فأتبعهم فرعون : أى : تبعهم حتى اقترب منهم ، تقول : تبعته حتى أتبعته ، إذا كان قد سبقك فلحقته .

بغيا وعدوا : أى : ظلمًا ، وتجاوزا للحد فيه .

حتى إذا أدركه الغرق : أى : حتى إذا لحقه الغرق .

التفسير:

٩٠ - وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ... الآية .

لما أعلم الله تعالى موسى وهارون باستجابة دعائهما على فرعون وقومه ، أمرهما أن يخرجا ببنى إسرائيل من مصر ليلاً ، فخرجا بهم على حين غفلة من فرعون وقومه ، فلما علم فرعون بخروجهم ؛ خرج هو وجنوده على إثرهم مسرعين فى طلبهم بغيًا وعدوانًا ، والتفت بنو إسرائيل فإذا الطامّة الكبرى وراءهم ؛ فقال بنو إسرائيل : يا موسى ، العدوّ وراءنا والبحر أمامنا ! فقال موسى : إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . (الشعراء : ٦٢).

فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر (وهو بحر القلزم المسمى : البحر الأحمر ، بحر السويس) فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أى : كالجبل العظيم ، وصار اثنى عشر طريقًا لكل سبط طريق وأمر الله الريح فنشَّفت أرضه ، وسارت بنو إسرائيل فى هذه الطرق اليابسة ، وعبرت إلى الشاطئ الآخر ، ووصل فرعون وجنوده إلى الساحل ، وكان طريق بنى إسرائيل فى البحر لا يزال باقيًا ، فسار فيه فرعون بجنوده ، فلما اكتملوا جميعًا فيه ، وهمّ أولهم بالخروج ، أمر الله العلى القدير البحر أن يرتطم عليهم ، فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون ، وغشيته سكرات الموت .

قال : وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا .

أى : جعلنا بنى إسرائيل يجاوزون البحر ويعبرونه ، من الغرب إلى الشرق حتى وصلوا إلى شاطئه الشرقى ، ثم دخل فرعون وجنوده فى إثرهم ، فأطبق الله عليهم البحر ، وشاهد بنو إسرائيل جموعهم تنجو من فرعون وجنوده ، كما شاهدوا فرعون وجنوده غرقى فى قلب البحر .

قال تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . (البقرة : ٥٠) .

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

كان فرعون فى مرحلة الغرغرة ، ورأى الموت رأى العين ؛ فاعترف بالإيمان اعترافًا مكررًا ثلاث مرات:

١ – قال : آمنت .

٢ – أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل .

٣ – وأنا من المسلمين .

وهو فى كل ذلك يحاول أن يفلت من الموت ؛ فأعلن إيمانه ، وشهد بأن الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، هو الإله الحق الواحد الأحد ، وأظهر إسلامه واستسلامه لهذا الدين ، ولهذا الطريق ، الذى حاربه بالأمس ، وادعى الألوهية ، وحرم على بنى إسرائيل العبادة فى دور العبادة . بيد أن هذه التوبة جاءت متأخرة ؛ لأنها جاءت بعد أن يئس من الحياة وشاهد الموت.

قال تعالى : مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

فالله تعالى يقبل توبة العبد مادام فى هذه الدنيا فإذا بلغت الروح الحلقوم ؛ فقد انتهت الحياة وأغلق باب التوبة ، قال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَـٰفِرُونَ . (غافر : ٨٤ ، ٨٥) .

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجة والترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [٦٢] . والغرغرة : حشرجة الموت .

٩١ - ءَالْـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .

أى : أتؤمن الآن ، فى وقت لا ينفع نفسًا إيمانها . وهو الوقت الذى تأكدت فيه من الموت ؛ فصار العمل اضطرارًا لا اختيار فيه . ويزيد من عظم التبعة ، أن فرعون قد أسرف فى المعصية والعدوان ، وعظم فساده فى الأرض .

قال أبو السعود : وهذه الآية ؛ لتشديد التوبيخ والتقريع ، على تأخير الإيمان إلى هذا الآن ؛ ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة إليه ، ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ، ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذرًا فى التأخير ؛ بل كان ذلك على طريقة الردّ والاستعصاء والإفساد . ا هـ .

لقد امتنع فرعون عن الإيمان ، وصدّ بنى إسرائيل ومنعهم عن الإيمان ؛ فضاعف الله عذابه .

قال تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ . (النحل : ٨٨).

٩٢ - فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً .

أى : نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ، ونجعلك طافيًا ؛ ليراك بنو إسرائيل .

بِبَدَنِكَ . أى : نلقى ببدنك على شاطئ البحر ، خاليًا من الروح .

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً . لتكون عظة وعبرة بأن هذه نهاية الظلم والعدوان ، وأن الإنسان مهما ادّعى العظمة أو الألوهية ، فإنه لا يمكن أن يفرّ من الموت ، واسم فرعون : منفتاح بن رمسيس ١٢٢٥ ق. م ، وجثته لا تزال موجودة فى متحف الآثار المصرية بالقاهرة .

قال المفسرون : إنما نجى الله بدن فرعون بعد الغرق ؛ لأن قوما اعتقدوا فيه الألوهية ، وزعموا : أن مثله لا يموت ، فأراد الله أن يشاهده الناس ، على ذلك الذل والمهانة ؛ ليتحققوا موته ، ويتخذوا العظة والعبرة.

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ .

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ. لا تتحرك قلوبهم للعظة والاعتبار ، والتأمل فى آيات الله ، الداعية إلى الإيمان ، وفيه تحريك لقلوب أهل مكة ومن على شاكلتهم ، إلى التأمل فى آيات الله ، وقريب من ذلك قوله تعالى :

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

ملاحظة : كان فرق البحر ونجاة موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه معجزة عظمى لسيدنا موسى عليه السلام ؛ لذا سُنّ صوم يوم عاشوراء الذى تم فيه هذا الحدث ؛ شكرًا لله تعالى .

وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة حول هذه الآيات ومنها ما رواه البخارى عن ابن عباس قال : (قدم النبى ﷺ المدينة ، واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبى ﷺ لأصحابه «أنتم أحق بموسى منهم ؛ فصوموه» [٦٤] .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المفردات :

بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق : أنزلناهم مكانا صالحًا آمنًا وأسكناهم فيه.

التفسير:

٩٣ - وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ... الآية .

فى أعقاب الحديث عن نجاة بنى إسرائيل ، وغرق فرعون وقومه ، تحدث القرآن عن جانب من النعم التى أنعمها الله على بنى إسرائيل فقال :

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .

أى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل منزلاً صالحًا مرضيًا وهو منزلهم سابقًا فى مصر، ولاحقًا فى فلسطين، وقد رزقهم الطمأنينة والأمن ، وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ . أى : اللذائذ المستطابة المباحة فيها ، وأنعمنا عليهم فيها بكثير من الخيرات من الثمار والغلال ، وصيود البر والبحر ، والمنّ والسلوى .

فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ .

أى : ظل هؤلاء يرفلون فى نعم الله عليهم ، فما اختلفوا إلاَّ من بعد ما جاءهم علم التوراة ومعرفة أحكامها ، وكتب الله تدعو الناس إلى التعاون والتآزر والتوادّ والتراحم لكنهم تفرقوا فى أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى ، فالجملة توبخهم على جعلهم العلم الذى كان من الواجب عليهم أن يستخدموه فى الحق والخير والوحدة والجماعة ، فاستخدموه فى التأويلات الباطلة وجعلوه وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الصراط المستقيم .

وللعلماء فى تحديد المراد ببنى إسرائيل فى هذه الآية قولان :

الأوّل : أنّهم اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام ، وعلى هذا يكون مبوّأ الصدق : مصر الشام ، والعلم الذى أدَّى إلى الاختلاف بينهم هو علم التوراة .

والقول الثانى : هم اليهود المعاصرون للنبى ﷺ ، وبه قال جمع عظيم من المفسرين ، وهم قبائل اليهود فى المدينة : (قريظة ، والنضير ، وبنو قينقاع) ، ومنزل الصدق ما بين المدينة ، والطيبات : ما فى تلك البلاد من التمور ، والمراد بالعلم : القرآن ، وكونه سبب الاختلاف ؛ أن اليهود اختلفوا فآمن قوم ، وبقى آخرون على كفرهم .

فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ .

أى : ما اختلف اليهود فى أمر محمد ﷺ ، إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته ، وتظاهر معجزاته .

وقد كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما بُعث وجاءهم ما عرفوا كفروا به .

والخلاصة : أنهم ما اختلفوا فى شىء من المسائل جهلا ؛ وإنما من بعد ما جاءهم العلم .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أى : إن ربك يفصل ويحكم بينهم يوم القيامة فى شأن ما اختلفوا فيه فيميز المحق من المبطل ، حيث ينجى الله المحقين ، ويعاقب المبطلين .

★ ★ ★

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

المفردات :

من الممترين : من الشاكّين .

التفسير :

٩٤- فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ... الآية .

قصَّ الله فى الآيات السابقة قصص بعض المرسلين مع أممهم ، وفى كل قصة كان النصر للمؤمنين والهلاك للجاحدين ؛ تلك سنة الله فيما سبق ، وستظل كذلك إلى يوم الدين ، ولا سبيل إلى الشك فى ذلك . وفى هذه الآيات ساق الله هذا المعنى بطريق التلطف فى الأسلوب ، فَسَاق الكلام إلى الرسول ﷺ والمراد: قومه ، فجاء على نحو قولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) .

وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ .. (الزُمر : ٦٥) . وقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (الأحزاب : ١) .

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ...

المعنى : فإن كنت أيها الرسول الكريم – على سبيل الفرض والتقدير – فى شك مما أنزلنا إليك ، من قصص المرسلين ، كقصّة نوح وموسى وغيرهما ؛ فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء ، كاليهود والنصارى ؛ فإنهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك حق لا يستطيعون إنكاره .

وقد جرت عادة العرب أن يُقدّروا الشك فى الشىء ؛ ليبنُوا عليه ما ينفى احتمال وقوعه ؛ فيقول أحدهم لابنه : إن كنت ابنى ؛ فكن شجاعا .

وجاء من هذا قول المسيح عليه السلام فى إجابة الله تعالى يوم القيامة ما ورد فى أواخر سورة المائدة : إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ . (المائدة: ١١٦) .

فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقله ، وإنما يفرض قوله فرضًا ؛ ليستدل عليه ، بأنّه لو قاله لعلمه الله تعالى منه ، أى : إن كنت قلته على سبيل الفرض والتقدير ؛ فقولى هذا لا يخفى عليك .

ومن هذا قول بعض العلماء فى محاورة تلاميذه : إذ كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة إلى متساويين . أى : إن كون الخمسة زوجًا يستلزم ذلك ، وهذا لا يدل على أن الخمسة زوج ، وهكذا ما فى الآية.

فهو يدل على انه لو حصل الشك ؛ لكان الواجب هو فعل كذا وكذا ، وليس فيها دليل على وقوعه .

قال ابن كثير : قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا أشك ولا أسأل » .

وقيل : خوطب رسول الله – ﷺ – والمراد : أمته ، ومعناه : فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليكم[٦٥] .

لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ .

والمعنى : أقسم ؛ لقد جاءك الحق الذى لا لبس فيه من ربك لا من غيره ؛ فلا تكونن من الشاكين المترددين ؛ بل كن من ذوى الإيمان الثابت بهذا الحق المبين .

٩٥– وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ .

أى : ولا تكونن أيها النبى ممن كذب بآيات الله ، الدالة على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل ؛ لهداية البشر ؛ فتكون ممن خسروا الدنيا والآخرة .

وهذا أيضا من باب التهييج والتثبيت ، وقطع الأطماع عنه عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ . (القصص: ٨٦) ، وفيه تعريض بالكفار الخاسرين الضالين .

جاء فى تفسير أبى السعود :

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَـٰتِ ٱللَّهِ .

من باب التهييج والإلهاب ، والمراد: إعلام أن التكذيب من القبح والمحذور ، بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يتصور إمكان صدوره عنه ، فكيف يمكن اتصافه به ، وفيه قطع لأطماع الكفرة ؛ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ. فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾

التفسير:

٩٦- إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ .

تأتى هذه الآية وما بعدها ؛ لبيان شدة إصرار الكافرين على الكفر والجحود والعصيان ، ولو جاءتهم كل آية كونية حسية ، أو علمية ، أو قرآنية ، مثل: آيات موسى عليه السلام .

والمعنى : إن هؤلاء الكفار قد أعرضوا عن الحق ، فثبتت عليهم كلمة الله ، أى : قضاؤه وحكمه بالعذاب، وهؤلاء لا يؤمنون أبدا ؛ لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وتصميمهم على الكفر ، وليس المعنى أن الله يمنعهم من الإيمان ، وإنما هم الذين اختاروا الكفر وكسبوه . وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة: ١٣) .

٩٧- وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ .

أى : إن هؤلاء الكفار الذين اختاروا الكفر وأصروا عليه ؛ لن يستجيبوا لدعوة الهدى .

وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ، واضحة المدلول ، مقبولة لدى العقول .

حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . حتى يشاهدوا عذاب الله كالخسف والزلازل ، والصواعق والغرق والهلاك ، وكل عذاب أليم مُوجع مطبق عليهم ، وحينئذ لا ينفع إيمانهم كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أشرف على

الغرق ، وكما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . (الأنعام: ١١١) .

★ ★ ★

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

المفردات :

فـــلـــولا : لولا : كلمة تفيد : الحث على الفعل بمعنى : هلاً .

قـــريـــة : اسم للمبانى المتصلة التى يسكنها جمع من الناس ، وقد جاء فى القرآن الكريم أن القرية والمدينة بمعنى واحد ؛ قال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ . ثم قال : وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ . وقيل: القرية : بلدة أصغر من المدينة – والمراد من القرية في الآية : أهلها .

التفسير:

٩٨–فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ ... الآية .

أى : هلا كان أهل كل قرية من قرى الرسل الذين أرسلوا إليهم ، آمنوا بعد دعوتهم وإقامة الحجة عليهم، وقبل نزول العذاب واستحالة الإيمان ؛ فنفعهم إيمانهم .

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ .

أى : لكن قوم يونس عليه السلام ، الذى بُعث فى أهل نينوى ، بأرض الموصل ، شمال العراق ، كانوا قد كفروا ، ثم لما رأوا أمارات العذاب ؛ تضرعوا إلى الله تعالى ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان ؛ فرحمهم الله تعالى ، وكشف عنهم العذاب . أى : العذاب الذى وعدهم يونس بنزوله ، وقبل إيمانهم ، ومتّعهم إلى أجلهم، وفى القصة تعريض بأهل مكة ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس .

وذهب الأستاذ عبد الكريم الخطيب : إلى أن المراد بالقرية هنا : مكة .

ومعنى الآية : « هلا أسرعت مكة إلى الإيمان بالنبى المبعوث منها وفيها ؛ فانتفعت بهذا الإيمان قبل غيرها ؛ لأنها أولى به ؛ إذْ كان مطلعه فى أفقها ، ولكن الواقع أنها لم تؤمن فحرمت هذا الخير – وذلك هو حال معظم الأقوام مع أنبيائهم ، إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ؛ فنجاهم الله من العذاب الذى أوشك أن يحل بهم .

قصة يونس

يونس بن متَّى ، ويقول أهل الكتاب يونس بن أمتاى ، وقد أرسله الله تعالى إلى نينوى من أرض الموصل ، فكذبوه فوعدهم بالعذاب بعد مدّة ، قيل : إلى أربعين يومًا ، وذهب عنهم مغاضبًا ، فلما فقدوه ؛ خافوا نزول العذاب ، ولما دنا الموعد غامت السماء غيمًا أسودًا ، ذا دخان شديد ؛ فهبط حتى غشى مدينتهم، فهابوا ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا صدقه ، فلبسوا المسوح ، وبرزوا إلى الفضاء بأنفسهم ، ونسائهم ، وصبيانهم ، ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدة وولدها ، فحن بعضها إلى بعض ، وعلت الأصوات والعجيج ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان ، وتضرعوا إلى الله تعالى ؛ فرحمهم وكشف عنهم ، وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة[٦٦] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم ، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده إلى صاحبه [٦٧] .

قال على رضى الله عنه : إن الحذر لا يردّ القدر ، وإن الدعاء ليرد القدر .

من تفسير الشوكانى :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ ... الآية .

فهلا قرية واحدة من هذه القرى التى أهلكناها ، آمنت إيمانًا معتدًا به ، وذلك بأن يكون خالصًا لله قبل معاينة عذابه ، ولم يؤخروه كما أخره فرعون .

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ . لكن قوم يونس ، لَمَّآ ءَامَنُوا۟ . إيمانا معتدًا به قبل معاينة العذاب .

كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ . وهو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس أنّه سينزل عليهم ولم يروه ، فرأوا علاماته دون عينه .

وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ . أى : بعد كشف العذاب عنهم[٦٨] .

★ ★ ★

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

التفسير:

٩٩- وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا... الآية .

كان النبى ﷺ حريصًا على هداية قومه ، وتبليغ دعوته ، وكان يتحسر كثيرًا ؛ لبعدهم عن طريق الهداية .

قال تعالى : فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف: ٦) .

وفى هذه الآية بيان لحقيقة إلهية كونية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، ومنحه العقل والاختيار والإرادة ، وجعل الجزاء فى الآخرة منوطًا بكسب الإنسان واختياره فى هذه الدنيا ؛ حتى يكون الجزاء من جنس العمل ، فقد خلق الله الناس مستعدين بفطرتهم للسير فى طريق الخير أو الشر ، والإنسان بإرادته واختياره وكسبه هو الذى يرجح أحد الاتجاهين. قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . (الشمس: ٧-١٠) .

وقال عز شأنه : إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٢، ٣) .

وقال سبحانه : أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ . (البلد: ٨-١٠) ؛ أى : بينا له الطريقين.

وخلاصة معنى الآية : ولو شاء ربك ألا يخلق الإنسان مستعدًا بفطرته للخير والشر ، والإيمان والكفر ، ومرجحا باختياره لأحد الأمور الممكنة على ما يقابله بإرادته ومشيئته ؛ لفعل ذلك ، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا ؛ يوازن باختياره بين الإيمان والكفر ؛ فيؤمن بعض ، ويكفر آخرون .

أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ .أى : أفأنت مطلوب منك أن تكره النَّاس على دينك حتى يصيروا مؤمنين به ؟ كلا ، فأشفق على نفسك ؛ فما عليك إلا البلاغ ، وحسبك أداء واجبك ، وهو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

قال تعالى : إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ . (فاطر: ٢٣) .

وقال سبحانه : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . (البقرة: ٢٧٢) .

وقال: إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ ٱلْبَلَٰغُ . (الشورى : ٤٨) .

وقال : وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ . (ق : ٤٥) .

وقال سبحانه : لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ . (البقرة: ٢٥٦) .

★ ★ ★

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات :

بـإذن الله : بإرادة الله .

الرجس : يطلق على القذر حسيًا كان أو معنويًا ، ومن المعنوى : الذنب ، والكفر ، وكل يصح أن يراد هنا وقد يطلق على العذاب والشك وغير ذلك .

التفسير :

١٠٠– وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... الآية .

تأتى هذه الآية ؛ تأكيدًا للمعنى الوارد فى الآية السابقة ؛ فقد خلق الإنسان وييسر له أسباب الهداية ومن سنن الله تعالى أنه يسر الإيمان والهداية ، لمن أخذ فى الأسباب واستخدم عقله وفطرته ، وتابع ذلك بالتأمل والنظر والتفكر والتأمل ، قال تعالى : إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلاً سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . (آل عمران ١٩٠، ١٩١) .

أما من أعرض عن الهدى ، ولم يستخدم عقله وفكره ، ولم يتأمل فى هذا الكون ونظامه وبديع صنعته ؛ فإن الله يسلب عنه الهدى والتوفيق ، ويسحب منه المعونة والتيسير إلى الهداية ؛ لأنه ليس أهلاً لها.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ . فإيمان أى نفس متوقف على هداية الله ومشيئته ومعونته .

قال تعالى : قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ . (آل عمران : ٧٣) .

وقال سبحانه : وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . (الإنسان : ٣٠) .

بيد أن هذه المشيئة عادلة ، فلا تسلب الهدى إلا عن أعمى عن الحق ، أصمَّ عن سماع صوت الإيمان والخير ، قال تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ . (الأعراف : ١٧٩) .

وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

لقد يسر الله الإيمان لمن اختار الهداية والرشاد ؛ فيسر الله الإيمان بإذن الله – أما من غالب صوت الحق ، وأنكر دعوة الخير ؛ فإن الله يجعل الخذلان والخزى على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون إذْ هم لخطل رأيهم يرجحون الكفر على الإيمان ، والفجور على التقوى .

★ ★ ★

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾

المفردات :

انظروا : تفكروا واعتبروا

النذر : جمع نذير وهو الذى ينبه الناس إلى الخطر .

التفسير :

١٠١ – قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... الآية .

أى : قل يا محمد لكل من يأتى منه النظر واستخدام العقل والفكر : تأملوا فى خلق الله ، فهذه السماوات وما فيها من شموس وأفلاك ومجرات وأقمار وأمطار وهواء وسحاب ، وهذه الأرض وما فيها من جبال ونبات وثمار وزروع وليل ونهار ؛ تأملوا فى هذا الكون البديع ، والنظام المتسق المتكامل ، والدقة

البالغة فى تسخير هذا الكون قال تعالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . (الذاريات: ٢٠-٢٢) .

وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ .

تغنى : تنفع وتفيد ، والنُّذُر : واحدها : نذير ؛ أى : إن الآيات الكونية على ظهور دلالتها ، والرسل على بلاغة حجتها ، لا تجدى نفعًا لقوم لا يتوقع إيمانهم ، لقد أمعنوا فى الضلال ، وأصروا على عدم الإيمان ، فلن تلين قلوبهم لسماع الحق ، ولن تهتزّ أفئدتهم لرؤية جمال الخلق، قال تعالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

★ ★ ★

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

المفردات :

ينتظرون : يترقبون ويتوقعون .

خلوا : مضوا .

التفسير :

١٠٢ - فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ... الآية .

الاستفهام هنا للتهكم والتقريع ، والمراد : إن هؤلاء الجاحدين المكذبين ماذا يتوقعون جزاء كفرهم وجحودهم ، إنهم أشبه بمجرم ينتظر مصيره ، والحكم عليه بالعقوبة التى يستحقها .

لقد قصصنا عليك ما نزل بقوم نوح ومن بعدهم من المكذبين ؛ فهل ينتظر هؤلاء الكفار إلاّ عذابًا مثل عذاب الأمم السابقة عليهم ، قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء: ١٧) .

قال القرطبى : الأيام هنا بمعنى : الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى : بوقائعهم .

قال قتادة: يعنى : وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، والعرب تسمى العذاب : أيامًا ، والنعيم : أيامًا ، كقوله تعالى : وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللَّهِ . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام . اهـ .

قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ .

أى : قل لهم يا محمد : فانتظروا وترقبوا آثار إصراركم على الكفر ، فإنى مترقب معكم ما سيصيبكم من عذاب ؛ إن ظللتم مصرِّين على الكفر والإنكار .

١٠٣– ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... الآية .

اقتضت سنة الله تعالى إرسال الرسل ، وإنزال الكتب وإلزام الحجة قال تعالى : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) . وبعد أن يقوم الرسل بالبلاغ والإنذار ، ويؤمن بهم من يؤمن ، ويكفر بهم من يكفر ، تكون العاقبة للمؤمنين، والهلاك للكافرين ، لقد أفادت الآية السابقة : أن المكذبين ينتظرون عذابًا مثل : عذاب قوم نوح ومن بعدهم ، وأفادت هذه الآية : أنه بعد عذاب المكذّبين ، ينجى الله المرسلين ، وينجى معهم من آمن بهم ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : كما أنجى الله الأنبياء والمؤمنين مما أصاب أقوامهم ، كذلك ينجى المؤمنين معك أيها الرسول ، ويهلك المصرين على تكذيبك ، وعدًا حقًّا علينا لا نخلفه ؛ كما قال تعالى : سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً . (الإسراء : ٧٧) ، وقال سبحانه : ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ. (الأنبياء : ٩)

★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

المفردات :

يتوفاكم : يستوفى آجالكم ؛ بقبض أرواحكم .

وجهك : المراد من الوجه : الذات ، أو القلب ، أو القصد .

حنيفا : منصرفًا عن الباطل ، مقبلاً على الحق .

التفسير :

١٠٤ – قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... الآية .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات الكريمة على طريقة القرآن فى تنويع الخطاب وتصريف القول ؛ ليأخذ على الجاحدين كل طريق ، وليأخذ بأيديهم إلى التفكر والتأمل فى شأن الأصنام التى يعبدونها ، والدين الحق الذى يدعوهم إليه محمد ﷺ .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ .

فى هذه الآية شرط ، وهو إن كنتم فى شك من دينى ، ولو سار الكلام على إلف البشر لكان جوابه ، فهذا شأنكم ، أو فلا تدخلوا فى هذا الدين ؛ لكن الجواب الذى جاء به القرآن هو الجواب الذى لا يجيء إلا من الحكيم العليم .

وفى هذا الجواب تنكشف أمور :

أولا : ثبات النبى على هذا الدين ، وأن شكوكهم لا تثير فيه أدنى ريب ، فهو على يقين ثابت بصدق هذا الدين.

ثانيًا : أن النبى ﷺ لن يتحول عن هذا الدين ، إلى دين المشركين ، ولن يعبد تلك الآلهة التى يعبدونها من دون الله

ثالثًا : أن هذه الآلهة لا تملك نفعًا ولا ضرًا ، وأن عبادتها ضلال .

رابعًا : أن رسول الله ﷺ خلّى نفسه عن الشرك أولاً ، ثم اتجه إلى عبادة الله وحده ثانيًا ، على طريقة قولهم: التخلية قبل التحلية ، أى : التخلّى عن الشرك أولاً ، ثم التحلّى بالإيمان ثانيًا .

قال الشوكانى فى تفسير الآية :

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى .

وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولم تعلموا بحقيقته ؛ فاعلموا أنى برىء من أديانكم التى أنتم عليها.

فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . فى حال من الأحوال . وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ . فيفعل ما يفعل من العذاب الشديد ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وأخلص له الدين.

من تفسير أبى السعود :

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى .

أى : فاعلموا أنه تخصيص العبادة بالله ، ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلاً ، أو إن كنتم فى شك فى صحة دينى وسداده ؛ فاعلموا أن خلاصته : إخلاص العبادة لمن بيده الإيجاد والإعلام ، دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام ؛ فاعرضوها على عقولكم ، وأجيلوا فيها أفكاركم ، وانظروا فيها بعين الإنصاف ؛ لتعلموا أن هذا الدين حق لا ريب فيه ، أو إن كنتم فى شك من ثباتى على الدين ؛ فاعلموا أنى لا أتركه أبدًا .

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . بما دل عليه العقل ونطق به الوحى . وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ، ليس بطريق العقل الصرف ؛ بل بالإمداد السماوى والتوفيق الإلهى[٦٦] .

١٠٥- وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... الآية .

هذه الآية معطوفة على الفقرة الأخيرة فى الآية السابقة وهى : وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . أى : قيل لى : كن من المؤمنين ، وأقم وجهك ولا تشرك .

أى : وكما أمرنى الله تعالى بالإيمان به ، أمرنى سبحانه بالإخلاص فى الاتجاه إلى دينه بقلبى وجوارحى ، وأقوالى وأفعالى ، بحيث لا يصرفنى عنه صارف ، وأمرنى ألا أشرك فى عبادته أحدًا .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ . أمره بالاستقامة فى الدين والثبات فيه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال، وخصَّ الوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء . حَنِيفًا . مائلاً عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام . ا هـ .

وقال الآلوسى :

إقامة الوجه للدين : كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شىء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً ، إذ لو التفت ؛ بطلت المقابلة ، فلذا كنَّى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه : الذّات . أى : اصرف ذاتك وكليتك للدِّين . ا هـ .

وقد ورد فى السنّة المطهرة : أن النبى ﷺ كان إذا افتتح الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ؛ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين »[٧٠] .

١٠٦– وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ...

تستأصل هذه الآيات شأفة الشرك فى القلوب ؛ فقد أمرت الآيات السابقة بالإيمان ، وإخلاص الوجه لله ، والبعد عن الشرك بالكلية ، أى : لا يقصد الإنسان بعمله إلا وجه الله ، وفى الآية الكريمة : وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَالاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ . ترسيخ لدعوة التوحيد ، وإخلاص الوجه لله ؛ فهو سبحانه النافع الضار ، الخالق المبدئ المعيد ، الفعَّال لما يريد ؛ فالواجب أن نتوجَّه إليه وحده بالعبادة والسؤال والطلب ، أما الأصنام والأوثان ، وزيارة القبور والتوسل بهم ، والطلب منهم ، فهو انحراف عن الجادة ، وخروج عن النهج القويم .

لقد أمرنا الله ، بإخلاص العبادة ، والبعد عن الشرك فقال تعالى : وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . (الأنعام: ١٤).

وأخرج الإمام أحمد والطبرانى : أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس ، اتقوا هذا الشرك ؛ فإنه أخفى من دبيب النمل » .

فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

الخطاب للرسول ﷺ ، وهو موجه للمسلمين عامة فى جميع العصور ، والمعنى : إن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرّك ؛ فإنك حينئذ تكون من الظالمين لأنفسهم بالشرك ، والتوجه بالدعاء وهو مخ العبادة

إلى غير الله ، وبهذا حرر الإسلام القلوب والنفوس ، من أن تذلّ لصنم أو بشر أو منصب أو جاه ، وركّز فى قرارة النفوس ، اليقين الجازم بأن النافع والضار هو الله تعالى وحده .

من هدى السنة النبوية

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال : كنت رديف النبى ﷺ على بغلته ، فقال لى: « يا غلام ، هل أعلمك كلمات ينفعك الله بها » ، قلت : بلى يا رسول الله ، عملنى ، فقال : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضرُّوك بشىء ، لم يضرُّوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . رُفعت الأقلام وجفت الصحف»[٧١] . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح.

★ ★ ★

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

المفردات :

يمسسك : يصبك .

التفسير :

١٠٧– وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ... الآية .

أى : وإن تتعرض لضرر يمسُّ جسمك أو مالك ؛ من مرض أو فقر أو ألم ، فلا كاشف أو لا رافع له إلا الله.

وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ .

وإن يردك أو يخصك الله بخير منه فى دينك أو دنياك ، من نصر ورخاء ونعمة وعافية ، فلا دافع لفضله إلا الله ؛ إذ لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا مانع لفضله ، وهو القادر على كل شىء ؛ يمنح ويمنع ويعطى ويحرم ، يفعل كل ذلك بحكمة وعلم .

« وكل خير من الله تعالى فهو تفضل منه سبحانه ؛ لأن نِعمه التى تنزل على عباده ؛ تنزل عليهم بلا استحقاق منهم عليه ، بل هو المبتدئ لهم بالنعم دون استحقاق ، ومن ذلك: ابتداؤه بخلقهم ، وإحسان صُوَرهم، وتمكينهم فى الأرض ، وكل ما أنعم به عليهم ، ومنه: الهداية ، ومنه: النبوَّة ، التى اختُص بها محمد ﷺ ، فهى من فضل الله لا يقدر أحد أن يردَّها . ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ . أى : بفضله ، ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ . بمحض اختيار المولى سبحانه وتعالى»[٧٢] .

وفى كتاب الجوهرة : وهو منظومة فنية فى علم التوحيد :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى فى الخير أعلى عقبة

بل ذاك فضل الله يؤتيه من يشاء جل الله واهب المنن

فإذا تفضل الله على محمد ﷺ بالنبوة والرسالة ؛ فليس من حق أحد أن يعترض عليه ؛ لأن العطاء منة وتفضل من الله وحده ، قال تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ . (النساء: ٥٤) ، وقال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ . (البقرة: ٢٤٧) ، وقال سبحانه : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (آل عمران: ٢٦) .

فالله صاحب الفضل ، وهو صاحب التصرف فى هذا الفضل ، ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ، والله تعالى كثير الصفح والعفو وهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، ومن جملة ما يغفره : تقصير عباده عن إحصاء نعمه تعالى ، وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب .

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ . كثير المغفرة والرحمة .

والله تعالى له حكمة سامية فى إصابة بعض الناس بالضرّ والبلاء ، فقد يكون ذلك اختبارًا لهم وامتحانًا لصبرهم وثباتهم ، قال تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ . (الأنبياء : ٣٥) . وقد يكون البلاء لرفع المنزلة ، أو تكفيرا لذنب .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «ما يصيب المسلم من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفّر الله بها من خطاياه»[٧٣] .

وكما يكون الضرّ ابتلاء من الله لعباده لإظهار مدى إيمانهم وصبرهم ، يكون الخير كذلك لإظهار مدى شكرهم لله وإقبالهم عليه ، قال تعالى : وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً . (الأنبياء : ٣٥). وقد يكون الخير تكريمًا من الله لعباده الصالحين ، وتعجيلاً بنصيب من الثواب فى الدنيا ، قال تعالى : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ. (النحل: ٣٠) ، وكما قال سبحانه : وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا. (الطلاق: ٤)

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

المفردات :

بوكيل : الوكيل : من يُوكل إليه الأمر .

التفسير :

١٠٨ - قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ... الآية .

تأتى هاتان الآيتان فى ختام سورة يونس . وهى سورة عنيت بتقديم أدلة الألوهية ، وقصّت جانبًا من حياة الرسل ودعوتهم ، وسلكت طرقاً متعددة فى دعوة الناس إلى الهداية والإيمان . وفى ختام السورة نجد هذا النداء إلى الناس جميعًا ، من سمع منهم هذا النداء ، ومن يتأتّى له سماعه إلى يوم القيامة : إن الحق والهدى والقرآن والسنة ، قد وصلتكم من الله تعالى ، متمثلة فى رسالة محمد ﷺ .

فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ . من اختار طريق الإيمان والهداية والمتابعة لهذا الدين ؛ فإنما يهتدى لمنفعة نفسه ؛ حيث سما بها من الضلالة إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإيمان .

وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يُضِلُّ عَلَيْهَا . ومن آثر الضلالة على الهدى ، والكفر على الإيمان ؛ فإنما يقع وبال ضلاله على نفسه دون غيرها .

وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . أى : بحفيظ يحفظ أموركم ، ويتولى إجباركم على اختيار الإيمان ؛ فأنا عبد الله ورسوله ، مهمتى البلاغ فقط وقد بلَّغت ، أمَّا الهداية والاختيار ، فهى مهمتكم ثم توفيق الله لكم ، وفى معنى ذلك يقول الله تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية: ٢١ ، ٢٢) .

١٠٩- وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ .

أى : دُم أيها الرسول على اتباع وحى السماء ، واصبر وصابر واصطبر على تبليغ الرسالة ، وتحمل أذى المشركين ، حتى يقضى الله فيهم قضاءه وينفذ فيهم مشيئته وحكمه .

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ . وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين ؛ فهو لا يحكم إلا بالحق . وقد امتثل الرسول الأمين لأمر الله ، فصبر وصابر وجاهد فى سبيل الله ؛ حتى حكم الله تعالى له بالنصر والغلبة ، وجاءه نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا والحمد لله رب العالمين !!!




تفسير سورة هود

دروس من سـورة هود

تمهيد عن الوحدة الموضوعية للسورة :

هود عليه السلام : هو أول رسول إلى قوم عاد ، وعاد : أول أمة من نسل سام بن نوح[٧٤] ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باسمه خمس مرات فى هذه السورة التى سميت به .

وسورة هود : من السورة المكية ، شأنها كسائر القرآن المكى : هو تقرير أصول الدين ، وإقامة الأدلة عليها ، وزد الشبه التى كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها ، والحديث عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وهى نفس الموضوعات التى تحدثت عنها السورة السابقة على سورة يونس .

عناصر الدعوة الإلهية

والمتدبر لسورة هود ؛ يرى أنها قررت عناصر الدعوة الإلهية – وهى : التوحيد ، والرسالة ، والبعث – عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للإيمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت لذلك فى أربع وعشرين آية يختم بها الربع الأول منها ، ثم أخذت سورة هود تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ؛ بيانًا لوحدة الدعوة الإلهية ، وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام ، وإنذارًا للمكذبين .

ويستغرق قصص هؤلاء الرسل الكرام معظم سورة هود ؛ فتذكر : قصة نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ولوط ، وشعيب ، وموسى . وطريقة العرض هنا تختلف عنها فى سورة أخرى ، والحلقات التى تعرض من كل قصة تختلف كذلك ؛ لاختلاف السياق ؛ فيمتنع التكرار فيما يخيل للقارئ العابر للقرآن الكريم أنه تكرار .

هذا القصص الذى يستغرق معظم سورة هود : مرتبط كل الارتباط بما قبله وما بعده من السورة ، متناسق مع السياق حتى فى التعبير اللفظى أحيانًا ، فالفقة ، والمشهد ، والعظة ، والتعقيب ، تتناسق كلها تناسقًا عجيبًا ، وتكشف عن بعض وظيفة القصة فى القرآن الكريم .

تبدأ سورة هود بقوله تعالى :

الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ . (هود: ١، ٢) .

وهذا المطلع يقرر أن المهمة الأولى للنبى هى : الدعوة إلى توحيد الله ، وينذر بالعذاب من يكذب بدعوة الله، ويبشر بالنعيم من آمن بها . وقصص السورة كله يساق ؛ لتوكيد هذين المعنيين ، فيرد فى ألفاظ تكاد تكون واحدة يقولها كل رسول ، وكأنما يقولها ويمضى ، حتى يأتى أخوه فيقولها كذلك ويمضى ، والمكذبون هم المكذبون .

تبدأ قصة نوح بقوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . (هود : ٢٥ ، ٢٦) .

ثم يقول هود : يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . (هود : ٥٠) .

ويقول صالح : يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . (هود : ٦١) .

ويقول شعيب : يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . (هود : ٨٤) .

ونهايات القصص كلها هلاك المكذبين وعقوبة المعتدين ، ووعيد لجميع المتكبرين عن الإيمان بالحق، والانقياد للعقيدة الصحيحة ، قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود: ١٠٢).

وتتضمن سورة هود إثبات الوحى ، وتنزيل القرآن من عند الله وتثبيت الرسول ﷺ وتقوية يقينه مع من آمن به من المؤمنين ؛ حتى لا يضيق صدرهم بالمكذبين والمستهزئين .

ثم يختم القصص فى سورة هود بقوله تعالى :

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . (هود: ١٢٠).

وهكذا نجد أن القصة فى القرآن الكريم تؤدى دورًا متناسقًا مع موضوع السورة وسياقها ، وتعرض بالطريقة وبالعبارة اللتين تحققان هذا التناسق الجميل الدقيق .

١ - العقيدة والإيمان بالله

يتضمن الدرس الأول من السورة : دعوة المشركين إلى توحيد الله واستغفاره والتوبة مما هم فيه ، ويبشرهم إن فاءوا إلى هذا بمتاع حسن وجزاء طيب ، وينذر المعرضين عن الدعوة بعذاب كبير ، ويقرر عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، والرجعة إلى الله لتحقيق البشرى والإنذار ، ثم يعرض مشهدًا لهم وهم يحاولون

التخفى عن مواجهة الرسول وهو يجبههم بالبيان ، يعقب عليه بعلم الله الشامل اللطيف الذى يتابعهم وهم أخفى ما يكونون عن العيون ، ويتصل بهذا المعنى علم الله بكل دابة فى الأرض حيث تكون .. كما يتصل به الحديث عن خلق السماوات والأرض .

ثم يعرض صورًا من النفس البشرية القلقة المتعجلة فى السراء والضراء . ومع ذلك فهم يستعجلون العذاب إذا ما أخر عنهم إلى حين .

ثم ينتقل إلى التحدى بالقرآن الذى يقولون : إنه مفترى من دون الله ، وتهديد من لا يؤمنون بالآخرة، ومن يفترون على الله الكذب ، ويعرض مشهدًا من مشاهد القيامة يتجلى فيه مصداق هذا الوعيد ومصداق البشرى للمؤمنين .

ومن المعالم البارزة فى هذا الدرس ما يأتى :

١- تقرير عقيدة التوحيد ، وسوق الأدلة على قدرة الله الذى أبدع الكون على غير مثال سابق .

وقد تتساءل عن سر عناية القرآن بعقيدة التوحيد وتكرير الدعوة إليها فى كثير من آياته :

والجواب : أنه ما كان لدين أن يقوم فى الأرض وأن يقيم نظامًا للبشر قبل أن يقرر هذه الدعوة ؛ فالتوحيد هو مفترق الطريق بين الفوضى والنظام ، وبين الخرافة والإيمان وبين الهوى واليقين .

والاعتراف بوجود الله ضرورى فى الفطرة السليمة ؛ لأن الله خلق الإنسان بيده ، وأودعه نفخة مقدسة من روحه ؛ ولذلك تتجه الفطرة إلى الله خالقها وبارئها ؛ لتروى ظمأها إليه ، ولتلبى نداء الشوق الكامن إليه فى أعماقها .

٢- عناية الآيات بأن تلفت نظر الإنسان إلى ما فى الكون من آيات القدرة ، ودلائل الإعجاز ، وعجائب الصنع ، ومواطن الاعتبار فهذا الكون الفسيح الشاسع الأرجاء وما فيه من قوى منظورة لنا ، وغير منظورة ، وما يخضع له من نظام لا يحتمل الخلل ، ودقة لا تسمح بالعبث ؛ دليل على أن هذا الكون لم يوجد عن طريق صدفة عمياء ، بل إنه وجد ؛ لأن خالقًا حكيمًا هو الذى أوجده .

٣- إثبات علم الله بكل صغيرة وكبيرة فى هذا الكون ، وتقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا العالم الفسيح ، وتيسير الأسباب للسعى والحركة ، وعمارة الكون .

ومن الآيات المشهورة بين الناس قوله تعالى : وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ . (هود: ٦) .

وهى تصور علم الله الشامل المحيط بكل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطير ؛ فما من دابة من هذه الدواب إلا وعند الله علمها ، وعلى الله رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن ، ومن أين تجيء وأين تذهب ، وكل فرد من أفرادها مقيد فى هذا العلم الدقيق . إنها صورة متصلة للعلم الإلهى فى حالة تعلقه بالمخلوقات يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنسانى فلا يطيق . فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا !!

٢ - إعجاز القرآن

يلمح القارئ لهذه السورة قوة أسلوبها وترابط أفكارها ، وتوالى حملاتها على الكفار حتى كأنها جيش كامل مشتمل على عديد من الكتائب والفصائل والجنود .

إنها دعت فى الدرس السابق إلى التوحيد ولفت الأنظار إلى قدرة الله البالغة وعلمه المحيط بكل شيء.

وهى هنا تسوق دليلاً آخر على صدق عقيدة التوحيد وصدق رسالة محمد ﷺ ، هذا الدليل هو إعجاز هذا القرآن وروعته وقوته .

ويتجلى هذا الإعجاز فيما يلى :

١- إخباره عن الأمم الماضية التى لم يعاصرها محمد ﷺ ، ولم يعرف تاريخها ، ولم يقرأ عنها .

٢- اشتماله على أصول التشريع ، وسياسة الخلق ، وقواعد الحكم ، وآداب المعاملة ، ونظام العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة .

٣- إخباره عن أنباء لاحقة تأكد صدقها ، وتحقق وقوعها .

لقد ادعى كفار مكة : أن محمدًا ﷺ قد اختلق القرآن من عنده ، ولم ينزل عليه من السماء ؛ فتحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات . أى : ليختلقوا كما اختلق محمد ﷺ فهم عرب مثله ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، والقرآن مؤلف من حروف وكلمات وجمل يعرفونها ويؤلفون من مثلها كلامهم ، فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه ليس من صنع بشر وليس من افتراء محمد ﷺ ؛ ولكنه كلام الله العليم الخبير .

وقد سمح لهم القرآن أن يستعينوا بمن شاءوا من الشركاء والفصحاء والبلغاء والشعراء والإنس والجن ؛ ليشاركوهم فى تأليف هذه السور ، قال تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . (هود : ١٣).

وقد سبق أن تحداهم القرآن بسورة واحدة فى سورة يونس ، فلماذا تحداهم بعد ذلك بعشر سور .

قال المفسرون القدامى : إن التحدى كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور .

وحقيقة أن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور ؛ فقد كانت الآية تنزل فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة فى النزول إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبت هذا الترتيب ، وليس فى أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمى فى مثل هذا لا يجوز .

وقد حاول صاحب تفسير المنار أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة ، فأجهد نفسه طويلاً ليقول : «إن المقصود بالتحدى هنا هو القصص القرآنى ؛ وأنه بالاستقراء ؛ يظهر أن السور التى كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرا فتحداهم بعشر سور [٧٥] وهو احتمال وجيه .

ويرى بعض المفسرين المحدثين : أن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول . فيقول مرة: ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور . دون ترتيب زمنى ؛ لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شيء من هذا القرآن . كله ، أو بعضه ، أو سورة منه على السواء فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره ، والعجز كان عن هذا النوع ، لا عن المقدار ؛ وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة ، ولا يلزم ترتيب ؛ إنما هو مقتضى الحالة التى يكون عليها المخاطبون ونوع ما يقولون عن هذا القرآن فى هذه الحالة. فهو الذى يجعل من المناسب أن يقول : سورة ، أو عشر سور ، أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التى لم يذكرها لنا القرآن .

٣- القصص فى سورة هود

القصص فى هذه السورة هو قوامها ؛ إذ عدد آياتها (١٢٣) مائة وثلاث وعشرون آية ، يشتمل قصص الأنبياء منها على (٨٩) تسع وثمانين آية .

لكن القصص لم يجئ فيها مستقلا إنما جاء مصداقا للحقائق الكبرى التى جاءت السورة ؛ لتقريرها، وهى : التوحيد ، والبعث ، والجزاء .

وقد جال السياق جولات متعددة حول هذه الحقائق : جال فى ملكوت السماوات والأرض ، وفى جنبات النفس ، وفى ساحة الحشر ، ثم أخذ يجول فى جنبات الأرض، وأطوار التاريخ مع قصص الماضين .

والقصص هنا مفصل بعض الشيء ؛ لأنه يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التى وردت فى مطلع السورة والتى يجيء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذبون هم المكذبون وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ . ويتبع القصص فى هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم فى الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى، ويشير إلى الخط التاريخى ؛ لأنه يذكر التالين بمصير السالفين .

وليس من قصدنا أن نذكر قصص هؤلاء الأنبياء الكرام ، فذلك مالا يتسع له المجال ، ولكن واجبنا نحو سورة هود ؛ يحتم علينا أن نذكر لمحات من سيرة هؤلاء الرسل .

قصة نوح

لقد ألمحت سورة يونس إلى قصة نوح فذكرت الحلقة الأخيرة منها ، وهى غرق الكافرين ونجاة المؤمنين.

ولكن سورة هود تعرضت لقصة نوح بتفصيل أكثر خلال أربع وعشرين آية من الآية ٢٥ إلى الآية ٤٩.

تناولت دعوة نوح إلى الله ، وجداله مع قومه ، وصنعه السفينة ، وتعرضه لسخرية قومه ، ثم فوران التنور ، واكتساح الطوفان ، وركوب السفينة تسير بأمر الله وقدرته : بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ . (هود: ٤٢) .

ثم تهدأ العاصفة ، وتبلع الأرض ماءها ، وتمسك السماء عن المطر ، وتعود الحياة سيرتها ؛ فيناجى نوح ربه بعد غرق ولده قائلاً :

رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى .

أى : وقد وعدتنى بنجاة أهلى فيجيبه الله : إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ . (هود: ٤٦) .

والمعنى: إنه عمل عملا غير صالح ، فهو من صلب نوح وذريته إلا أنه منقطع الصلة به فى نسب الإيمان ، وصلة العمل الصالح . وهنا يتنبه نوح إلى حقيقة العدل الإلهى ويرى أن عقاب الله عام لكل الكافرين ، وأن نعيمه عام لجميع المؤمنين ؛ فليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صلة ، فالخلق كلهم عباد الله يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ . (الحجرات: ١٣) .

ويكون التعقيب على قصة نوح معبرًا عن أهداف القصص القرآنى مبشرًا بالنجاة والنصر للمؤمنين ، منذرًا بالهلاك والعذاب للكافرين . قال تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ . (هود: ٤٩) .

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآنى فى هذه السورة ما يأتى :

١- حقيقة الوحى التى ينكرها المشركون ؛ فهذا القصص غيب من الغيب ما كان يعلمه النبى ﷺ ، وما كان معلومًا لقومه ، ولا متداولاً فى محيطه ؛ إنما هو الوحى من لدن حكيم خبير .

٢- وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبى البشر الثانى فهى هى ، والتعبير عنها يكاد يكون واحدًا ، مشتملا على الدعوة إلى الإيمان بالله والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن الرذائل والمنكرات .

٣- وحقيقة السنن الجارية التى تتخلف ولا تحيد وٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ؛ فهم الناجون وهم المستخلفون .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

قصـة هـود

تناول الدرس السابق قصة نوح عليه السلام ، ونجاته ، ومن معه فى الفلك ، ثم هبوطه على الأرض مستحقا لبركات الله عليه وعلى المؤمنين من ذريته ، أما المكذبون من ذريته فلهم عذاب أليم ، وقد دارت عجلة الزمن ، ومضت خطوات التاريخ وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا فى البلاد ، ومن بعدهم ثمود ، ممن حقت عليهم كلمة الله .

وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . (هود: ٤٨) .

فأما عاد : فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف ، والحقف : كثيب الرمل المائل ، فى جنوب الجزيرة العربية . وأما ثمود : فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر - بين تبوك والمدينة - وبلغت كلٌ منهما فى زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ؛ بما عتوا عن أمر الله واختاروا الوثنية على التوحيد وكذبوا الرسل شر تكذيب ، وفى قصتهم هنا مصداق ما فى مطلع السورة من بشارة للمؤمنين وإنذار للكافرين .

وقد ذكرت قصة هود فى سورة الأعراف من الآية ٦٥ - ٧٢ ، وفى سورة الشعراء من الآية ١٢٣- ١٤٠، ثم ذكرت هنا فى سورة هود من الآية ٥٠ إلى الآية ٦٠ .

وقد نتساءل : لماذا سميت هذه السورة بسورة هود مع أنها اشتملت على عدد كبير من قصص الأنبياء منهم : نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام .

والجواب : أن قوم هود قد حباهم الله نعمًا وافرة وخيرات جليلة وأرسل السماء عليهم بالمطر؛ فزرعوا الأرض ، وأنشئوا البساتين ، وشادوا القصور ، ومنحهم الله فوق ذلك بسطة فى أجسامهم وقوة فى أبدانهم . وكان الواجب عليهم أن يفكروا بعقولهم ، وأن يشكروا الله على هذه النعم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اتخذوا أصنامًا يعبدونها من دون الله ، ثم عثوا فى الأرض فسادًا وظلمًا وعدوانًا ، ولما جاءهم هود يدعوهم إلى الله ويأمرهم بتقواه وطاعته ويحذرهم من البغى والعدوان لم يصيخوا لدعوته ولم يؤمنوا برسالته .

وإذا كانت السورة تسمى بأغرب شىء فيها ، فإن الغرابة فى قصة هود هى أن قومه عاد كانوا أكثر فضلاً ونعمة ، ولكنهم قابلوا هذه النعمة بالجحود والكنود .

وتذكر الآيات معارضتهم لهود وإنكارهم عليه ، واعتقادهم أن آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ؛ فيتبرأ هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همتهم فى أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وأنه سوف لا يعبأ بهم ولا بجمعهم ، قال هود : إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ . (هود: ٥٦) .

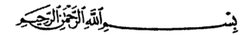
وهى صورة محسوسة للقوة الإلهية ، فالناصية : أعلى الجبهة والله تعالى وحده صاحب القهر والغلبة والتصريف فى كل ناصية ، وهى صور حسية تناسب الموقف وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم حين استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ . (فصلت: ١٥) .

وتذكر الآيات هنا خاتمة أمر هود مع قومه على حسب سنة الله فى نصرة أوليائه وخزى أعدائه . قال تعالى : وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . (هود ٥٨-٦٠) .

وتستمر سورة هود فتعرض قصة صالح مع قومه ، ودعوته لهم إلى دين الله ، وتودده إليهم بقوله: يَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً .

وكانت ناقة ضخمة تشرب من الماء فى يوم وتتركه فلا تذوقه فى اليوم الآخر ، ولكنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ؛ فنجى الله صالحًا ومن معه من المؤمنين ، وأرسل صيحة عاتية أهلكت الكافرين فصاروا جثثًا هامدة ، وأصبحت ديارهم خاوية خالية ، أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ . (هود : ٦٨) .

★ ★ ★



﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ① أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ② ﴾

المفردات :

أحكمت آياته : نظمت آياته نظمًا محكمًا لا خلل فيها ولا تناقض ولا اضطراب .

فصلت : ذكرت فيها الأمور التى يحتاج إليها العباد فى عقائدهم وسلوكهم ومعادهم ومعاشهم مفصلة مبينة .

من لدن حكيم : من عند إلـه مبدع للأمور على خير وجه .

خبير : عليم بما كان ويكون ، ظاهرًا أو خفيًا .

نذير : محذر لعباد الله من سوء عاقبة الكفر والعصيان .

بشير : مخبر بما يسر الصالحين من ثواب الله .

التفسير:

١- الٓر ... الآية .

افتتح الله بعض السور القرآنية ، ببعض حروف الهجاء ، وهى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ، مع أنه مؤلف من حروف عربية ينطقون بها ، ويؤلفون منها كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ؛ دلَّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، ولكن تنزيل من حكيم حميد .

وذكر بعضهم : أنها حروف للتنبيه كالجَرس الذى يُقْرع ؛ فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ، كذلك هذه الأحرف تنبيه للبشر ، كألا وغيرها من أدوات الاستفتاح .

كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

أى : هذا كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النَّظم والتأليف ، لا تقبل شكًا ولا تأويلاً ولا تبديلاً ، وجعلت فُصولاً متفرقة فى سورة ، تبيّن حقائق العقائد ، والأحكام والمواعظ ، وجميع ما أنزل

له الكتاب من الحكم والفوائد ، فكأنها العقد المفصّل بالفرائد ؛ لأنها منزلة من حَكِيمٍ . يضع الأمور فى موضعها . خَبِيرٍ . بما كان وما هو كائن .

من تفسير الكشاف للزمخشرى :

أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ . أى : نظمت نظمًا رصينًا محكمًا ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف ، وقيل : منعت من الفساد من قولهم : أحكمت الدابة ؛ إذا وضعت عليها الحكمة ؛ لتمنعها من الجماح قال جرير :

أبنى حنيفة ، أحكمُوا سُفهاءكم		إنى أخاف عليكم أن أغضبا

ثُمَّ فُصِّلَتْ . كما تفصّل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصائص ، أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة[٧٦] .

٢- أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .

أى : هذا الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت ، أنزله الله لكى تُخلصوا له العبادة والطاعة ، وتتركوا عبادة غيره ؛ لأن من حق من أنزل هذا الكتاب المعجز ؛ أن يفرد بالخضوع والاستعانة .

وهذا كقوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ... (النحل: ٣٦) .

وقوله سبحانه : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ . (الأنبياء: ٢٥) .

إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .

أى : إننى رسول من عند الله ؛ أنذركم عذابه إن عصيتموه ، وأبشركم برحمته وفضله إن أطعتموه .

كما جاء فى الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش فاجتمعوا ، فقال : « يا معشر قريش ، لو أخبرتكم أن خيلاً تصبّحكم ألستم مصدّقى ؟ » فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا ، قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

★ ★ ★

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

تولوا : أصلها : تتولوا . أى : تعرضوا .

مرجعكم : مصيركم .

التفسير :

٣- وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... الآية .

هذه الآية مكملة للآية السابقة فى المعنى .

والمعنى : لقد أنزل الكتاب من أجل أن تعبدوه سبحانه دون سواه ، واسألوه : أن يغفر لكم ما كان منكم؛ من أعمال الشرك والكفر والإجرام ، ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة له دون سواه ، فإن فعلتم ذلك ؛ يمتعكم فى دنياكم متاعًا حسنًا ؛ فيرزقكم من زينة الدنيا ، وينسأ لكم فى آجالكم ، ويبدل خوفكم أمنًا ، وفقركم غنى ، وشقاءكم سعادة .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام : فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا . (نوح: ١٠-١٢).

وأدنى المتاع الحسن فى الدينا : الأمن ، والدعة ، وراحة النفس ، والرضا بما قسم الله تعالى ، والصبر على المحن .

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ .

ويعطى كل صاحب عمل صالح جزاء عمله فى الدنيا والآخرة قال تعالى : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ . (النحل: ٣٠) .

وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ .

أى : وإن تتولوا أيها الناس عن الحق الذى جئتكم به ؛ فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، الذى هو عذاب كبير هوله ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب الدنيا .

٤- إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

إنكم لا مهرب لكم ، ولا مفرَّ من لقاء الله تعالى ، فالموت حق ، والبعث حق ، والحساب والجزاء حق ، والله وحده هو المالك ليوم الدين ، وإليه سبحانه رجوعكم فى الدار الآخرة ، مهما طالت حياتكم ؛ ليحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من جزاء ؛ فعليكم أن تتزودوا لهذا المصير بالتقوى والأعمال الصالحة ، قال تعالى : وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ . (البقرة: ١٩٧) .

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

فهو سبحانه كامل القدرة ، لا يعجزه أمر ، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل ، فهو سبحانه بدأ الخلق على غير مثال سابق ، وهو سبحانه يعيد الحياة إلى الخلائق ، ويبعثها للحياة مرة أخرى .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ . (الأنبياء: ١٠٤) .

وقال سبحانه : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . (الروم : ٤٠) .

وقال عز شأنه : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

★ ★ ★

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ﴾

المفردات :

يثنون صدورهم : يطوون قلوبهم على ما فيها من نوايا .

ليستخفوا منه : ليستروا أنفسهم عنه سبحانه .

يستغشون ثيابهم : يوارون أنفسهم بثيابهم .

التفسير :

٥- أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ... الآية .

أى : إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم ، وينكسون رءوسهم ، كأنهم

يحاولون طىّ صدورهم على بطونهم حين سماع القرآن ؛ ليستخفوا منه ﷺ حين تلاوته ، فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رءوسهم .

روى ابن جرير وغيره : أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مرّ بالنبى ﷺ ؛ ثنى صدره : كيلا يراه أحد .

جاء فى تفسير الآلوسى ما يأتى :

قيل : نزلت فى المنافقين ، كان أحدهم إذا مرّ بالنبى ﷺ : ثنى صدره ، وتغشّى بثوبه ؛ لئلا يراه .

وقيل: نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يُظهر لرسول الله ﷺ المحبة ، ويضمر فى قلبه ما يضادها ، وقيل : كان الرجل من الكفار يدخل بيته ، ويرخى ستره ، ويحنى ظهره ، ويتغشى بثوبه ، ثم يقول : هل يعلم الله ما فى قلبى فنزلت هذه الآية ... ا هـ .

ويمكن أن تشمل الآية الكريمة جميع هؤلاء ، كما تشمل كل من يتستر ويستخفى بعمل الشر ظانًا أنه لن ينكشف أمره ، ولن يظهر للناس سوء فعله .

أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

أى : إن ثنى صدورهم ، وتنكيس رءوسهم ؛ ليستخفوا من الداعى إلى توحيد ربّهم ؛ لا يغنى عنهم شيئًا ؛ فإنه سبحانه وتعالى يعلم السر والجهر ، ويعلم ما يضمرونه وما يعلنونه .

إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . إنه سبحانه وتعالى محيط بما تضمره النفوس من خفايا ، وما يدور بها من أسرار ، وهذه الجملة تعليلية ؛ لتأكيد ما قبلها من علمه سبحانه وتعالى بالسر والعلن .

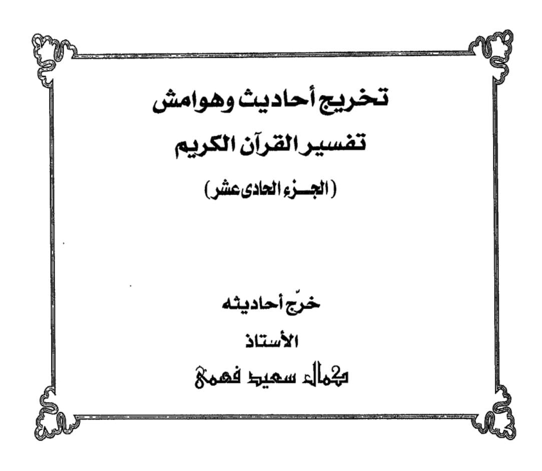
والمراد بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ : أسرار الصدور وخواطر القلوب ، وكل ما يدور فى داخل الإنسان .

فالله سبحانه خالق الإنسان ، مطلع على خطرات نفسه ، محيط علمه بظاهره وباطنه .

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ . (ق: ١٦) .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم الفراغ من تفسير الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم فى ضحى يوم الإثنين ١٩ شعبان ١٤١٤ هـ / الموافق ٣١ يناير سنة ١٩٩٤ م . بجامعة السلطان قابوس (كلية التربية والعلوم الإسلامية) . بسلطنة عمان - والله ولى التوفيق .



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجــزء الحادى عشر)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
كمال سعيد فهمى

(١) من بدا ؛ جفا :

رواه أحمد فى مسنده (١٨١٤٥) من حديث البراء قال رسول الله ﷺ : من بدا جفا . ورواه أحمد فى مسنده أيضا (٨٦١٩) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من بدا ؛ جفا ، ومن اتبع الصيد ؛ غفل ، ومن أتى أبواب السلطان ؛ افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قربا ؛ إلا ازداد من الله بعدا .

(٢) وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة :

رواه مسلم فى الفضائل (٢٣١٧) من حديث عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ فقالوا : نعم ، فقالوا : لكنا والله ما نقبل ، فقال رسول الله ﷺ : وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ، وقال ابن نمير : من قلبك الرحمة . ورواه البخارى فى الأدب (٥٩٩٧) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٨) ، وأبو داود فى الأدب (٥٢١٨) ، والترمذى فى البر (١٩١١) ، وأحمد فى مسنده (٧٠٨١) ، من حديث أبى هريرة قال : قبل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسا ؛ فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ؛ فنظر إليه رسول الله ﷺ ، ثم قال: من لا يرحم لا يرحم

(٣) انظر تفسير ابن كثير حيث بين فضل الصحابة ، حيث قد رضى الله عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فيا ويل من أبغضهم أو سبّهم أو سب بعضهم ، لا سيما الخليفة الأعظم : أبو بكر الصديق !

(٤) تفسير ابن جرير الطبرى .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ١٤٨/٣ .

(٦) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو .

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٨٨ ، والترمذى فى البر والصلة ٢٠٢٩ ، وأحمد ح ٧١٦٥ ، ٨٧٨٢ ، والدارمى فى الزكاة ح ١٦٧٦ ، من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٧) إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤١٠) وفى التوحيد (٧٤٢٩) ، ومسلم فى الزكاة (١٠١٤) ، والترمذى فى الزكاة (٦٦١) ، والنسائى فى الزكاة (٢٥٢٥) ، وابن ماجة فى الزكاة (١٨٤٢) ، والدارمى فى الزكاة (١٦٧٥) ، وأحمد فى مسنده (٨١٨١، ٨٧٣٨، ٩١٤٢، ٩٢٨١، ٩٧٣٨، ١٠٥٦٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه ، كما يربى أحدكم فلوه ؛ حتى تكون مثل الجبل ». ورواه أحمد فى مسنده (٢٥٦٠٤) من حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة ؛ كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد » .

(٨) لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء :

رواه أحمد فى مسنده (١٠٨٤٦) ، من حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ؛ لخرج عمله للناس كائنا ما كان » . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن. وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٤٠٢) ، ونسبه لأحمد فى مسنده ، وأبو يعلى فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك ، ورمز لحسنه .

(٩) وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى وليا ؛ فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ؛ كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى؛ لأعطينه ، ولئن استعاذنى ؛ لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته » . قلت : تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيبة الصحيح ؛ لعدوه من منكرات خالد بن مخلد .

(١٠) اشترط لربى أن تعبدوه :

أخرج أحمد (١٦٦٣٠) ، من حديث أبى مسعود الأنصارى . قال الهيثمى فى المجمع : ورواه أحمد بنحو : حديث مرسل يأتى، وفيه مجالد أيضا ، ولم يسق لفظه ، وذكره بعد هذا وهو : وعن الشعبى قال : انطلق النبى ﷺ مع عمه العباس إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة ، قال : ليتكلم متكلمكم ، ولا يطل ؛ فإن عليكم من المشركين عينا ، وإن يعلموا بكم ؛ يفضحوكم ، قال قائلهم ، وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله عز وجل ، وعليكم إذا فعلنا ذلك قال : أسأل لربى عز وجل : أن تعبدوه ولا تشركوا بها شيئا ، وأسألكم لنفسى ولأصحابى : أن تؤوونا ، وتنصرونا ، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة. قالوا: فلك ذلك .. رواه أحمد هكذا مرسلا ورجاله رجال الصحيح ، وقد ذكر الإمام أحمد بعده سندا إلى الشعبى : عن أبى مسعود عقبة بن عامر قال بنحو هذا قال : وكان ابن مسعود أصغرهم سنا ، وفيه مجالد وفيه ضعف وحديثه حسن إن شاء الله . قال السيوطى فى الدر : أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت . قال : أشترط لربى . أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى : أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قال : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل . فنزلت: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ... الآية ﴾ . وقال فى موضع آخر : وأخرج عبد بن حميد عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ قال : قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة ، فنصروه وآووه حتى أظهر الله دينه ولم يسم حى من السماء قط باسم لم يكن لهم قبل ذلك غيرهم ، وذكر لنا : أن بعضهم قال : هل تدرون ما تبايعون هذا الرجل ؟! إنكم تبايعونه على محاربة العرب كلها أو يسلموا ، وذكر لنا : أن رجلا قال : يا نبى الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : أشترط لربى : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى : أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبى الله ؟ قال : «لكم النصر فى الدنيا والجنة وفى الآخرة » ، ففعلوا ؛ ففعل الله.

(١١) انظر تفسير القاسمى ٣٢٧٣/٨ ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى الجزء ١١ ص ٥٥ .

(١٢) زبدة التفسير فى فتح القدير ، مطابع الأنباء ، الكويت ص ٢٦١ .

(١٣) أى عم ، قل : لا إله إلا الله ؛ أحاج لك بها عند الله :

رواه البخارى ١٣٦٠، ٣٨٨٤ ، ٤٦٧٥ ، ٤٧٧٢ ، ٦٦٨١ ، ومسلم ٢٤ فى الإيمان من حديث المسيب بن حزن ، والد سعيد ابن المسيب .

(١٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابونى المجلد الثانى ص ١٧٣ ، واللفظ المذكور للبخارى .

(١٥) تفسير القاسمى الجزء ٨ ص ٢٤١ .

(١٦) الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى للقرآن ، المجلد ٣ ص ٩٠٥ .

(١٧) الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى للقرآن ٩٠٧/٣ .

(١٨) مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد على الصابونى ١٧٥/٢ ط ٤ بيروت ١٤٠١ هـ .

(١٩) تفسير القاسمى ٣٤٥/٨ بتصرف .

(٢٠) التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ٩٠٩/١١ .

(٢١) تفسير القاسمى ٣٤٧/١١ .

(٢٢) انظر التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الحزب ٢١ ص ٢٩ .

(٢٣) عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البر :

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٩٤) ومسلم فى البر (٢٦٠٧) وأبو داود فى الأدب (٤٩٨٩) والترمذى فى البر (١٩٧١) وابن ماجة فى المقدمة (٤٦) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٥) وأحمد فى مسنده (٣٦٣١) من حديث عبد الله عن النبى ﷺ قال: « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ؛ حتى يكون صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ؛ حتى يكتب عند الله كذابا » . ورواه أحمد فى مسنده (٤٥) من حديث أوسط بن عمرو قال: قدمت المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ بسنة ، فألفيت أبا بكر يخطب الناس ، فقال : قام فينا رسول الله ﷺ عام الأول ، فخنقته العبرة ثلاث مرات ، ثم قال : « يا أيها الناس ، سلوا الله المعافاة ؛ فإنه لم يؤت أحد مثل يقين بعد معافاة ولا أشد من ريبة بعد كفر وعليكم بالصدق ؛ فإنه يهدى إلى البر ، وهما فى الجنة ، وإياكم والكذب ، فإنه يهدى إلى الفجور، وهما فى النار » .

(٢٤) لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه :

رواه البخارى فى الإيمان (١٥) ومسلم فى الإيمان (٤٤) والنسائى فى الإيمان (٥٠١٣) وابن ماجة فى المقدمة (٦٧) والدارمى فى الرقاق (٢٧٤١) وأحمد فى مسنده (١٢٤٠٣) من حديث أنس قال: قال النبى ﷺ : لا يؤمن أحدكم ؛ حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين .

(٢٥) عدد رقيق : أى : قليل .

(٢٦) من يرد الله به خيرا ؛ يفقهه فى الدين :

رواه البخارى فى العلم (٧١) وفى فرض الخمس (٣١١٦) وفى الاعتصام (٧٣١٢) ومسلم فى الزكاة وابن ماجة فى المقدمة ح ٢٢٣ ، وأحمد ح ٢١٢٠٨ ، والدارمى فى المقدمة ح ٣٤٢ . ورواه مسلم فى الذكر (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة.

ورواه مالك فى الموطإ كتاب الجامع (١٦٦٧) وابن ماجة فى المقدمة (٢٢١) والدارمى فى المقدمة (٢٢٤) وأحمد فى مسنده (١٦٣٩٧) من حديث معاوية يرفعه : من يرد الله به خيرا ؛ يفقهه فى الدين .. الحديث . ورواه الترمذى فى العلم (٢٦٤٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٨٦) والدارمى فى المقدمة (٢٢٥) وفى الرقاق (٢٧٠٦) فى حديث ابن عباس : وقال : حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجة فى المقدمة (٢٢٠) من حديث أبى هريرة .

(٢٧) من سلك طريقا يلتمس فيه علما :

رواه البخارى فى العلم معلقا ، والترمذى فى العلم ح ٢٦٨٢ ، وأبو داود فى العلم ح ٣٦٤١ ، وابن ماجة فى المقدمة ح ٢٢٣، وأحمد ح ٢١٢٠٨ ، والدارمى فى المقدمة ح ٣٤٢ . ورواه مسلم فى الذكر (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة .

(٢٨) إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل :

رواه مسلم فى الفضائل (٢٢٧٦) والترمذى فى المناقب (٣٦٠٥ ، ٣٦٠٦) وأحمد فى مسنده (١٦٥٣٩) من حديث واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم .

(٢٩) خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح :

أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/١١٨) من حديث أنس بلفظ : أنا محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب .. الحديث . وفيه : فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شىء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى ؛ فأنا خيركم نسبا ، وخيركم أبا . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير أيضا (٣٩٠١) بلفظ : خرجت من نكاح غير سفاح . ونسبه لابن سعد عن عائشة . وقال : حسن . قال المناوى فى فيض القدير : قال الذهبى : فيه الواقدى هالك . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير أيضا (٣٩٠٢) بلفظ : خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح . ونسبه لابن سعد عن ابن عباس . وقال : حسن . قال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى عن المدينى عن أبى الحويرث ، ولم أعرف المدينى ولا شيخه ، وبقية رجاله وثقوا . قال الهيثمى فى المجمع : وعن على : أن النبى ﷺ قال : خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه محمد بن جفعر بن على ، صحح له الحاكم فى المستدرك وقد تكلم فيه ، وبقية رجاله ثقات . قال الزيلعى فى نصب الراية : أخرجه البيهقى فى «سننه» ، والطبرانى فى «معجمه» عن هشيم : حدثنى المدينى عن أبى الحويرث عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ما ولدنى شىء من سفاح الجاهلية ، وما ولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام » ، انتهى . وروى ابن الجوزى فى « التحقيق » من طريق الواقدى : حدثنى محمد بن أخى الزهرى عن عمه عن عروة عن عائشة مرفوعًا : خرجت من نكاح غير سفاح ، قال فى «التنفيح» : الواقدى متكلم فيه ، وفى الأول المدينى ، وهو إن كان والد على فهو ضعيف ، وكذا إن كان ابراهيم بن أبى يحيى ، وقال الطبرانى : هو عندى فليح بن سليمان ، وأبو الحويرث اسمه : عبد الرحمن بن معاوية ، وهو متكلم فيه ، انتهى . قال العجلونى فى كشف الخفاء (١٢٠٦) رواه البخارى فى الأدب والطبرانى فى الأوسط عن على رفعه بزيادة : من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ، لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء ، وفى لفظ من رواية ابن سعد عن ابن عباس : خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح.

(٣٠) من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبى الله :

رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٨١) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبى الله لا إلا إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات ؛ كفاه الله ما أهمه صادقا كان بها أو كاذبا .

(٣١) التفسير المنير . للأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلى ١١/٩٠ ، ٩١ .

(٣٢) يمكن أن أنقل هنا فقرة من كتابى : تفسير الآيات الكونية الذى طبعته دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٨٠ وهى :

التأمل فى الآيات التى تحدثت عن خلق الكون ، وعن خلق السماوات والأرض يجعلنا نخلص إلى النقاط الآتية :

١ – وجود مراحل ستة للخلق عمومًا .

٢ – تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل الأرض .

٣ – خلق الكون ابتداءً من كومة أولية فريدة ، كانت تشكل كتلة متماسكة ، انفصلت أجزاؤها بعد ذلك .

٤ – تعدد السماوات ، وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٥ – وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .

٦ – إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث ، والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى . ص ٩٥ من كتاب تفسير الآيات الكونية د/ عبد الله شحاتة .

(٣٣) تفسير المنار : المجلد السادس ص ٢٤٨ ، ٣٤٩ ، وقد نقل هذا الكلام الأستاذ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى جزء ١١ صفحة ٦٨ .

(٣٤) مقتبس من ظلال القرآن بقلم سيد قطب جزء١ ١ صفحة ١٧٦٥ .

(٣٥) تفسير المنار جزء ١١ صفحة ٢٤٩ ، وقد عنون صاحب المنار للآيات بقوله : (تفضيل الآيات لأهل العلم ، تنويه به وحث عليه).

(٣٦) انظر هذا المعنى فى تفسير ابن كثير .

(٣٧) تفسير ابن كثير .

(٣٨) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى ١١/١٢١ .

(٣٩) تفسير الكشاف .

(٤٠) زبدة التفسير من فتح القدير للإمام الشوكانى .

(٤١) إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها :

رواه مسلم فى الذكر (٢٧٤٢) والترمذى فى الفتن (٢١٩١) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٠٠) وأحمد فى مسنده (١٠٧٨٥) من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ؛ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » .

تنبيه : قوله (متفق عليه) فيه نظر . فإنما أخرجه البخارى فى الزكاة (١٤٦٥) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه يحدث أن النبى ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله ، فقال : إنى مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . فقال رجل : يا رسول الله ، أويأتى الخير بالشر ، فسكت النبى ﷺ ، فقيل له : ما شأنك تكلم النبى ﷺ ، ولا يكلمك ؟ فرأينا أنه ينزل عليه ، قال : فمسح عنه الرحضاء . فقال : أين السائل ؟! وكأنه حمده . فقال : إنه لا يأتى الخير بالشر ، وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم إلا آكلة الخضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت وإن هذا المال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل .. الحديث.

(٤٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ١٢٦/١١ ، ثم قال : و ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ ، حال من الضمير المحذوف بعد ﴿ يعلم ﴾ العائد على ﴿ ما ﴾ إذ التقدير : بما لا يعلمه ، أى : كائنا فى السماوات ولا فى الأرض ، والمقصود من ذكرهما : تعميم الأمكنة ، كما هو استعمال الجمع بين المتقابلات مثل : المشرق والمغرب ، وأعيد حرف النفى بعد العطف ؛ لزيادة التنصيص على النفى ، والاستفهام فى ﴿ أتنبئون ﴾ للإنكار والتوبيخ اهـ .

(٤٣) تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ الطاهر ابن عاشور ١٢٩/١١ .

(٤٤) ما من الأنبياء نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله :

رواه البخارى فى كتاب فضائل القرآن (٤٩٨١) ، وفى الاعتصام (٧٢٧٤) ، ومسلم فى كتاب الإيمان (١٥٢) ، وأحمد فى مسنده حديث رقم (٩٥١٨) .

(٤٥) قال النسفى : ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ بالنصب قراءة حفص أى : تتمتعون متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر لبغيكم ، وقرأ غير حفص بالرفع ؛ على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته كقوله : فبغى عليهم ومعناه : إنما بغيكم على أمثالكم أو هو خبر ومتاع خبر بعد خبر أو متاع خبر مبتدأ مضمر أى : هو متاع الحياة الدنيا ، وفى الحديث (أسرع الخير ثوابًا : صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا: البغى واليمين الفاجرة) .

(٤٦) ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ (الزمر : ٢١) .

(٤٧) ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (الحديد : ٢٠).

(٤٨) محاضرات الموسم الثقافى لعام ٧٢ - ١٩٧٣ إصدار حكومة أبو ظبى (الإمارات العربية المتحدة) محاضرة الإنسان والكون للأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار .

(٤٩) إذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا ؟

رواه مسلم فى الإيمان (١٨١) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٥٢) وفى التفسير (٣١٠٥) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٧) وأحمد فى مسنده (١٨٤٥٧) من حديث صهيب عن النبى ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم ؟ ، فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟! ، قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل . حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة بهذا الإسناد وزاد ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

(٥٠) تفسير المراغى ١٠٩/١١ .

(٥١) تفسير الآلوسى ١٤٠/١١ .

(٥٢) من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن :

قال السيوطى فى الدر : وأخرج أبو القاسم بن بشران فى أماليه : عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من هداه الله للإسلام ، وعلمه القرآن ، ثم شكا الفاقة ؛ كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ، ثم تلا النبى ﷺ : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ . من عرض الدنيا من الأموال » .

(٥٣) فإذا آتاك الله مالا ؛ فلير أثر نعمة الله عليك :

رواه أبو داود فى اللباس (٤٠٦٣) والنسائى فى الزينة (٥٢٢٤) وأحمد فى مسنده (١٦٧٨٠) من حديث أبى الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبى ﷺ فى ثوب دون فقال : ألك مال ؟ . قال : نعم ، قال : من أى المال ؟ قال : قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا آتاك الله مالا ؛ فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته . والحديث رواه الترمذى فى الأدب (٢٨١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . وقال الترمذى: هذا حديث حسن . ورواه أحمد فى مسنده (٨٠٤٥) من حديث أبى هريرة رفعه . قال : إن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . ورواه أحمد فى مسنده (١٩٤٣٢) من حديث أبى رجاء العطاردى قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : من أنعم الله عز وجل عليه نعمة ، فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه وقال روح ببغداد : يجب أن يرى أثر نعمته على عبده . قال الهيثمى فى المجمع : وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سحب ثيابه ؛ لم ينظر الله إليه . فقال أبو ريحانه : والله لقد أمرضنى ما حدثتنا به ، فو الله إنى لأحب الجمال حتى إنى أجعله فى شراك نعلى وعلاق سوطى ، أفمن الكبر ذاك ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال ، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه موسى بن عيسى دمشقى قال الذهبى : مجهول ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٥٤) إذا آتاك الله مالا ؛ فلير عليك :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٣٣١) بلفظ : إذا آتاك الله مالا ؛ فلير عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا، ولا يحب البؤس ولا التباؤس . ونسبه للبخارى فى التاريخ ، والطبرانى فى الكبير ، والضياء عن زهير بن أبى علقمة ، وصححه. قال المناوى فى فيض القدير : قال الذهبى : أظنه مرسلاً . وقال ابن الأثير : قال البخارى : زهير هذا لا صحبة له وذكره غيره فى الصحابة . وقال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى وترجم لزهير ورجاله ثقات . وانظر ما قبله .

(٥٥) تفسير المراغى ، للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ١٢٨/١١ .

(٥٦) انظر تفسير هذه الآية ، وآيات تتعلق بالموضوع فى كتابى : تفسير الآيات الكونية د . عبد الله شحاتة .

(٥٧) وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه :

تقدم ص (١٩٩٦) .

(٥٨) قال : هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له :

رواه الترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٥) وابن ماجة فى تعبير الرؤيا (٣٨٩٨) والدارمى فى الرؤيا (٢١٣٦) وأحمد فى مسنده

(٢٢٢٦١) من حديث عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ . قال : هى الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو ترى له . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه مالك فى الموطإ كتاب الجامع (١٧٨٥) من حديث هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول فى هذه الآية : ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ – قال : هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له . ورواه الترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٣) وفى التفسير (٣١٠٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٩٦٤) ، من حديث رجل من أهل مصر قال : سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى : ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾ . فقال : ما سألنى عنها أحد غيرك إلا رجل واحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال : ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت ؛ هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٥٩) تفسير القاسمى نقلا عن كتاب : « الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان » .

(٦٠) تفسير الآلوسى ١٥٦/١١ ومثله فى تفسير البيضاوى .

(٦١) صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته :

رواه البخارى فى الصوم (١٩٠٩) ومسلم فى الصيام (١٠٨١) والترمذى فى الصيام (٦٨٤) والنسائى فى الصيام (٢١١٧) والدارمى فى الصوم (١٦٨٥) وأحمد فى مسنده (٩٢٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ ، أو قال: قال أبو القاسم ﷺ : صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن أغمى عليكم ؛ فأكملوا عدة شعبان ثلاثين . ورواه مسلم فى الصيام (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فضرب بيديه فقال : الشهر هكذا وهكذا وهكذا – ثم عقد إبهامه فى الثالثة – فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن أغمى عليكم فاقدروا له ثلاثين . ورواه الترمذى فى الصوم (٦٨٨) والنسائى فى الصيام (٢١٢٤، ٢١٢٩) والدارمى فى الصوم (١٦٨٣) وأحمد فى مسنده (١٩٨٦) ، من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين . ورواه أحمد فى مسنده (١٥٨٥٩) من حديث قيس بن طلق عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل جعل هذه الأهلة مواقيت للناس، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم ؛ فأتموا العدة .

(٦٢) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب ٢٢ ص ١٢٩ .

(٦٣) إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغِرْ :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٣٧) ، وقال : «حديث حسن غريب» ، وابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٣) ، وقال البوصيرى فى الزوائد: «فى إسناده الوليد بن مسلم ، وهو مدلس ، وقد عنعنه . وكذلك مكحول الدمشقى» ، وأحمد ١٣٢/٢، ١٥٣ كلهم عن ابن عمر .

(٦٤) أنا أولى بموسى منهم . فصامه :

رواه البخارى فى كتاب الصوم (٢٠٠٤) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٩٧) وفى تفسير القرآن (٤٧٣٧) ، ومسلم فى كتاب الصيام (١١٣٠) ، وأبو داود فى كتاب الصيام (٢٤٤٤) ، وابن ماجة فى كتاب الصيام (١٧٣٤) ، والدارمى فى كتاب الصيام (١٧٥٩) ، وأحمد فى مسنده حديث رقم (٢٦٣٩ ، ٢٨٢٧ ، ٣١٠٢ ، ٣١٥٤) من حديث ابن عباس : أن النبى ﷺ لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوما – يعنى : عاشوراء – فقالوا : هذا يوم عظيم وهو يوم نجى الله فيه موسى ، وأغرق آل فرعون، فصام موسى : شكرا لله ، فقال : « أنا أولى بموسى منهم » ، فصامه وأمر بصيامه .

(٦٥) تفسير الكشاف ، وقد اختار هذا الرأى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية ، واستبعد أن يكون الخطاب للرسول ﷺ لغرض تهيجه وإثارته ؛ ليزداد ثباتًا على دينه ، من غير احتمال وقوع شك منه .

(٦٦) انظر تفسير فخر الدين الرازى ، وتفسير القرطبى ، وابن كثير ، وتفسير أبى السعود ١٧٦/٤ ، وقد نقلت ألفاظ القصة منه .

(٦٧) تفسير أبى السعود ١٧٦/٤ .

(٦٨) زبدة التفسير فى فتح القدير ، مختصر من تفسير الشوكانى للأستاذ محمد سليمان الأشقر الطبعة الأولى بالكويت ص ٢٨١ .

(٦٩) تفسير أبى السعود ، المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة : أبى السُّعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١ هجرية ، الجزء الرابع ص ١٧٩ .

(٧٠) وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧١) ، وأبو داود فى الصلاة (٧٦٠) والترمذى فى الدعوات (٣٤٢١، ٣٤٢٢، ٣٤٢٣) ، والدارمى فى الصلاة (١٢٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٧٣١) ، ومن حديث على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم ، أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ؛ فاغفر لى ذنوبى جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك ، وإذا ركع قال : اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى ، وإذا رفع قال : اللهم ، ربنا ، لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت ، من شىء بعد ، وإذ سجد قال : اللهم ، لك سجدت ، وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه ، وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين ، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم ، اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت .

(٧١) احفظ الله يحفظك :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس . قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال : « يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال العجلونى فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ ، فالتفت إلى ، فقال : يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله – الحديث وفيه : قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك ؛ لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه ، وفيه : واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا ، وأورده الضياء فى التارة وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما

رفعه بلفظ: يا ابن عباس، احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء؛ يعرفك فى الشدة، وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى، قال: فى أقاصد وقد بسطت الكلام عليه فى تخريج الأربعين.

(٧٢) زبدة التفسير من فتح القدير، وهو مختصر تفسير الإمام الشوكانى تحقيق محمد سليمان الأشقر: الكويت ص ٢٨٣.

(٧٣) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب:

رواه البخارى فى المرضى باب: ما جاء فى كفارة المرضى (٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم؛ إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يُشاك». ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حَزَن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفر الله بها. من خطاياه». رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال: «لما نزلت من يعمل سوءاً يجز به؛ شق ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ، فقال: قاربوا وسددوا. وفى كل ما يصيب المؤمن كفارة، حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها». هذا حديث حسن غريب.

(٧٤) محمود شلتوت، إلى القرآن الكريم ص ٧٧.

(٧٥) تفسير المنار ج ١٢، ص ٣٢ – ٤١.

(٧٦) تفسير الكشاف للزمخشرى.

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء (الحادى عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله تفسير الجزء الحادى عشر ويليه

تفسير الجزء الثانى عشر إن شاء الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثانى عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

المفردات :

وما من دابة فى الأرض : يعنى : كل ما دب على الأرض ، والناس منهم .

ويعلم مستقرها : الموضع الذى تستقر فيه وتأوى إليه .

ومستودعها : حيث يودعها بموت أو دفن .

كل فى كتاب مبين : عند الله عز وجل مكتوب مثبت .

ليبلوكم : ليختبركم .

التفسير:

٦ - وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .

تصور الآية علم الله الشامل المحيط بكل ما يدبّ على الأرض ، من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطير ، وهو سبحانه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها ، وما من دابة من هذه الدواب إلا وعند الله علمها ، وعلى الله رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن ، ومن أين تجىء وأين تذهب ، وكل فرد من أفرادها فى هذا العلم الدقيق .

إنها صورة متصلة للعلم الإلهى فى حالة تعلقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله فلا يطيق ، فسبحان من أحاط بكل شىء علمًا !

٧ – وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... الآية .

تشير الآية : إلى أن خلق الكون قد مر بفترات زمنية طويلة جدًا ، ولم يكن فى ذلك الوقت شمس أو قمر ، أو ليل أو نهار ، ويرى بعض المفسرين أن معنى الآية : فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .

ونجد فى القرآن الكريم : وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (الحج : ٤٧) .

ويقول سبحانه : فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج : ٤) .

ويقول عز شأنه : فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (السجدة : ٥) .

وقد فسر بعضهم خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، على أنها تعنى : مراحل ، أو فترات طويلة ، أو عصور.

وفى الآيات ٩ –١٢ من سورة فصلت ، يقول سبحانه :

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

ويقول عز شأنه :

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . (النازعات : ٢٧–٣٣) .

ويقول بعض المفسرين : أن الدحو غير الخلقة ، فيمكن أن تكون الأرض قد خلقت غير مدحوة ثم أتم الله خلق السماء ، وبعد ذلك أتم خلق الأرض فدحاها ، ويسر لها الماء والمرعى والجبال ، والتأمل فى الآيات العديدة ، التى تحدثت عن خلق السماوات والأرض ، وعن خلق الكون ، يجعلنا نخلص إلى النقاط الآتية:

١ – وجود مراحل ستة للخلق عمومًا .

٢ – تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل الأرض .

٣ – خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة ، كانت تشكل كتلة متماسكة ، انفصلت أجزاؤها بعد ذلك .

٤ – تعدد السماوات وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٥ – وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .

٦ - إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث ، والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى .

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ . تفيد آيات أخرى : أن الماء أصل جميع الحياة والأحياء .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ . (الأنبياء : ٣٠) .

وفى صحيح مسلم : عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء» [١] .

قال مجاهد : وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ قبل أن يخلق شيئًا .

وقال ابن عباس : إنما سمّى العرش عرشًا ؛ لارتفاعه .

وعن سعيد بن جبير : سئل ابن عباس عن قول الله : وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ؛ على أى شىء كان الماء؟ قال : على متن الريح [٢] .

أصل الحياة :

شغلت هذه المسألة الإنسان فى كل العصور سواء ما كان يخصه منها أو ما يخص الكائنات المحيطة به ، وعندما يواجه القرآن أصل الحياة على مستوى عام تمامًا ، فإنه يذكر ذلك بإيجاز بالغ مثل قوله : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠)

والرتق : ضد الفتق ، ومعنى كَانَتَا رَتْقًا . أى : كانتا ملتصقتين ، ففتق الله هذه من هذه ، فرفع الله السماء ووضع الأرض وفصل بينهما بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . والعبارة يمكن أن تعنى : أن كل شىء مصدره الماء كمادة جوهرية ، أو أن أصل كل شىء حى هو الماء ويتفق هذان المعنيان تمامًا مع العلم ، فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى ، وأن الماء هو العنصر الأول لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء ، وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما ، فإن أول سؤال يطرح هو : أيحتوى هذا الكوكب على كمية كافية للحياة عليه ؟ وتسمح المعطيات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمى إلى عالم النبات ؛ فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبرى ، أى : فى أقدم الأراضى المعروفة ، ولابد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل ، وقد أتت أيضًا فى المحيطات .

وتشير كلمة ماء إلى : ماء السماء ، كما تعنى : ماء المحيطات أو أى سائل آخر ، وبالمعنى الأول ؛ فالماء هو العنصر اللازم لأى حياة نباتية .

قال تعالى : وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . (طه : ٥٣) .

إن كلمة ماء بمعناها الثانى ، أى : ذلك الذى يعنى : (سائل) دون أى تحديد ، مستخدمة فى شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكل أى حيوان .

قال تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ . (النور : ٤٥) .

وتنطبق كلمة ماء هنا أيضًا على : السائل المنوى [٣] وسواء كان المقصود هو أصل الحياة عمومًا أو العنصر الذى يجعل النباتات تولد فى التربة ، أو كان المقصود هو : بذرة الحيوان ؛ فإن كل عبارات القرآن تتفق تمامًا مع المعطيات العلمية الحديثة ، ولا مكان مطلقًا فى نص القرآن لأى خرافة من الخرافات التى كانت منتشرة فى عصر تنزيل القرآن الكريم [٤] .

ويمكن أن تدل جملة : وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ، على معنى : وكان ملكه قائم وثابت لأصل هذا الكون وأساس كل شىء فى هذه الحياة ، وهو مدلول : كان الله ولا شىء معه ؛ فهو سبحانه أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، وهو الذى أوجد الخلق من العدم ، وهو يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ويكون معنى وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ . أى : أصل كل الأحياء .

أخرج الإمام أحمد : عن أبى هريرة قال : قلت : يا رسول ، إنى إذا رأيتك ، طابت نفسى ، وقرت عينى ! فأنبئنى عن كل شىء ؛ قال : « كل شىء خلق من ماء » ، قال : قلت : أنبئنى عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة ؟ قال : «أفش السلام وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ؛ ثم ادخل الجنة بسلام» [٥] ، وفى نهاية المطاف نجد أن المسلم مطالب بالإيمان بالمحكم ، والتفويض إلى الله فى المتشابه ، والتسليم بصدق ما أخبر به القرآن ، وإن عجز العقل المحدود عن تحديد المقصود .

قال تعالى : وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ . (آل عمران : ٧) .

أقوال المفسرين :

جاء فى تفسير المراغى لهذه الآية :

والخلاصة : أن الماء أصل جميع الأحياء وهو الذى ينزل إليه أمر التدبير والتكوين [٦] .

خلاصة ما ورد فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا :

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ من أيام الله تعالى فى الخلق والتكوين وما شاء من الأطوار ، لا من أيامنا فى هذه الدار التى وجدت بهذا الخلق لا قبله ، فلا يصح أن تقدر أيام الله بأيامها كما توهم الغافلون عن هذا وما يؤيده من قوله : **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** (الحج : ٤٧) . وقوله : **تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .** (المعارج : ٤) . وقد ثبت فى علم الهيئة الفلكية أن أيام غير الأرض من الدرارى التابعة لنظام شمسنا هذه تختلف عن أيام هذه الأرض فى طولها ، بحسب اختلاف مقادير أجرامها وأبعادها ، وسرعتها فى دورانها ، وأن أيام التكوين بخلقه من الدخان المعبر عنه : بالسديم شموسًا مضيئة ، تتبعها كواكب منيرة يقدر اليوم منها بآلاف الألوف من سنينا ، بل من سنى سرعة الضوء أيضا .

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ . أى : وكان سرير ملكه فى أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء .

والمعنى : الكلى المفهوم من العرش : أنه مركز نظام الملك ، ومصدر التدبير له ، وأن المتبادر فى الاستعمال اللغوى استعمالهم : استوى على عرشه بمعنى : ملك أو استقام أمر الملك له ، وثل عرشه : بمعنى: هلك وزال ملكه . ونحن نعلم أن عروش ملوك البشر تختلف مادة وشكلا وهى من عالم الشهادة ، وصنع أيدى البشر ، كذلك يختلف النظام للتدبير الذى يصدر عنها فعرش ملكة سبإ العربية العظيم ، كان أعظم من عرش سليمان ملك إسرائيل ، ولكن تدبيرها وحكمها الشورى (الديمقراطى) كان دون حكمه الشرعى الدينى، ورب عرش من الذهب ، وعرش من الخشب ، وأما عرش الرحمن عز وجل فهو من عالم الغيب الذى لا ندركه بحواسنا ، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا ، فأجدر بنا ألا نعلم كنه استوائه عليه ، وصدور تدبيره لأمر هذا الملك العظيم عنه ، وحسبنا أن نفهم الجملة [٧] ونستفيد العبرة فما أجهل الذين تصدوا لتأويل هذه الحقائق الغيبية بأقيستهم وآرائهم البشرية ، وما أحسن ما روى عن أم سلمة رضى الله عنها وربيعة ومالك ، من قولهم: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

وأما قوله تعالى : **وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ .** فنفهم منه أن الذى كان دون هذا العرش ، من مادة هذا الخلق قبل تكوين السماوات والأرض أو فى أثنائه هو هذا الماء ، الذى أخبرنا الله عز وجل أنه جعله أصلا لخلق جميع الأحياء ، إذ قال :

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.

(الأنبياء : ٣٠)

والمعنى : ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة ، لا فتق ولا انفصال ، وهو ما يسمى فى عرف علماء الفلك : بالسديم ، وبلغة القرآن : بالدخان ، فَفَتَقْنَاهُمَا بفصل بعضها عن بعض ، فكان منها ما هو سماء : ومنها ما هو أرض وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ فى المقابلة لحياة الأحياء كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ بأن الرب الفاعل لهذا ، هو الذى يعبد وحده ولا يشرك به شىء ، وأنه قادر على إعادة الخلق كبدئه ؛ فيفهم من هذا وذاك : أن الذى كان تحت العرش فينزل إليه أمر التدبير والتكوين منه ؛ هو الماء الذى هو أصل لجميع الأحياء لا ما تخيله بعض المفسرين الفنيين فى الماء والعرش ، مما تأباه اللغة والعقل والشرع ، والعبارة ليست نصًّا فى أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء ، كالسفن التى نراها راسية فيه الآن كما قيل ، فإن فائدة الإخبار بمثل هذا إن كان واقعًا فى ذلك العهد ، هو دون فائدة ما ذكرنا من معنى العرش الذى بيناه ، وهو الذى يزيدنا معرفة بربنا وبحكمه فى خلقه ، وهو الذى يتفق مع نظريات علم التكوين [٨] وعلم الحياة ، وعلم الهيئة الفلكية ، وما ثبت من التجارب فيها ، وبهذا يعد من عجائب القرآن التى تظهر فى كل زمان ومكان [٩] .

ثم قال السيد رشيد رضا :

فأصل السديم المشار إليه بقوله تعالى : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ . (فصلت : ١١) .

وأصل خلق الأحياء النباتية والحيوانية من الماء لا يزال ثابتًا عند جميع العلماء . وقد عبر به عن مادة التكوين ، التى هى مادة خراب العالم ، التى ترجع به هذه الأجرام إلى مادتها الأصلية بقوله تعالى : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . (الدخان : ١٠) . وعبر عنه كذلك: بالغمام فى قوله : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً . (الفرقان : ٢٥) . وقوله : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . (البقرة : ٢١٠).

والغمام فى اللغة : السحاب الرقيق ، فالدخان والغمام والبخار والسديم كلها مظاهر لهذه المادة اللطيفة (الماء) .

والسديم فى اللغة : الغمام والضباب ، واختاره علماء الفلك على الدخان وغيره ولا مشاحة فى الاصطلاح [١٠] .

وجاء فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ما يأتى :

وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ . لقد أخبرنا الله تعالى : أنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام فى سورة يونس ، والجديد هنا فى خلق السماوات والأرض هو الجملة

المعترضة : وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ . وما تفيده من أنه عند خلق السماوات والأرض أى : إبرازهما إلى الوجود فى شكلهما الذى انتهيا إليه ، كان هناك الماء وكان عرش الله سبحانه على الماء . أما كيف كان هذا الماء، وأين كان ، وفى أية حالة من حالاته كان ، وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء ؟؟ فزيادات لم يتعرض لها النص وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئًا على مدلول النص ، فى هذا الغيب الذى ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفى حدوده . وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقًا من النظريات التى تسمى: (العلمية) حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق ؛ فالنظريات العلمية قابلة دائمًا للانقلاب رأسًا على عقب ...

إن القرآن هو الأصل ، والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء ؛ أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن ، وقد تركها القرآن للعقل البشرى يعمل فيها بكامل حريته ، ويصل إلى النتائج التى يصل إليها بتجاربه ، ووكل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة ، وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة [١١] .

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً لقد خلق الله الكون فى ستة أيام وأتم إعماره وتجهيزه للإنسان ، وهو سبحانه مسيطر على الكون كله لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . والسياق يظهر أن خلق السماوات والأرض ، وإحكام نظام هذا الكون مع سيطرة الله تعالى على مقاليده ؛ كان من أجل الإنسان واختباره ، وقد أمد الله الإنسان بالعقل والإرادة والاختيار ، والاستعداد للاستقامة والانحراف ؛ ليجزى كل عامل بما عمل ، إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . (الكهف : ٧) .

لقد خلق الله الكون وأمده بمقومات الحياة ، وسيطر بقدرته على هذا الملك العظيم ، ثم خلق الإنسان ووهبه العقل والتفكير والاختيار ، والقدرة على عمل الخير والشر ، ثم أعد حياة أخرى للحساب والجزاء ، ومثوبة الطائع ومعاقبة العاصى ، ولكن الكافرين ينكرون البعث والحشر !!!

وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

أى : ولئن أخبرت هؤلاء المشركين : أن الله سيبعثهم بعد مماتهم للحساب والجزاء ليجيبنك الذين كفروا بلقاء الله قائلين : ما هذا القول إلا سحر بين ظاهر ، تسحر به العقول ، وتسحر به الضمائر والقلوب ؛ لتمنعنا عن لذّات الدنيا وتصرفنا عن متعنا إلى دعوتك ، وقد ألف الناس إطلاق السحر على كل أمر بديع غريب فائق، ومن ذلك قول فرعون وملئه لموسى: يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ . (الزخرف : ٤٩). وفى الحديث : «إن من البيان لسحرًا» وكأن الكفار أحسوا بما فى القرآن من الروعة والجلال والمقدرة

الفائقة، والسيطرة على النفوس ، والأخذ بزمام الأفئدة ، فادعوا أنه : سحر يؤثر ونسبوه إلى المردة والشياطين ؛ لأنه فوق طاقة البشر ، ولو أنصفوا لقالوا : إنه وحى السماء وكلام الله رب العالمين .

من بدع التفاسير :

قال النسفى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وما بينهما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ من الأحد إلى الجمعة ؛ تعليمًا للتأنى وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ أى : فوقه ، يعنى : ما كان تحته قبل خلق السماوات والأرض إلا الماء ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السماوات والأرض . قيل : بدأه بخلق ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة ؛ فصارت ماء ، ثم خلق ريحًا فأقر الماء على متنه ، ثم وضع عرشه على الماء ، وفى وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار [١٢] .

ونلاحظ أن كثيرًا مما يتعلق بأخبار بدء الخليقة ، قد نقله المفسرون عن الإسرائيليات، وهى أخبار نقلت عن بنى إسرائيل ، وقد أمرنا نبينا قائلا : «لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا ، وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد» [١٣] .

أقسام الإسرائيليات :

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : ما يعلم صحته لموافقته للقرآن أو السنة الصحيحة ، مثل : تعيين صاحب موسى بأنه الخضر ، فقد جاء هذا الاسم صريحًا فى حديث البخارى [١٤] وهذا القسم صحيح ومقبول .

القسم الثانى : ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا ، أو يكون مخالفًا لما يقرره العقل ، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته .

القسم الثالث : هو السكوت عنه فلا هو من قبيل الأول ، ولا هو من قبيل الثانى ، وهذا القسم نتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه [١٥] .

وغالب هذا القسم الثالث مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى ، ولهذا يختلف أهل الكتاب فيه كثيرًا ، ويختلف المفسرون عادة بسبب ذلك كما يذكرون فى مثل أسماء أصحاب أهل الكهف ، ولون كلبهم ، وأسماء الطيور التى أحياها إبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، حيث لا فائدة منه تعود على المكلفين فى دنياهم أو دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم جائز ، كما قال تعالى : سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... إلى آخر الآية (الكهف : ٢٢) .

ويقول أحمد شاكر : إن إباحة التحدث عنهم شيء ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن شيء آخر ؛ إذ أنه يوهم البيان والتفصيل لكتاب الله ، وحاشا لله ولكتابه من ذلك [١٦] .

★ ★ ★

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

أمة معدودة : أىْ : إلى جماعة من الأوقات مقدرة ، وتطلق الأمة على: الجماعة من جنس واحد، وقد تطلق على الدِّين والملّة . قال تعالى : إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ . (الزخرف : ٢٢). وقد تطلق على الزمن كما فى قوله تعالى : وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ . (يوسف : ٤٥) ، وهى فى الآية التى معنا ، بمعنى الحين والزمان والمدّة .

ليقولن ما يحبسه : أى : ليقولن ؛ استهزاء : ما يمنعه ؟

ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم: أى : إنه لو وقع بهم فلن يُدفع عنهم .

وحاق بهم : وأحاط بهم ، وضع الماضى موضع المستقبل ؛ تحقيقًا ومبالغة فى التهديد ، يقال: حاق به يحيق حيقا وحيوقا ، وأحاق يحيق به .

ولئن أذقنا الإنسان : المراد بالإذاقة هنا : الإعطاء القليل ، والمراد بالإنسان هنا : الكافر ، أو مطلق الإنسان.

رحمة : غنى وصحة .

نزعناها منه : سلبناها منه .

ليؤوس : شديد اليأس من عودة النعمة ، قنوط من رحمة الله .

كفور : شديد الكفر ، مبالغ فى كفران النعمة .

نـــعــــمــــاء : هى النعمة ويراد بها : الخير ، والمنفعة ، والصحة ، والغنى ويقابلها (الضّراء) وهى الألم من فقر وشدة .

الســـيـــئـــات : المصائب .

لـــفـــرح : يعتريه البطر والغرور بالنعمة .

فـــخـــور : متعاظم على الناس بسبب النعم .

صـــبـــروا : على الضراء ؛ إيمانًا بالله تعالى ، واستسلامًا لقضائه .

التفسير:

٨ - وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥ ... الآية .

كانت الرسل تبشر الناس برضوان الله تعالى إن أطاعوه ، وتحذرهم من عذاب الاستئصال فى الدنيا لكنَّ هذا الإنسان من طبيعته الجحود والكنود !

والمعنى : ولئن أخرنا – بفضلنا وكرمنا – عن هؤلاء المشركين العذاب إلى حين من الزمان ، على وفق سنتنا وحكمتنا . لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . (الرعد : ٣٨) ؛ لَّيَقُولُنَّ على سبيل التهكم والاستهزاء ، واستعجال العذاب: مَا يَحْبِسُهُۥ . أى : ما الذى جعل هذا العذاب الذى حذرنا منه محمد ﷺ محبوسًا عنَّا ؟ وغير نازل بنا ؛ فأجابهم الله سبحانه وتعالى بأنَّه إذا جاء الوقت الذى عينه الله تعالى لنزول ذلك العذاب ؛ لم يصرفه عنهم صارف .

أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

أى : ألا إن ذلك العذاب ، يوم ينزل بهم لن يدفعه عنهم دافع ؛ بل سيحيط بهم فى كل جانب بسبب استهزائهم وإعراضهم عمَّن حذرهم ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ . (الطور : ٧ ، ٨)

وقد افتتحت جملة : أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ بأداة الاستفتاح أَلَا للاهتمام بمضمون الخبر ، وللإشارة إلى تحقيقه ، وإدخال الروع فى قلوبهم .

٩ - وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ .

يذكر الحق سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان البشرية ، وهى الأنس بالنعمة والسكون إليها ، والجزع والضيق إذا سلبت عنه هذه النعمة ، وهذه الآية قريبة من قوله تعالى :

وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ .

(العصر : ١ – ٣)

وقد ذكر العلماء : أن المراد بالإنسان هنا : الإنسان الكافر ، وقيل : أى إنسان ، فيشمل المسلم والكافر ، وقيل : المراد به : إنسان معين هو : الوليد بن المغيرة ، وقيل : عبد الله بن أميّة المخزومى .

وجملة : مِنَّا رَحْمَةً . أى : نعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة فى المحن ، وسعة العيش والرخاء

ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ . أى : سلبناه إياها ، وأخذناها قهرًا عليه .

إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ . أى : آيس من الرحمة ، شديد القنوط من عودها وأمثالها ؛ لقلة صبره وعدم ثقته بالله .

كَفُورٌ . عظيم الكفران لما سلف له من التقلب فى نعمة الله ، كأنه لم ير خيرًا .

قال الشوكانى :

وفى التعبير بالذوق فى أَذَقْنَا ما يدل على أنه يكون منه ذلك ، عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه، لأن الإذاقة والذوق أقلّ ما يوجد به الطعم .

١٠ – وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ .

تصف الآية أيضًا طبيعة الإنسان البشرية ؛ حيث قال سبحانه فى سورة المعارج: إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا . (المعارج : ١٩ – ٢١) .

والنعماء : إنعام يظهر أثره على صاحبه ، **والضرّاء** : ظهور أثر الأضرار على من أصيب به .

والمعنى : أنه إن أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة والغنى ، بعد أن كان فى ضر من فقر أو خوف أو مرض ، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر [١٧] لله سبحانه .

قال صديق خان فى فتح القدير :

لَيَقُولَنَّ . أى : بل يقول : ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ . أى : المصائب التى ساءته من الضرّ والفقر والخوف والمرض عنه ، وزال أثرها ، غير شاكر لله ، ولا مثن عليه بنعمه .

إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . أى : كثير الفرح بطرًا وأشرًا ، كثير الفخر على الناس بتعدد المناقب والتطاول عليهم ؛ بما يتفضل الله به عليه من النعم . والفرح لذة تحصل فى القلب ؛ بنيل المراد والمشتهى . وفى التعبير عن ملابسة الضر له بالمسّ ، مناسبة للتعبير فى جانب النعماء بالإذاقة ، فإن كليهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة (١٨) .

لقد جاء الإسلام عقيدة وشريعة ، ومن مبادئ الإسلام : الإيمان بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومرّه ، واليقين الجازم بأن ما نزل بالمؤمن من مصائب أو ألم ؛ هى فى ميزان حسناته ، تكفر خطاياه وترفع درجاته ؛ فلا ينبغى للإنسان أن ييأس إذا نزل به الفقر أو الضرّ .

ولا ينبغى له أن يفرح ويتعاظم إذا جاءت له النعمة ؛ بل عليه أن يصبر فى البأساء ، وأن يشكر الله على النعماء ، وأن ينسب النعمة إلى صاحبها . قال تعالى : وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ . (النحل : ٥٣) .

١١ - إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

أى : لكن المؤمنين الصابرين على الضرّاء ؛ إيمانًا بالله ، واستسلامًا لقضائه ، وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فى الرخاء والشدة ؛ شكرًا لآلائه ، سابقها ولاحقها ؛ أُوْلَٰٓئِكَ . أى : هؤلاء المتصفون بالصبر ، وعمل الصالحات، لهم مغفرة لذنوبهم ، وثواب عظيم ؛ جزاء صبرهم الجميل ، وعملهم الصالح .

من تفسير القاسمى :

جاء فى تفسير القاسمى ج ٩ ص ٩٩ ما يأتى :

تنبيه :

قال القاشانى – قُدِّس سره – : ينبغى للإنسان أن يكون فى الفقر والغنى ، والشدة والرخاء ، والمرض والصحة ، واثقًا بالله ، متوكلاً عليه ، لا يحتجب عنه بوجود نعمه ، ولا بسعيه وتصرفه فى الكسب ، ولا بقوته وقدرته فى الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ؛ لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب ، والكفران والبطر والأشر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينساه ؛ فينساه الله ؛ بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره ، فإن أتاه رحمة من صحة أو نعمة ، شكره أولاً برؤية ذلك منه ، وشهود المنعم فى صورة النعمة ، وذلك بالقلب ، ثم بالجوارح ؛ باستعمالها فى مراضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقنًا بأنه القادر على سلبها ، محافظًا عليها بشكرها ، مستزيدًا إياها ، اعتمادًا على قوله تعالى : لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . (إبراهيم : ٧) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر ، ثم إن نَزَعَها منه ، فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالمًا بأنه هو الذى نزع دون غيره ، لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد المشفق فى تربيته إياه ، بل أرأف وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يعلمه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً ، راضيًا بفعله ، راجيًا إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ القانط من رحمته ؛ بعيد منه ، لا يستوسع رحمته ؛ لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ؛ فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس . وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، وبأى سبب يسوغ له فخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ومن الله .

وقوله تعالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ . استثناء من الإنسان أى : هذا النوع يئوس كفور ، فرح فخور ، فى الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، فى حالة الضراء والنعماء ، والشدة والرخاء ، كما قال عمر رضى الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ، لا أبالى أيهما أمتطى . انتهى .

★ ★ ★

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

فلعلك : هنا للاستفهام الإنكارى الذى يراد به النفى أو النهى أى : لا تترك .

تارك بعض ما يوحى إليك : فلا تبلغهم إياه ، وهو ما يخالف رأى المشركين ؛ مخافة ردِّهم واستهزائهم .

وضائق به صدرك : وعارض لك ضيق الصدر .

أن يقولوا : كراهة أن يقولوا .

لولا أنزل عليه كنز : أى : هلاً صحبه كنز ينفقه ؛ لكسب الأتباع كالملوك ، والكنز : المال الحاصل بغير كسب.

أو جـاء مـعـه ملك : يصدّقه كما اقترحنا .

إنما أنت نذير : ليس عليك إلاّ الإنذار والتخويف من العاقبة لا الإتيان بما اقترحوه .

افـتـراه : اختلقه من عند نفسه .

مـفـتـريـات : مختلقات من عند أنفسكم .

وادعوا من استطعتم : أى : نادوهم ليعانوكم .

تمهيد :

كان كفار مكة يقترحون على النبى ﷺ اقتراحات متعددة ، مثل : تفجير الأرض بالمياه ، أو زحزحة الجبال بعيدًا عن مكة ؛ ليكون هواؤها عليلاً بليلاً ، أو أن ينزل عليه ملك من السماء ، يصحبه ويدعو الناس إلى الإيمان به وتصديقه ، أو أن ينزل عليه كنز من السماء ينفق منه على أتباعه ؛ وقد حكى عنهم القرآن ذلك فقال : وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (الفرقان : ٧ ، ٨) .

جاء فى تفسير الفخر الرازى : عن ابن عباس : أن رؤساء مكة قالوا : يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهبًا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك ؛ فقال : لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية .

التفسير :

١٢ – فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ... الآية .

أى : لعلك أيها الرسول تارك بعض ما يوحى إليك أحيانًا أن تلقيه إليهم ، وتبلغه إياهم ؛ مخافة ردّهم له وتهاونهم به ، كسبٍّ آلهتهم ، وأمرهم بالإيمان بالله وحده .

أى : لا يكن منك ذلك ، بل تبلغهم جميع ما أنزل إليك ، أحبّوا ذلك أم كرهوه ، ولا يضق صدرك بأقوالهم الذميمة ، بل واصل دعوتك ، وبلغ رسالة الحق ، وفى هذا المعنى قال تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . (الحجر : ٩٧) .

أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .

أى : لا تتضايق لأجل أن يقولوا : هلا أنزل عليه كنز من عند ربه يغنيه عن التجارة والكسب ، ويدل على صدقه.

أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ . أى : ينزل عليه ملك من السماء يؤيد دعوته .

وهذا التحذير من الله ؛ لا يستلزم وقوع مثله من الرسول ﷺ ؛ لأنه ثبت : أن الله عصم رسوله ﷺ من الخيانة ، أو الامتناع عن تبليغ وحْى السماء .

جاء فى تفسير أبى السعود :

فكأنه ﷺ لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم ، غير قانعين بالبينات الباهرة ، مثَّل حاله بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره ؛ بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم ، وتبليغها إليهم ، فحمل على الحذر بما فى لعل من الإشفاق اهـ .

إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ .

أى : ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، غير مبال بما يقولون ، ولا بما يقترحون ؛ ولك أسوة فى الرسل من قبلك ؛ حيث كُذِّبوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ . أى : والله هو الرقيب على عباده الحفيظ للأمور ، وهو سبحانه سيجازيهم الجزاء الأوفى .

١٣ - أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ.

أى : بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة : إن محمدًا قد افترى هذا القرآن ، واخترعه من عند نفسه.

قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ .

أى : ردّ عليهم أيها الرسول الكريم بما يخرس ألسنتهم ، وقل لهم على سبيل التحدّى : إن كان هذا الأمر كما تزعمون : من أنّى افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منكم ، وبشر مثلكم ، وأنتم أهل اللسن والبيان ؛ والمران على المفاخرة بالفصاحة والبلاغة ، وفنون الشعر والخطابة ، فهاتوا عشر سور مختلفات من عند أنفسكم ؛ تشبه ما جئت به ، وتشتمل على مثل ما فيه من تشريع دينى ومدنى وسياسى ، وحكم ومواعظ ، وآداب ، وأنباء غيبية محكية عن الماضى ، وأنباء غيبية على أنها ستأتى ، بمثل هذا النظم البديع ، والأساليب الراقية ، والبلاغة الحاكمة على العقول والألباب ، والفصاحة المستعذبة فى الأذواق والأسماع ، والسلطان المستعلى على الأنفس والأرواح [١٩] .

وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

أى : استعينوا فى بلوغ هذا الأمر بكل من تتوسمون فيه المعاونة - غير الله تعالى - لأنه هو سبحانه القادر على أن يأتى بمثله .

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم : أنى افتريت هذا القرآن ؛ فهاتوا - أنتم - عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم ، وجواب الشرط هنا محذوف دل عليه ما تقدم من الآية .

التحدى فى القرآن الكريم

جاء الإسلام رسالة للعرب خاصة ، وللناس عامة ؛ بيد أن كفار مكة رفضوا دعوة الإسلام ، وكذّبوا رسول الله محمدًا عليه الصلاة والسلام ، ووقفوا فى وجه الدعوة وحاربوها سنوات طوال ، تعرضوا فيها للقتل والهزيمة والعار ، وفى كل هذه السنوات يتحداهم القرآن ، أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور مثله مفتريات ، أو بسورة واحدة ، وفى كل مرة يلزمهم العجز مع شدة الحاجة إلى الإتيان بمثل هذا القرآن ، حتى يفحموا محمدا ويستريحوا منه ، وهم أهل اللسن والفصاحة والبيان ، وأهل الشعر والخطب والكلام البليغ ، وقد تحداهم القرآن هنا أن يأتوا بعشر سور يختلقونها من عند أنفسهم ، مستعينين بكل أعوانهم ؛ ليبرهنوا على أن القرآن من اختراع محمد ، ولكن العجز لزمهم ، وهم أهل البيان والفصاحة ، فصار غيرهم أعجز ؛ قال تعالى : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

وقال سبحانه : فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ . (الطور : ٣٤) .

وهنا فى الآية ٣٤ من سورة هود تحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وتارة تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما فى سورة البقرة وسورة يونس حيث قال تعالى : وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ . (البقرة ٢٣ ، ٢٤) .

وقال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . (يونس : ٣٨)

وجمهور المفسرين : على أن التحدّى تدرج من جميع القرآن إلى عشر سور إلى سورة واحدة .

ولكن السيد رشيد رضا فى تفسير المنار ساق موضوعًا طويلا عن التحدّى بالقرآن ، وخرج من دراسته إلى رفض ما ذكره الجمهور ، وذكر : أن القرآن الكريم كان يواجه المشركين فى مواقف متعددة ، وحالات مختلفة ، فكان يطلب فى كل حالة ما يناسب هذا الموقف .

جاء فى تفسير المنار ما يأتى :

وإننى أجزم هنا – بعد التأمل فى جميع آيات التحدى وتاريخ نزول سورها – أنها لم يكن مراعى بها الترتيب التاريخى فى مخاطبة المشركين كما زعم جمهور المفسرين ، بل ذكر كل منها بمناسبة سياق سورته فسورة الطور التى فيها : **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ** . (الطور : ٢٣ ، ٢٤) .

وهو تحدٍّ بجملته ، قد نزلت بعد سورة يونس التى تحداهم فيها أن يأتوا بسورة واحدة ، وسورة هود التى تحداهم أن يأتوا بعشر سور ، وسورة الإسراء نزلت قبلهن وفيها ذكر عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ، وذلك فى الآية ٨٨ من سورة الإسراء ، وكان آخر ما نزل فى التحدى الآية ٢٣ من سورة البقرة ؛ إذ كان نزولها فى السنة الثانية للهجرة [٢٠] .

من تفسير التحرير والتنوير :

وَمِّن دُونِ اللَّهِ . وصف لـ **مَنِ اسْتَطَعْتُم** ، ونكتة ذكر هذا الوصف ؛ التذكير بأنهم أنكروا أن يكون من عند الله ، فلما عمّم الاستعانة بمن استطاعوا ؛ أكد أنهم **مِّن دُونِ اللَّهِ** . فإن عجزوا عن الإتيان بعشر سور مثله ؛ مع تمكنهم من الاستعانة بكلّ من عدا الله ، تبين أن هذا القرآن من عند الله [٢١] .

ملحق بالآية

أورد تفسير المنار بيانًا وافيًا بما اشتمل عليه القرآن الكريم ، وقد اقتبس منه تفسير المراغى للأستاذ: أحمد مصطفى المراغى ما يأتى ج ١٢ من ١٤ ، ١٥ :

ما حوته قصص القرآن

إن فى قصص القرآن لأشعةً من ضياء العلم والهدى ، جاءت على لسان كهل أمى لم يكن منشئًا ولا راوية ولا حافظًا .

ويمكن أن نجمل أغراضها فيما يلى :

١ - بيان أصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله وتوحيده وعلمه وحكمته وعدله ورحمته والإيمان بالبعث والجزاء .

٢ - بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحى الله لعباده فحسب ، ولا يملكون وراء ذلك نفعًا ولا ضرًّا .

٣ - بيان سنن الله فى استعداد الإنسان النفسى والعقلى لكل من الإيمان والكفر والخير والشر .

٤ - بيان سنن الله فى الاجتماع وطباع البشر ، وما فى خلقه للعالم من الحكمة .

٥ - آيات الله وحججه على خلقه فى تأييد رسله .

٦ - نصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم ، كقوم نوح فى غوايتهم وغرورهم ، وقوم فرعون وملئه فى ثروتهم وعتوهم ، وقوم عاد فى قوتهم وبطشهم ، وقوم لوط فى فحشهم .

فإن أمكن أن يكون كل هذا حديثًا مفترى ، فإن مفتريه يكون أكمل منهم جميعًا ، علما وعملا وهداية وإصلاحا ، فما أجدرهم أن يتبعوه ، وما أحقهم أن يهتدوا بهديه ، ولن يكشف حقيقة أمره إلا من يستطيع أن يأتى بحديث مثله ، ولو مفترى فى صورته وموضوعه ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، ومن المعلوم أن الاحتداء والاتباع ، أهون من الابتداء والابتداع .

ولكن افتراء الأمى لهذه العلوم الإلهية والنفسية والتشريعية محال ، فقد عجز عن مثلها حكماء العلماء ، أفهكذا يكون الافتراء ، والحديث المفترى الذى يُنْهَى عنه العقلاء . وفى التحدى بهذه السور العشر ؛ توسيع على المنكرين إن حدثتهم أنفسهم أن يتصدوا لمعارضته ، لكنهم لم يستطيعوا فقامت عليهم وعلى غيرهم الحجة إلى يوم القيامة [٢٢] .

١٤ - فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ .

لهذه الآية وجهان :

الوجه الأول :

ذهب إليه ابن جرير الطبرى وكثير من المفسرين وأساسه : أن الخطاب فيها موجه إلى المشركين . والمعنى: إذا عجزتم عن الإتيان بعشر سور مثله مفتريات ، وعجز من استعنتم بهم عن إجابتكم وتقديم هذه السُّور لكم ؛ فينبغى أن تعلموا علم اليقين أنَّ هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله وحده ، وبقدرته وحدها ، ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه .

واعلموا أيضًا أنه سبحانه هو الإله الحق وحده ، لا شريك له ، فليس معه إله آخر ، فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة داخلون فى الإسلام ، ومتبعون لما جاء به محمد ﷺ .

والمراد بالعلم : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، بصحة الإسلام ، وصدق القرآن ، وأن أحدًا لا يقدر على الإتيان بمثله إلا الله .

الوجه الثالى :

أن الخطاب فيها موجه للرسول ﷺ ، والجمع فيها للتعظيم ، أو أن الخطاب فيها للرسول ﷺ وللمؤمنين معه ، وقيل : الخطاب فيها للمؤمنين وحدهم .

قال مجاهد : الخطاب لأصحاب محمد ﷺ فى هذه الآية .

والمعنى : إن لم يستجب لك هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق – بعد عجزهم عن الإتيان بعشر سور مثل القرآن – فازدادوا علمًا ويقينًا بصدق القرآن ، وأنه من عند اللّٰه سبحانه ، وازدادوا علما ويقينا بأنه لا إله إلا هو سبحانه المستحق للعبادة وحده .

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ، ثابتون على الإسلام ، مؤمنون به ، ملتزمون بكل أوامره ونواهيه [٢٣] ؟.

★ ★ ★

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

المفردات :

نوف إليهم : نوصل إليهم ، ونؤتهم ثمار أعمالهم وافية تامة ؛ جزاء ما عملوا من خير كصدقة وصلة رحم.

لا يبخسون : أى : لا ينقصون من حقهم ، يقال : بخسه حقَّه ، يبخسهُ بخْسًا ، أى : نقصه حقه .

وحبط : أى : فسد وبطل ولم ينتفعوا به .

تمهيد

بعد أن أقام الحجة على حقيقة دعوة الإسلام ، وعلى أن القرآن من عند الله ، وليس بالمفترى من عند محمد ﷺ كما يدعيه المشركون ، أعقب ذلك ببيان : أن الباعث على المعارضة والتكذيب ، هو الهوى، والشهوة، ومحض الحسد ، وحظوظ الدنيا .

التفسير:

١٥ - مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ .

من أراد بأعماله الوجاهة والشرف ، والرفعة بين الناس - بدون إخلاص لله أو رغبة فى ثواب الآخرة - فإن الله تعالى يوصل إليه جزاء عمله فى الدنيا بحسب سننه الكونية ؛ فيلقى النجاح ، أو الصحة ، أو الغنى ، أو سعة الرزق ، أو كثرة الأولاد ، بحيث يلقى المكافأة على أعماله فى الدنيا وحدها ، بدون نقص أىِّ شىء من جزاء عمله .

١٦ - أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

جاء فى تفسير أبى السعود :

«أى : أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها ، الموفَّون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس .

ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ؛ لأن هممهم كانت مصروفة إلى الدنيا ، وأعمالهم مقصورة على تحصيلها ، وقد اجتنوا ثمرتها ، ولم يكونوا يريدون بها شيئًا آخر ؛ فلا جرم لم يكن لهم فى الآخرة إلا النار وعذابها المخلّد [٢٤] .

وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا . وفسد ما صنعوه فى الدنيا من أعمال الخير ؛ لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله تعالى ، وإنما قصدوا بها الرياء ورضى الناس .

وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . وبطل ثواب عملهم فى الآخرة ؛ لأنهم لم يريدوا وجه الله تعالى ، والعمدة فى الثواب الأخروى هو الإخلاص لله عز وجل ونظير الآيتين فى المعنى قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (الشورى : ٢٠) .

وقوله عز شأنه : مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَـٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . (الإسراء : ١٨ ، ١٩) .

وقريب من هذا المعنى قوله سبحانه : فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . (البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢) .

وقد ذهب بعض المفسرين : إلى أن المراد بالآيتين : الكفار والمنافقين ومن على شاكلتهم .

وذهب كثير من المفسرين : إلى أن هاتين الآيتين وأمثالهما ، معانيها مطلقة تشمل الكافر والمؤمن ؛ وقد وردت أحاديث صحيحة تحذر من الرياء والنفاق ، وتدعو إلى إخلاص العمل لوجه الله تعالى ، فمن قصد بعمله وجه الله تعالى ؛ لقى الجزاء فى الدنيا والآخرة ، ومن قصد بعمله الرياء ؛ لقى الجزاء فى الدنيا وحدها ، ولم يجد جزاء فى الآخرة .

من هدى السنة

روى البخارى ومسلم : عن عمر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ؛ فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» [٢٥] .

وفى الحديث الشريف : «إن أوَّل من يلقى فى النار يوم القيامة عالم ، ومتصدق ، وشهيد ، يقول العالم: يا رب ، علَّمت الناس آناء الليل وأطراف النهار ؛ فيقال له : إنما علَّمت ؛ ليقال عالم ، أما وقد قيل ذلك ، اذهبوا به إلى النار ، ويقول المتصدق : يا رب ، تصدقت بالمال آناء الليل وأطراف النهار ؛ فيقول له الله تعالى : أما إنك تصدقت ؛ ليقال كريم أما وقد قيل ذلك ، اذهبوا به إلى النار ، ويقول الشهيد : يا رب ، قاتلت فى سبيلك حتى قُتلت ؛ فيقول له الله تعالى : أما إنك قاتلت ليقال شجاع ، أما وقد قيل ذلك ، اذهبوا به إلى النار . ثم يقول الله تعالى : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً يقصد به غيرى ؛ فليلق جزاءه من ذلك الغير» .

وهذه الآيات والأحاديث تحث على إخلاص العمل خصوصًا العبادات والقربات ، والبعد عن الرياء ؛ فالمذموم هو التظاهر بالعمل للآخرة ، بينما هو فى نيته العمل للدنيا وحدها .

«والإسلام يدعو إلى إيثار العمل للآخرة على عمل الدنيا فى النية والقصد ، فإن قصد الدنيا والآخرة معًا ، كان ذلك مقبولاً شرعًا» [٢٦] .

«وليس أحدٌ يعمل حسنة إلاّ وُفِّى ثوابها ؛ فإن كان مسلمًا مخلصًا ؛ وفِّى ثوابها فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرًا وفِّى ثوابها فى الدنيا» [٢٧] .

★ ★ ★

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

بينة : حجة وبيان وبرهان .

ويتلوه : ويتبع ذلك البرهان .

شاهد منه : أي : شاهد من الله وهو القرآن .

ومن قبله : أي : ومن قبل القرآن .

كتاب موسى : التوراة شاهد له أيضًا .

إمامًا : كتابًا مؤتما به فى الدّين .

أولئك : أي : من كان على بينة من ربه .

يؤمنون به : أي : بالقرآن .

من الأحزاب : من أهل مكة ومن تحزب معهم .

فلا تك فى مرية منه : أي : فى شك من القرآن .

ولكن أكثر الناس : أهل مكة وأمثالهم .

لا يؤمنون : لقلة نظرهم ، واختلال فكرهم .

التفسير:

١٧ – أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ... الآية .

تأتى هذه الآية ؛ لتقارن بين موقف الرسول ﷺ والمؤمنين معه ، فى يقينهم وإيمانهم بالله وبالدار الآخرة ، وبين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها .

والمعنى : أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه ؟ تهديه إلى الحق والصواب فى كل أقواله وأفعاله، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه ، ويؤيده فى دعوته شاهد من ربه ؛ هو هذا القرآن المعجز لسائر البشر –

أفمن كان هذا شأنه ، كمن ليس كذلك ؟! أو أفمن كان هذا شأنه ، كمن استحوذ عليه الشيطان فجعله لا يريد إلاّ الحياة الدنيا وزينتها ؟! كلا إنهما لا يستويان .

وَمِن قَبْلِهِ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً .

وكذلك يؤيده كتاب موسى عليه السلام – وهو التوراة – الذى أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم ، أى : كتابًا مؤتمًّا به فى الدين وقدوة يقتدون به ، ورحمة لبنى إسرائيل من العذاب إذا آمنوا به واتبعوا تعاليمه .

أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .

أى : أولئك الموصوفون بأنهم على بينة من ربهم ؛ يؤمنون بأن الإسلام هو الدّين الحق ، وبأن رسوله ﷺ رسول صدق ، وبأن القرآن من عند الله تعالى وحده .

وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ .

ومن يكفر بالقرآن ، وبما جاء به محمد ﷺ من هدايات ، من أهل مكة ، ومن تحزبوا على النبى ﷺ من اليهود والنصارى والوثنيين ؛ فإن نار جهنم هى المكان الذى ينتظره ، وينتظر كل متحزب ضد دعوة الإسلام.

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .

أى : فلا تكن أيها المكلّف السامع فى شك من أمر هذا القرآن ؛ فإنه حق من الله لا ريب ولا شك فيه والخِطاب بقوله : فَلَا تَكُ . للنبى ﷺ والمراد : جميع المكلفين .

وفى بداية سورة السجدة يقول الله تعالى : الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . (السجدة : ١ ، ٢).

وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولكن أكثر أهل مكة وغيرهم لا يؤمنون بهذا الكتاب ؛ لأن المشركين مقلدون مستكبرون ، وأهل الكتاب حرفوا دين أنبيائهم .

قال تعالى : وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . (يوسف : ١٠٣) .

والآية كما ترى ميّزت بين من كان على الحق راغبًا فى الآخرة ، ومن كان على الباطل راغبًا فى الدنيا ، وساقت حشودًا من الأدلة على صدق الرسول ﷺ فى دعوته ، وصحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم

بالثبات على الحق ، وبينت أن القرآن حق ثابت من عند الله ؛ فلا يشكن أحد بذلك ، وليبادر إلى الإيمان بما جاء به .

فى أعقاب الآية

تعددت أقوال المفسرين فى المراد بهذه الآية ، وقد أخذت أقوى الآراء وهى : أن المراد بقوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ . هم المؤمنون بالنبى محمد ﷺ .

وقيل : هو النبى ﷺ ، وقيل : مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، وقيل : المراد بالبينة : دليل العقل ، وبالشاهد : القرآن .

وقيل : البينة : القرآن ، والشاهد : جبريل والأول هو الأولى [٢٨] .

من هدى السنّة

فى صحيح مسلم : عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

«والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة [٢٩] يهودى أو نصرانى ، ثم لا يؤمن بى ؛ إلا دخل النار» [٣٠] .

★ ★ ★

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

المفردات :

ومن أظلم : لا أحد .

افترى على الله كذبا : بنسبة الشريك والولد إليه ، أو زعم بأن الأصنام تشفع لعابديها عند الله ، أو زعم بأن الملائكة بنات الله ، أو أنكر نبوة محمد ، أو زعم أن القرآن ليس من عند الله .

يعرضون على ربهم : المراد : يحاسبهم ربهم .

الأشهاد : جمع شاهد وهم الملائكة أو الرسل يشهدون على قومهم .

لعنة الله : اللعنة واللعن : الطرد من رحمة الله .

يصدون : يمنعون ويصرفون الناس عن الإسلام .

ويبغونها : أي : ويطلبونها ، يقال : بغى الشيء يبغيه بُغية طلبه .

عوجا : العوج : الالتواء .

هم : تأكيد للأولى .

معجزين : أى : ما كانوا معجزين لله فى الدنيا أن يعاقبهم ، ولا يمكنهم أن يهربوا من عذاب الله تعالى.

من دون الله : أى : غيره .

أولياء : أنصارًا ومعينين يمنعونهم من العذاب .

يضاعف لهم : بإضلالهم غيرهم .

ما كانوا يستطيعون السمع : للحق .

وما كانوا يبصرون : أى : يبصرونه ؛ لفرط كراهيتهم له ، كأنهم لم يستطيعوا ذلك .

خسروا : ضيعوا ، يقال : خسر يخسر خسرًا وخسارًا وخسارة ، ضد ربح .

وضل عنهم : وتاه عنهم .

لا جرم : أى : حقًّا ، وهى كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابُدّ ، ولا محالة ، فتحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمعنى حقا .

وأخبتوا : أى : اطمأنوا إليه وخشعوا إليه ؛ مأخوذ من الخبت وهو الأرض المطمئنة .

مثل الفريقين : أى : المؤمن والكافر .

كالأعمى والأصم : فالكافر أعمى عن رؤية الحق ، أصم ، أطرش لا يسمع الحق .

والبصير والسميع : هذا مثل المؤمن .

هل يستويان مثلا : هل يستويان تمثيلا وحالا .

أفلا تذكرون : أى : أفلا تتذكرون ، حذفت إحدى التاءين ؛ تخفيفًا .

تمهيد :

بعد أن تحدث القرآن عن فريقى الناس وهما : الذى يريد الدنيا وزينتها ، والذى يريد الآخرة ، أبان حال كل من الفريقين فى الدنيا والآخرة .

ثم ردّ القرآن على من كانوا ينكرون نبوة محمد ﷺ ، ويقدحون فى معجزاته ؛ بقوله : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ... ثم ردّ القرآن على المشركين الذين يزعمون : أن الأصنام شفعاؤهم عند الله ، بقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ... الآيات .

التفسير:

١٨ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ... الآية .

أى : لا أحد أشد ظلمًا ممن تعمد الكذب على الله تعالى ، بأن زعم : أن الأصنام تشفع لعابديها عنده ، أو زعم : بأن الملائكة بنات الله ، أو أن هذا القرآن ليس من عنده سبحانه .

أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ . أى : عرضًا خاصًا ، فالعرض على الله شامل للناس جميعًا ؛ لكن أولئك الموصوفون بافتراء الكذب ، يعرضون كما يعرض المجرم للقصاص منه ، ولفضيحته أمام الناس .

وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ .

أى : تقول الرسل ، أو الملائكة ، أو العلماء : هؤلاء المجرمون هم الذين كذبوا على ربهم ، ونسبوا إليه ما هو منزه عنه .

أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ . هذا تعقيب من الرسل ، أو الملائكة ، أو أهل المشهد من الخلائق التى شهدت هذا العرض .

وفى مثل هذه الآية يقول الله تعالى :

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ . (غافر : ٥١ ، ٥٢) .

جاء فى تفسير ابن كثير :

روى الإمام أحمد والشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة : «إن الله عز وجل يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرّره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟! أتعرف ذنب كذا ؟! أتعرف ذنب كذا ؟! حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك ؛ قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وإنى أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ [٣١] .

١٩ - ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ... الآية .

أى : ألا لعنة الله وخزيه على الظالمين ، الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم عن الحق ، بل يحاولون صرف غيرهم عن ملة الإسلام ، ويطلبون لملة الإسلام العوج ، ويصفونها بذلك ؛ تنفيرًا للناس منها، وهم يريدون أن يكون طريق الناس عوجًا غير معتدلة .

وَهُم بِٱلۡآخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ . والحال أنهم كافرون بالآخرة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، وأعاد لفظ هُمۡ ؛ تأكيدًا لكفرهم ، وللإشارة إلى أنهم بلغوا فيه مبلغًا لم يبلغه أحد سواهم .

٢٠ - أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ... الآية .

أى : أولئك الذين افتروا على الله الكذب ، وحاولوا صرف الناس عن الإسلام ، وكفروا بالآخرة ، لم يكن سبحانه وتعالى عاجزًا عن إنزال العذاب بهم فى الدنيا ، بل هم تحت قهره وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم فى الدنيا قبل الآخرة ، وليس لهم من أنصار ينصرونهم من دون الله تعالى ويحجبون عنهم العذاب فهم غير قادرين على الفرار من عذابه بأنفسهم ، وليس لهم أنصار قادرين على تخليصهم ، لكنَّ حكمة الله سبقت فى إمهال الظالمين إلى يوم القيامة .

يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ . سيلقون العذاب مضاعفًا فى الآخرة ؛ لأنهم صَمُّوا أسماعهم عن الاهتداء إلى الحق ، وأغمضوا عيونهم عن النظر فى أدلة الإيمان .

لقد كانت لهم أسماع وأبصار حسية ، لكنهم لم يستخدموها استخدام الباحث عن الحقيقة ؛ فعَطلوا منافذ الإيمان فى أجسامهم ، وقريب من ذلك قوله تعالى : وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (الملك : ١٠) .

وفى معنى الآية يقول الله تعالى : وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ . (إبراهيم : ٤٢) .

وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» .

وعلة مضاعفة العذاب ، هى إهمال الاستماع إلى الحق ، وإهمال النظر فى أدلة الإيمان ، الدالة على صدق الوحى كما قال تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ . (فصلت : ٢٦) .

٢١ - أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ .

أى : أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان ، هم الذين خسروا أنفسهم حيث أوردوها المهالك ؛ بسبب تعمدهم الكذب على الله ؛ لقد كانوا أكثر الناس خسارة ؛ حيث باعوا أنفسهم للشيطان ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وذلك هو الخسران المبين .

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ . غاب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من اعتقادات باطلة ، ولم تنفعهم عقائدهم الزائفة فى الأصنام والأنداد ؛ فلم تُجْدِ عنهم شيئًا ؛ بل ضرتهم كل الضرر .

قال تعالى : وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا . (مريم : ٨١ ، ٨٢) .

٢٢ - لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ .

حقًا إنهم فى الآخرة أخسر الناس صفقة ، ولا شك أنهم اشتروا الضَّلالة بالهدى ، وآثروا الدنيا على الآخرة ، واستبدلوا بنعيم الجنان ودرجاتها ، عذاب جهنم ودركاتها ، واعتاضوا عن نعيم الجنان ، بعذاب النيران ، وعن رضوان الله ، بغضبه وعقابه .

قال تعالى : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ . (البقرة : ١٦) .

٢٣ - إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

الإخبات : الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب .

تأتى هذه الآية فى مقابل الظالمين لأنفسهم ، فقد اشتروا الضلالة بالهدى فكانوا فى الآخرة هم الأخسرون ، أما المؤمنون الذين آمنوا إيمانًا حقًا ، وعملوا الأعمال الصالحة ، واطمأنوا إلى قضاء الله وقدره ، وخشعوا لأمر الله بقلوبهم ونفوسهم ؛ فثابروا على الطاعات وتركوا المنكرات ؛ فلهم جنات النعيم ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهم خالدون فيها ، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ . (البينة : ٨) .

٢٤ – مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ .

أى : صفة الفريقين المذكورين اللذين وصفا سابقًا ، وهم الكفار بالشقاء ، والمؤمنون بالسعادة، كمثل الأعمى الأصم ، والسميع البصير ، الكافر: مثل الأعمى ؛ لتعاميه عن وجه الحق فى الدنيا والآخرة ؛ ومثل الأصمّ ؛ لعدم سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ؛ لقد أغلق مفاتيح قلبه ، وتركه مظلما لا يسمع الهدى ، ولا يبصر نور الحق حتى فاجأه الموت فرأى الخسران المبين ، ورأى جهنم تتلظى ؛ غيظًا على من عصى الله تعالى.

أما المؤمن فهو الذى يبصر آيات الله فى هذا الكون ، ويتأمل دلائل قدرة الله ، ويسمع صوت الحى ، والقرآن فى تدبر وتأمل ؛ فيخشع قلبه ويزداد حيًّا لخالقه ورضىً عنه ؛ فإذا جاء فى الآخرة وجد رضوان الله ونعيم الجنة ، فلا يستوى هذا وذاك صفة وحالاً ومآلاً .

أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ . وتعتبرون ؛ فيسارع الكافر إلى الإيمان قبل فوات الأوان .

من آيات القرآن

قال تعالى : لاَ يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ . (الحشر : ٢٠) .

وقال سبحانه : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلاَ ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلاَ ٱلنُّورُ * وَلاَ ٱلظِّلُّ وَلاَ ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلاَ ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ (فاطر : ١٩ – ٢٢) .

وفى ختام هذا الحديث المتنوع عن أدلة الوحدانية ، وعن إعجاز القرآن الكريم ، وعن حسن عاقبة المؤمنين وعن سوء عاقبة المكذبين ؛ ساق القرآن قصصًا عن أنبياء الله ورسله ، استغرق معظم السورة ، وفى هذا القصص نماذج عملية على جهاد المرسلين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، وهلاك الظالمين ؛ ففيه تسلية للرسول ﷺ ، وتثبيت للمؤمنين ، نجد ذلك فى قصة نوح ، ثم قصة هود ، وقصة صالح ، وقصة إبراهيم ، وقصة لوط ، وقصة شعيب ، وقصة موسى عليهم السلام .

قصة نوح عليه السلام

وردت قصة نوح فى سور متعددة ، منها : سورة الأعراف ، وسورة المؤمنون ، وسورة نوح ، إلا أنها وردت هنا فى سورة هود بصورة أكثر تفصيلا .

وسورة هود نزلت بعد سورة يونس ، وسورة يونس نزلت بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة وشهرين ؛ وذلك يوضح الفترة التى نزلت فيها سورة هود ، إنها الفترة التى مات فيها أبو طالب عم

النبى ﷺ ، وماتت فيها زوجته خديجة ، وقد سمى الرسول ﷺ عام وفاتها : عام الحزن ؛ ذلك أن قريشًا لم تستطع أن تنال من رسول الله ﷺ ، إلا بعد أن مات عمّه أبو طالب ، وكان أبو طالب هو الوحيد فى قومه الذى يحميه ويدافع عنه .

كانت سورة هود ، رسالة تشد أزر الرسول ﷺ ؛ ففى مقدمتها عرض يسير للدعوة الإسلامية ؛ وأصناف الناس أمامها ، وتثبيت لقلب الرسول ﷺ ، ثم يأتى قصص الأنبياء حسب التسلسل التاريخى ، نوح ثم هود ، ثم صالح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب ، كما تحدثت عن جانب من قصة موسى عليه السلام .

وجميع هؤلاء الرسل كان لهم جهاد وجلاد ومناقشة مع أقوامهم ؛ وتحمُّل لألوان من العذاب والاضطهاد وفى الخاتمة ينصر الله المؤمنين ويهلك الكافرين .

نوح عليه السلام

أرسل الله نوحًا إلى قومه فوجد أنهم يعبدون الأصنام ، وكانت فى الأصل صورًا لقوم صالحين وتماثيل لهم ؛ أراد القوم أن يتذكروهم ويقتدوا بهم ، فلما طال العهد عبدوهم ، وتقربوا إليهم ، وهم : ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وفى قصة نوح بلاء نوح مع ابنه ، ودعوته له إلى الإيمان ، وإعراض الابن عن دعوة نوح ، ومجىء الطوفان ، وغرق الابن ، ودعاء نوح لربّه حتى ينجيه ، ثم توضيح الله سبحانه بأن هذا الابن لا يستحق نجاة ؛ لأنه عمل عملا غير صالح ، ويعود نوح إلى يقينه وطمأنينته ، ويستعيذ بالله مما سبق ، ويطلب من الله المغفرة والرحمة ، ويستجيب الله دعاءه ، ويهيئ له سبل النجاة وسلامة الإقامة .

وفى هذا القصص وأمثاله عبرة وعظة ، وتصديق لما ورد منه فى التوراة والإنجيل ، وتفصيل لتاريخ الرسل وكفاحهم ، وتسجيل لجهادهم ، وتسرية لقلب الرسول ﷺ ، وتثبيت للمؤمنين ، وتبصير للكافرين .

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

نذير مبين : بيّن الإنذار ، أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص ، وجمع نذير : نُذر .

الملأ : الأشراف والزعماء ؛ يملؤون العيون مهابة .

إلا بشرا مثلنا : لا فضل لك علينا ، ولا مزية لك علينا تخصُّك بالنبوة ووجوب الطاعة .

أراذلنا : أخساؤنا جمع أرذل ، وهو بمعنى : الرذل والرذيل . أى : الردىء الدُّون ، يقال: رذُل يرذُل، ورذِل يرذَل رذَالة ، كان رذيلا .

بادى الرأى : أى : ابتداءً من غير تفكير ، من البُدُوّ وهو أوّل الرأى .

وما نرى لكم علينا من فضل : أى : زيادة تؤَهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة .

التفسير :

٢٥ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

تبدأ هذه القصة بواو القسم ؛ ذلك أن أهل مكة أنكروا رسالة محمد ﷺ ، فأورد القرآن هذه القصة وأمثالها ؛ لتأكيد مبدإ الرسالة ، وبيان أن محمدًا ﷺ ليس بدعًا من الرسل .

قال صاحب المنار :

« وعندى أن هذه القصة معطوفة على ما فى أول هذه السورة ؛ من ذكر بعثة محمد رسول الله ، وخاتم النبيين ﷺ ؛ بمثل ما بُعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده »[٣٢] اهـ .

والمعنى : والله لقد أرسلنا نوحًا رسولا إلى قومه ، فقال لهم : إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أنذركم عذاب الله ، وأدعوكم إلى عبادته وتوحيده .

٢٦- أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

إنى أحذركم من عبادة الأوثان ، وأدعوكم إلى عبادة الله وحده ؛ فهو سبحانه المستحق للعبادة ؛ لأنه الإله الحق ، ولا إله سواه ، فلا تعبدوا أحدًا غيره ؛ لأن هذه العبادة لغير الله ، ستؤدى بكم إلى الوقوع فى عذاب يوم أليم عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلاَّ خوفى عليكم ، وشفقتى بكم ، فأنا منكم وأنتم منى ؛ بمقتضى القرابة والنسب .

٢٧- فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ... الآية .

الملأ : أشراف الناس وأغنياؤهم ، وهم عادة من طبقة متميزة ناعمة ، قد اطمأنت إلى وضعها ، ورضيت بما هى فيه من غنى ووجاهة ومنزلة ، وكرهت أصحاب الدعوات والرسالات ، فالرسل دعاة حق وإخلاص، تتضمن دعوتهم توحيد الله ، وكرامة الإنسان ، فالناس جميعا سواسية أفضلهم عند الله أتقاهم، فهم هنا يقولون لنوح : إنك بشر مثلنا ، لست ملاكا ، فكيف تتفضل علينا بالرسالة ؟!.

وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ .

نظر الأغنياء والأشراف إلى أتباع نوح ؛ فوجدوا أنّهم من الفقراء والزراع والصناع والعمال ؛ فعيَّروا نوحًا ؛ بأن أتباعه من الأراذل والضعفاء والفقراء ، وليسوا من الأشراف والكبراء ، وهؤلاء تقتحمهم العين وتزدريهم لأول وهلة .

وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ .

الفضل : الزيادة فى الشرف والغنى ، وغيرهما مما يتميز به الإنسان عن غيره ، أى : وما نرى لك ولمن اتبعك علينا أىّ فضل تمتازون به فى جماعتكم ، كالقوة والكثرة والعلم والرأى ؛ يحملنا على اتباعكم ، والنزول عن جاهنا وامتيازنا عليكم بالجاه والمال لمساواتكم .

بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ . أى : نظنكم كاذبين فى جملتكم : المتبوع فى دعوى النبوة ، والتابعون فى تصديقه، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ . (الشعراء : ١١١) .

ونلاحظ أن الأغنياء والوجهاء قدموا أربع حجج ؛ لرفضهم دعوة نوح عليه السلام :

١- أنه بشر مثلهم غير متميز عليهم .

٢- أنه لم يتبعه إلا الفقراء العمال والأراذل فى ظاهر الأمر ولأوّل وهلة .

٣- ليس لهؤلاء فضل فى الطبقة والمكانة الاجتماعية ، أو قوة عصبية ، أو كثرة غالبة ، أو غير ذلك من المزايا التى ترفع الأراذل عن منزلتهم ؛ فيهون على الأشراف مساواتهم .

٤- هم يرجّحون أن نوحًا وأتباعه كاذبين .

★ ★ ★

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

أرأيتم : أى : أخبرونى .

على بينة : البينة : ما يتبين به الحق ،

فعميت : أخفيت .

وما أنا بطارد الذين آمنوا : طرده : أبعده ونحّاه .

تجهلون : أى : تسفهون عليهم ، وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم .

تذكرون : أصله : تتذكرون .

تزدرى أعينكم : يقال : زَرَى على فلان زراية أى : عابه واستهزأ به .

التفسير :

٢٨- قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ...الآية .

تلطف نوح فى مناقشة قومه ؛ ليعالج إعراضهم ، ويقاوم صدودهم ، فذكرهم بأنه واحد منهم اصطفاه الله بالرسالة ، واختاره من بين قومه ، فأنزل عليه الوحى .

والمعنى : يا أهلى ويا عشيرتى ، أخبرونى : ماذا ترون ، وماذا تقولون إذا كنت على بصيرة ، وهداية ، وحجة واضحة من ربّى ؟ بها يتبين الحق من الباطل .

وَءَاتَـٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ . وتفضل علىَّ بالنبوة والرسالة بإحسانه وفضله ورحمته .

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ . فحجبت عنكم أنوار الرسالة ، وخفيت عليكم هداية الوحى ، وعميت عيونكم عن رؤية نور النبوّة ؛ لجهلكم وغروركم بالمال والجاه ، واستحباب العمى على الهدى .

أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ . أى : أنكرهكم على قبول الرسالة والإيمان والهدى ، قسرًا وإجبارًا ؟ وأنتم معرضون عنها زاهدون فيها ؟ .

وهذه الآية دليل واضح على أنه لا إكراه فى الدين ، وأن الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ . (البقرة : ٢٥٦) .

ويقول سبحانه : أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

ويقول تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية: ٢١، ٢٢) .

وتجد أن كلمة : أَنُلْزِمُكُمُوهَا قد دُمجت فيها ضمائر بعض المخاطبين مع ضمير الغائب . وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ويشدّون إليه وهم نافرون . وهكذا تصور الكلمة جو الإكراه ؛ بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق ؛ فترسم صورة كاملة للتناسق الفنّى بين الألفاظ .

٢٩- وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ... الآية .

إنى أقوم برسالتى ؛ احتسابًا لوجه الله ، ودعوتى خالصة من المطامع الدنيوية ؛ فأنا لا أطلب منكم مالاً ولا أجرة على تبليغ الرسالة والهداية .

إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ . لا أنتظر الجزاء والثواب إلا من الله ؛ فهو صاحب الفضل والمنّة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى فى سورة الشعراء : وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ. (الشعراء : ١٠٩) .

وقد روى عن ابن جريج : أنهم قالوا لنوح : إن أحببت أن نتبعك ؛ فاطرد هؤلاء الأراذل ؛ لذلك قال لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ . أى : لا أتخلى عنهم ولا أطردهم من مجلسى ، فلا أتخلى عمن آمن بالله ، سواء أكان من الفقراء أم من الأغنياء .

ويبدو أن الرسل قد تعرضوا لهذا العرض فى تاريخهم الطويل ، وهو تطلع الأغنياء إلى أن تكون لهم مجالس خاصة بهم لا يشترك فيها الفقراء ، ومثل هذا العرض قدّمه أهل مكة للنبى محمد ﷺ ، وقد أجاب عنه القرآن فى سورة الكهف ، حيث قال تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ . (الكهف : ٢٨) .

﴿إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ .

إنّ هؤلاء الفقراء الذين دخلوا فى الإيمان ، صائرون إلى ربّهم ، وهو سائلهم عن أعمالهم ، ولن يسألهم عن أحسابهم ؛ فكيف يكون موقفى أمام الله يوم القيامة إذا طردت هؤلاء المؤمنين من مجالسى ، عندما يقف المؤمنون أمام الله ؛ وهو المالك العادل الذى ينصف المظلوم من الظالم ، ويقضى بين الناس بالعدل يوم القيامة ؟!!

﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ . أى : تجهلون القيم الحقيقية للناس عند الله ، وتجهلون أنّ مردّ الناس جميعًا إلى الله وحده للحساب . قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ . (الأنبياء : ٤٧) .

وفى الحديث الشريف : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[٣٣] .

٣٠- ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

وهنا يوجه نوح نداء ثالثا إلى قومه لعلهم يثوبون إلى رشدهم ؛ فيناجيهم بهذه الآية ، أى : افترضوا يا قوم أنى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسى ، فمن ذا الذى يحمينى ويجبرنى من عذاب الله ؟! لأنّ ميزانه فى تقييم الناس ليس كميزانكم ؛ إذْ أكرم الناس عنده هو أتقاهم ، وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون الفقراء هم أكرم عند الله سبحانه منكم ، فكيف أطردهم وهناك إله عادل ينتقم لهم يوم القيامة ؟! .

أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ . أى : أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطإ ، فتنتهوا عنه ؟!

وفى معنى هذه الآية وجّه الحق سبحانه الخطاب إلى النبى محمد ﷺ ينهاه عن طرد الدعاة من مجلسه ، حيث قال سبحانه : وَلاَ تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . (الأنعام : ٥٢) .

٣١- وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ... الآية .

هنا تظهر طبيعة الرسالة ، يوضحها ويبينها هذا الرسول المكافح المجاهد ؛ فهو من أولى العزم من الرسل ، كان قوم نوح يرون أن الرسول ينبغى أن يتميز على قومه بالمال ينفق منه على أتباعه ، أو بمعرفة الغيب ؛ ليؤكد صلته بالله ، أو بكونه ملكًا من جنس الملائكة ؛ لكن حكمة الله تعالى أرادت أن يكون الرسل بشرًا ، من جنس أقوامهم ، يتمتعون بالصفاء والنقاء ، وقوة اليقين وسلامة الباطن وحسن التلقى ، وحسن التأنى للأمور ؛ فهو إنسان متميز يصلح للاصطفاء والاختيار ، وتبليغ الرسالة ومناقشة المعترضين .

إنه قائد بين قومه ، ورسول فى مسيرة التوجيه والتعليم والبناء ، وقد كان الرسل هامات فارعة ، وقيادت مرموقة فى مسيرة الإصلاح والتوجيه ، وهم منارات مضيئة تتلقى وحى السماء ، وتترجم هذا التوجيه إلى سلوك عملى بين البشر .

من أجل هذا ؛ كان الرسل بشرًا يوحى إليهم ، فلا يتميزون بالقدرة على الخوارق ، أو تملك كنوز المال ، أو معرفة الغيب . وهنا يشرح نوح ذلك فيقول :

وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ . فلا أملك خزائن الرزق التى يحتاج إليها عباد الله للإنفاق منها ، أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنفق على نفسى ، وعلى من تبعنى ؛ بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيرى فى الكسب سواء .

وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ . لا أعرف الغيوب التى اختص الله سبحانه وتعالى بمعرفتها .

وقريب من ذلك ما أمر الله به محمدًا ﷺ ، حيث قال : قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون . (الأعراف : ١٨٨) .

وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ؛ بل أنا بشر مثلكم آكل كما تأكلون ، وأشرب كما تشربون ، وأمرض كما تمرضون ،

وتعتريني عوارض البشر مثل : الحزن والمصائب ، والنصر والخير والنجاح ؛ وبهذا أشكر الله على النعماء ، وأصبر على البأساء. وأرضى بأسباب القضاء ، وأكون قدوة عملية للناس .

فالبشرية من مقتضيات النبوة ، وليست مانعًا منها قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ. (الأنعام : ٩) .

وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ...

لقد أخبرهم صادقًا : بأنه لا يملك خزائن رزق الله ، ولا يعلم الغيب ، وليس ملاكا كاذبا بل هو بشر .

ويستمر فيصحح مفهومهم بالنسبة للمؤمنين الفقراء ؛ فهم يرون أنهم أراذل الناس من العمال والصناع الذين تحتقرهم العين لأول وهلة ، ونوح يرى أن هؤلاء الفقراء الضعفاء ، قد طهروا أنفسهم بالإيمان ؛ فهم أهل لعناية الله وخيره ؛ قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّٰهَا . (الشمس: ٧-١٠) .

إن عدالة الله تأبى أن يظلم مؤمنًا عمل صالحًا ؛ بل يكافئ المؤمن بالجزاء العادل والثواب الأوفى؛ قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . (الكهف: ٣٠) .

ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

الله أعلم بما فى أنفسهم من صدق أو كذب ، ومن إيمان وإخلاص ، أو كفر ورياء ؛ فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، وسيكافئهم بحسب ما فى قلوبهم .

إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . إذا قضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته لى ألسنتهم على غير علم منى بما فى نفوسهم فأكون ظالما لهم بهضم حقوقهم .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات :

قد جادلتنا : أصل الجدال : هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدَالة وهى الأرض الصلبة ، ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب .

ولا ينفعكم نصحى: والنصح: تحرّى الخير والصلاح للمنصوح له ، والإخلاص فيه قولاً وعملاً .

أن يغويكم : والإغواء : الإيقاع فى الغى ، وهو الفساد الحسى والمعنوى .

التفسير:

٣٢- قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ...الآية .

من عادة الطغاة إذا أفحمتهم الحجَّة ، وظهر الحق أمامهم تعللوا بعلل واهية ، وهم هنا يصفون نوحًا بكثرة الجدل الذى يغلبهم به ، ويسدّ فى وجوههم كل طريق ؛ حتى لا يهربوا من هداية السماء .

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

وزيادة فى التهكم بالوحى والرسول والرسالة ؛ قالوا لنوح : أنزل علينا العذاب إن كنت صادقًا بأنك رسول، وفى سورة نوح – يقول نوح : قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلاَّ فِرَاراً . (نوح : ٥، ٦) .

٣٣- قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

قال نوح لقومه : إن نزول العذاب عليكم مرتبط بأمر الله ومشيئته ؛ فأنا بشر مثلكم ، أما قدرة الله وإرادة الله فلا راد لهما ، وأنتم لا تستطيعون الهرب من قدرته ، ولا تغالبون إرادته ؛ فهو سبحانه فعَّال لما يريد : إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

٣٤- وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

لقد اجتهد نوح فى نصح قومه ليلاً ونهارًا ، ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا ، وهنا يقول لهم : إذا حاولت تكرار النصح وزيادته ، ثم أمعنتم فى الإعراض عن دعوة الله ؛ فإن نصيحتى لن تفيدكم مهما أردت نصحكم، ما دامت إرادة الله قد سبقت لكم بالضلالة والعمى ؛ فإن من حكمة الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات ، فمن أعرض عن دعوة الله وأصم أذنه عن الهدى ؛ سلب الله عنه البصيرة النافذة ، والهداية النافعة ؛ فبقى يتخبط فى الضلال .

جاء فى تفسير المراغى :

والخلاصة : أن معنى إرادة الله إغواءهم : اقتضاء سننه فيهم أن يكونوا من الغاوين ، لا خلقه للغواية فيهم ابتداءً من غير عمل منكم ، ولا كسب لأسبابها ؛ فإن الحوادث مرتبطة بأسبابها والنتائج متوقفة على مقدماتها .

هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أى : هو مالك أموركم ومدبرها بحسب سننه المطردة فى الدنيا ، وإليه ترجعون فى الآخرة ؛ ليجازيكم بما تستحقون من خير أو شر .

★ ★ ★

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

المفردات :

أم يقولون افتراه : بل أيقول كفار مكة : اختلق محمد القرآن .

فعلى إجرامى : أى : عقوبة ذنبى ووباله .

وأنا برىء مما تجرمون : أى : من إجرامكم في نسبة الافتراء إلىَّ .

التفسير :

٣٥- أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ ...الآية .

تأتى هذه الآية فى ثنايا قصة نوح ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنها حكاية عما حدث لنوح من قومه ، والأرجح أنها التفات من القرآن الكريم فى أثناء قصة نوح إلى الحديث عن المشركين من أهل مكة ، وقد توجه فيها الخطاب إلى النبى ﷺ .

ومعنى الآية : بل أيقول بعض المشركين من كفار مكة : إن محمدًا قد افترى هذا القرآن ، واختلقه من عند نفسه .

فردَّ الله معلمًا نبيه أن يقول لهم : ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ .

أى : ان اختلقت هذا القرآن من عند نفسى ؛ فذلك إجرام عظيم ، وعلىَّ وحدى تقع عقوبة إجرامى ، وافترائى الكذب ، وأنا برىء من إجرامكم وآثامكم ، وستلقون جزاءه عند ربكم ؛ فكل إنسان مسئول عن ذنبه، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ . (يونس : ٤١) .

★ ★ ★

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

المفردات :

ابتـــاس : اشتد بأسه وحزنه ، فلا تبتئس : أى : فلا تحزن ، مشتق من البأس وهو الشدّة ، يقال : بئس يبأس بؤسًا : اشتدت حاجته فهو بائس ، وانظر المصحف المفسر للأستاذ ، محمد فريد وجدى ص ٢٨٩ .

الفـلك : السفينة ويطلق على الواحد والجمع .

بأعيننا : أى: تحت رعايتنا وحفظنا وحراستنا .

ووحينا : وبإرشاد وحينا إليك كيف تصنعها .

سخروا منه : استهزؤا به ؛ لعمله السفينة .

يخزيه : يذله ويفضحه .

مقيم : دائم ، وهو عذاب النار .

التفسير:

٣٦- وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ...الآية .

بعد أن لجَّ قوم نوح فى طغيانهم ، وصمُّوا آذانهم عن سماع دعوته ، واستعجلوا عذاب السماء ؛ سلب الله عنهم هدايته وتوفيقه ، وأخبر الله نوحًا : أنه لن يؤمن أحد من قومك بدعوتك ، إلا من قد آمن سابقًا . وهو هنا يهيئه لذلك الأمر ، فليكفَّ دعوته عنهم ، ولا يحزن بإعراضهم وسخريتهم .

فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ . فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنَّك أمرهم – وكان نوح عليه السلام قد دعا على قومه فقال : رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا. (نوح : ٢٦ ، ٢٧) .

فاستجاب الله دعاء نوح ، وأغرق الكافرين من قومه بالطوفان : وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ . (هود: ٤٤).

٣٧- وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ .

أمره الله سبحانه وتعالى أن يصنع سفينة عظيمة ، تكفى لحمله وحمل من معه من المؤمنين ، وحَمْل وسائل إعمار الحياة بعد ذلك : قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ . (هود : ٤٠) .

وأخبره الله : أنه محروس ومراقب بعين الله وحفظه ؛ فلا يصل إليه سوء من أذى قومه ، وسيعلمه الوحى كيف يصنع السفينة فلا يعرض له خطأ فى صنعته .

وقد استعمل القرآن تعبير الأعين ؛ لكمال الرعاية والعناية فى قوله تعالى لموسى : وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ. (طه : ٣٩) .

وقوله لمحمد ﷺ : وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . (الطور: ٤٨) .

وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ .

ولا تراجعنى فى صرف العذاب عنهم وطلب الرحمة لهم ، فقد صدر قضائى بإغراقهم ، ولا رادّ لقضائى .

والخلاصة : لا تأخذك بهم رأفة ولا شفقة .

٣٨- وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ... الآية .

امتثل نوح أمر ربه وشرع يصنع السفينة ؛ فكان الكافرون من قومه كلما مرُّوا به وهو يصنعها ؛ استهزءوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له : كيف تصنع سفينة فى وسط الصحراء ، وهى لا تسير على اليابسة ، وليس بجوارنا بحر لهذه السفينة ؟! وربَّما مرَّ عليه آخرون فقالوا : يا نوح ، صرت نجارًا بعد أن كنت نبيًّا ! .

قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ .

قال نوح لهم : إن تسخروا منا اليوم ؛ لجهلكم بفائدة ما نصنعه ، فإنا سنسخر منكم غدًا ؛ إذا جاء الطوفان وعمكم الغرق ، أو إن حكمتم علينا بالجهل ، فإنا نحكم عليكم بالجهل ، فيما أنتم فيه من الكفر ، والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالسخرية منَّا .

٣٩- فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

أى : إن كنتم لا تعلمون فائدة ما أعمله اليوم ؛ فسوف تعلمون غدًا من الذى سينزل به عذاب يهينه فى الدنيا وهو عذاب الغرق .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . أى : مستمر دائم أبدًا ، وهو عذاب الآخرة .

وهكذا تستمر حلقات قصة نوح عليه السلام ، وتبين جهاد هذا النبىّ الكريم خلال ٩٥٠ عامًا ؛ لقى فيها من قومه الجحود والسخرية والعناد ؛ حتى أنزل الله العقوبة بقومه الكافرين ، ونجَّى الله نوحًا ومن معه من المؤمنين .

★ ★ ★

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

جاء أمرنا : بإهلاكهم .

وفار التنور : أى : نبع الماء وتدفق ، من التنور الذى يخبز فيه الخبز ، اتفقت فيه لغة العرب والعجم ، ويُعبر عنه اليوم بالفرن . وقيل : التنور : وجه الأرض .

وأهلك : أهل بيت الرجل : نساؤه ، وأولاده ، وأزواجهم .

إلا من سبق عليه القول : أى : منهم بالإهلاك ، والإغراق ، وهو ولده كنعان ، وزوجة نوح عليه السلام ، وأخذ معه سام ، وحام ، ويافث ، وزوجاتهم الثلاثة .

إلا قليل : قيل : كانوا ثمانين ، نصفهم رجال ، ونصفهم نساء .

مجريها ومرساها : أى : باسم الله وقت جريها ، ووقت إرسائها ، أو باسم الله مكان جريها وإرسائها .

معزل : مكان عزلة وانفراد .

آوى : ألجأ .

يعصمنى : يحمينى ويحفظنى .

ابلعى : البلع : ازدراد الطعام والشراب بسرعة .

وغـيض الماء : غاض الماء يغيض : نقص وتسرب تحت الأرض .

واستوت على الجودى : استوت على جبل الجودى بالموصل .

التفسير :

٤٠- حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ...الآية .

أى : حتى إذا حان وقت أمرنا بالهلاك للكافرين ؛ تتابع المطر من السماء ، ونبع من وجه الأرض ، أو من موقد الخبز ، وكان ذلك علامة للمؤمنين على بدء الطوفان .

قال تعالى فى سورة القمر : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ . (القمر : ١٠-١٤) .

كان بدء الطوفان بقدرة الله ، مظهرًا من مظاهر عظمته وقدرته ؛ فقد طفح الكيل وبلغ السيل الزُّبَى .

جاء فى المصحف المفسر للأستاذ محمد فريد وجدى :

نقول : فَارَ ٱلتَّنُّورُ . معناه الحرفى : نبع التنور ، قال المفسرون : ومعناه : أنه نبع الماء من التنور؛ إعجازًا . وأنا أرى أن فَارَ ٱلتَّنُّورُ . من الكنايات الكثير أمثالها فى لغتنا ، مثل : طَفَحَ الكيل ، وطَفَّ الصوع ، وحمى الوطيس ، وفاض الإناء ؛ وكلُّها تدل على بلوغ الأمر غاية شدته وقرب انفجاره[٣٤] اهـ .

وعن ابن عباس : التنور وجه الأرض . أى : صارت الأرض عيونًا ؛ حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار صارت تفور ماءً .

قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ .

أى : قلنا لنوح : احمل فى السفينة من كل نوع من أنواع الحيوانات زوجين اثنين ، ذكرًا وأنثى ؛ للحفاظ على أصل النوع الحيوانى .

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ . أى : واحمل فيها أهل بيتك ذكرانًا وإناثًا .

إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ . بأنهم من المغرقين بسبب ظلمهم ، وهم : زوجة نوح ، وابنها منه : يام ، أو كنعان؛ وخذ معك كل من آمن من الرجال والنساء .

وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ . ولم يؤمن بنوح إلا عدد قليل من الرجال والنساء ، رغم طول المدة التى مكثها فيهم ، فقد مكث يدعوهم إلى الإيمان تسعمائة وخمسين عاما ؛ وشاء الله ألا تتفتح قلوب أكثرهم لدعوة الإيمان؛ فآمن به عدد قليل ، قيل : كانوا ستة أو ثمانية رجال ونساؤهم .

وقال ابن عباس : كانوا ثمانين نفسًا ، منهم نساؤهم . ولم ير الحق سبحانه وتعالى حاجة لبيان العدد، لقلتهم التى لا تستحق الذكر ، ولم يبين أنواع الحيوانات المحمولة ، ولا كيفية حملها فذلك متروك للبشر .

٤١ - وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

يخبر الله تعالى عن نوح عليه السلام : أنه قال لمن آمن به ، ولمن أُمر بحملهم معه فى السفينة : **ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ** . أى : باسم الله جريانها وإرساؤها ، فهو الذى يتولّى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، لا بحولنا ولا بقوتنا ، وقال سبحانه فى موضع آخر : **فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ** . (المؤمنون: ٢٨ ، ٢٩) .

ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور ، عند ركوب الدابة أو عند ركوب السفينة ، أو عند ركوب القطار، أو السيارة ، أو الطائرة ، ثم يقول المُسْلِم : **سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ** . (الزخرف: ١٣، ١٤) ، وبهذا يظل المسلم على ذكر لله ومعرفة بفضل الله .

إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

إن ربى واسع المغفرة ، حيث نجّانا من الهلاك ومن مواطن الزلل ، وهو سبحانه واسع الرحمة . قال تعالى: **وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ** . (الأعراف: ١٥٦) .

أخرج الطبرانى وغيره : عن الحسين بن على أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أمان لأمتى من الغرق ، إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن الرحيم . **بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**»[٣٥] .

جاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

«قيل : كان نوح عليه السلام إذا أراد أن يجريها يقول : **بِسْمِ ٱللَّهِ** ، فتجرى ، وإذا أراد أن يرسيها يقول: **بِسْمِ ٱللَّهِ** ؛ فترسو»[٣٦] .

٤٢- وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ... الآية .

أى : فركبوا قائلين : بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ . وهى تجرى بهم ، وهم فيها فى موج شديد الارتفاع ؛ يشبه الجبل فى ارتفاعه وتراكمه .

وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

تصور هذه الآية هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة التى أبصر فيها نوح ابنه الكافر، وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين ، وقيل : فى معزل عن الكفار، قد انفرد عنهم ، وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ؛ ولذلك دعاه إلى السفينة ، وحملته شفقة الأبوة فقال :

يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ، مع المؤمنين الناجين .

وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ، الهالكين بالغرق .

فردّ الابن العاصى ، وهو الابن الرابع واسمه : يام أو كنعان .

٤٣- قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ... الآية .

ظن الابن العاق أنه ماء عادى ، يكفى فى النجاة منه أن يتسلق جبلا عاليًا ؛ يحميه من الغرق فى الماء.

قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ .

قال نوح لابنه : إنه ليس ماءً عاديًا ، لكنه طوفان يغلب كلَّ شىء ، إنَّه عقاب من الله للكافرين ، ولا نجاة منه إلا لمن رحمه الله بالإيمان ، فسلك طريق المؤمنين ،وركب سفينة النجاة .

وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ .

تمثل هذه الفقرة سرعة فيضان الماء ، ونزول القضاء ؛ فالسماء تمطر، والأرض تفور منها المياه ، ويتلاقى ماء السماء وماء الأرض ؛ ليعم الطوفان ، ويرتفع الموج كالجبال ، ويحول الموج بين أن يتم الابن العاق كلامه مع أبيه ، فيغرق مع الهالكين .

وفى معنى هذه الفقرة وردت الآيات الكريمة فى سورة القمر : فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . (القمر: ١١، ١٢) .

٤٤ – وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

تمثل هذه الآية ألوانًا من البلاغة والبيان وبيانًا لعظمة القدرة الإلهية ، ونفوذ أمر الله ؛ « فإذا جرَّبت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك»[٣٧] .

ومعنى الآية : أراد الحق سبحانه أن يتم فضله ، بعد أن عم الطوفان ، وتم غرق الكافرين ، فأمر الأرض أن تمتص الماء الذى خرج منها ، وأمر السماء أن تكف عن المطر ، وغاض الماء وجفَّ ، وذهب من على وجه الأرض ، وقضى الأمر ، حيث تمت إرادة الله فى هلاك الكافرين المكذبين ونجاة المؤمنين .

وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ . واستقرت السفينة بمن فيها على جبل الجودى ، بالجزيرة شمال العراق فى الموصل.

وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ . أى : هلاكا وسحقًا وطردًا من رحمة الله ، للقوم الذين ظلموا أنفسهم ؛ باختيار الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى .

وتفيد الآية : بأن باب الله لا يغلق فى وجه داعية أخلص لله ، وأن الدعاة إلى الله تعالى يعتمدون على باب واسع ، وقدرة نافذة ، فلا يقيسوا قوتهم المادية بقوة أعدائهم ، بل عليهم أن يعملوا ما عليهم ، ثم يتركوا لله أن ينصر دينه ، وصدق الله العظيم : إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد : ٧) .

★ ★ ★

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

إن ابنى من أهلى : إن كنعان من أهلى ، وقد وعدتنى بنجاتهم .

وإن وعدك الحق : الذى لا خلف فيه .

وأنت أحكم الحاكمين : أعلمهم وأعدلهم .

إنه ليس من أهلك : الناجين ، أو ليس من أهل دينك .

أن أسألك : فى المستقبل .

ما ليس لى به علم : ما لا علم لى بصحته .

اهبط بسلام : انزل من السفينة بسلامة أو بتحية ، أو مُسلمًا عليك منا .

وبركات : أى : زيادات فى رزقك ونسلك ... إلخ .

تلك : إشارة إلى قصة نوح .

من أنباء الغيب : من بعض أخبار ما غاب عنك .

التفسير:

٤٥ – وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ .

أى : استبدَّت العاطفة البشرية بنوح عليه السلام ؛ فسأل ربه سؤال تسليم وكشف عن حال ولده ؛ فقال فى استعطاف ورجاء : رب ، إنى ابنى كنعان من أهلى ، وقد وعدتنى بنجاة أهلى ، ووعدك الحق الذى لا يتخلف ، وأنت أحكم الحاكمين ، وأعدلهم بالحق .

جاء فى تفسير القاسمى :

وإنما قال نوح ذلك أى : رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ... إلخ ؛ لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحم النسبية ، وغفل لفرط التأسف على ابنه ، عن قوله سبحانه : إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ .ولم يتحقق أن ابنه ممن سبق عليه القول[٣٨] .

٤٦ – قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ... الآية .

أى : قال الله تعالى : يا نوح ، إنه ليس من أهلك الناجين ، الذين وعدتك بنجاتهم ؛ لأنه عمل عملا غير صالح ؛ فالكلام على حذف مضاف .

وقد قرأ الجمهور أنه : عَمَلٌ بفتح الميم وتنوين اللام ؛ على أنه مصدر ؛ مبالغة فى ذمِّه ، حتى لكأنه هو نفس العمل غير الصالح ، وأصل الكلام : أنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف ؛ للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد ؛ لمداومته عليه .

وقرأ الكسائى ويعقوب : عَمِلَ بوزن فرح ، بصيغة الفعل الماضى ، أى : أنه عمل عملاً غير صالح ، وهو الكفر والعصيان .

قال الفخر الرازى :

وفى هذه الآية دليل على أن العبرة بقرابة الدِّين لا بقرابة النسب ، ولا علاقة للصلاح والتقوى بالوراثة والأنساب ؛ لذا نجى الله المؤمنين من قوم نوح ، وأهلك ابنه وزوجته مع الكافرين ، والصحيح : أنه كان ابنه من صلبه ، ولكن كان مخالفًا فى النية والعمل والدين .

فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ .

أى : فلا تسألنى فى شىء ليس لك به علم صحيح ، وقد تضمَّن دعاؤه معنى السؤال ، أو سُمِّى نداؤه : سؤالا ، وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه : جهلا وغباوة ، ووعظه ألا يعود إليه ، وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ .

إنى أنهاك أن تكون من زمرة الجاهلين ؛ فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه ؛ إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم ، أو أهليهم أو محبيهم ، ويحمل كل ما صدر من نوح وغيره من خطإ الاجتهاد؛ على ترك الأفضل والأكمل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وبناء عليه ؛ حصل العتاب والأمر بالاستغفار[٣٩] .

٤٧- قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ .

أى : قال نوح عليه السلام – ملتمسًا الصفح من ربه – ربِّ ، إنى ألتجئ إليك وأستعيذ بك ، وبجلالك أن أسألك ما ليس لى به علم صحيح ، وإن لم تغفر لى ذنب سؤالى هذا ، وترحمنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شىء ؛ أكن من الخاسرين أعمالا .

٤٨- قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى : قال الله تعالى ، أو قالت الملائكة لنوح بعد انتهاء الطوفان ، ورسوِّ السفينة على الجودى ، وخوف الجميع من المستقبل ، وكيفية الحصول على المعايش بعد هذا الغرق فطمأنه الله بقوله : ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا . أى: أمان لك ولذريتك من المؤمنين .

قال محمد بن كعب : دخل فى هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وكذلك فى العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ، وإذا نسب السلام إلى الله ؛ فهو الأمن والأمان والتحية ، وهو سلام وتكريم من إله كريم عليم .

وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ . أى : وبركات عليك فى الأرزاق والمعايش ، تفيض عليك وعلى أمم ممن معك نسلاً وتوليدًا . أى : هم ومن يتناسل منهم فى ذرية .

وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . أراد الحق سبحانه أن يعم السلام والبركات نوحًا وذريته ، ومن يتناسل من المؤمنين والمؤمنات ، يتمتعون بهداية الله وبركاته وأرزاقه ، وتوفيقه فى الدنيا ، ثم الجنة ونعيمها فى الآخرة .

وهناك مجموعات من نسل هؤلاء المؤمنين ، يغلب عليهم الهوى والكفر والعناد ، وهؤلاء يتمتعون فى الدنيا بالأرزاق ، ولهم عذاب أليم فى الآخرة ؛ بسبب جحودهم نعم الله ، ومعصيتهم رسل الله ، فعلى كل عاقل أن يظل راغبًا فى السير على الصراط المستقيم ، مبتعدًا عن معصية الله ، متجنبًا اتباع الهوى والكفر والعناد.

٤٩- تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

أى : هذه قصة نوح وقومه من أخبار الغيب التى لا يعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا ؛ أعلمناك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين ؛ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك بهذه الصور الصادقة ، الحكيمة ، الخالية من الأساطير والأكاذيب .

مِن قَبْلِ هَٰذَا . أى : من قبل هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .

فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ. أى : فاصبر على تبليغ الرسالة إلى قومك ، كما صبر نوح عليه السلام ؛ فالعاقبة الحسنة بالنصر والتأييد للمتقين الذين راقبوا الله ، والتزموا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وهذه الآية تعقيب كريم على قصة نوح ، وامتنان على الرسول محمد ﷺ ، وبيان أنه علم بها عن طريق الوحى ، وإرشاد وبشرى بالنصر وحسن العاقبة .

ما يؤخذ من القصة

١- جهاد نوح الطويل الذى استمر ٩٥٠ عاما .

٢- هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .

٣- قوانين الله عادلة فلا محاباة ولا استثناء ، وهو سبحانه يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم .

٤- وجوب صبر الآباء الصالحين ، وتفويض أمرهم لله عند انحراف أبنائهم .

فقد روى : أن ابنا لمالك بن أنس ارتكب أمرًا لا يليق بمسلم ، فعلم بذلك مالك ؛ فقال : « الأدب أدب الله ؛ لا أدب الآباء والأمهات ؛ والخير خير الله ؛ لا خير الآباء والأمهات »[٤٠] .

٥- أن من يغتر بنسبه ولا يعمل ما يرضى ربّه ، ويزعم : أنه أفضل من العلماء العاملين ، والأولياء الصالحين ؛ فهو جاهل بكتاب ربه ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هل كان الطوفان عامًا

جاء فى تفسير المراغى :

ما يؤخذ من القصة أن الأستاذ الإمام محمد عبده سئل فى ذلك ؛ فأجاب جوابًا طويلاً خلاصته ما يأتى:

ليس فى القرآن نص قاطع على عموم الطوفان ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب فى تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين .

وأما المؤرخ ، ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ أو صاحب الرأى ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون فى هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلا قطعيا على معتقد دينى ؛ من أجل هذا كانت هذه المسألة موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر فى طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخى الأمم .

فأهل الكتاب ، علماء الأمة الإسلامية : على أن الطوفان كان عامًا لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ؛ لأن هذه الأشياء مما لا تتكون إلا فى البحر ، فظهورها فى رءوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض .

ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين : أن الطوفان لم يكن عامًا ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها، غير أنه لا يجوز لمسلم أن ينكر قضية : أن الطوفان كان عاما لمجرد احتمال التأويل فى آيات الكتاب العزيز، بل على كل من يعتقد بالدين ألا يتقى شيئا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلى يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك فى مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل وعناء شديد ، وعلم غزير فى طبقات الأرض وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هَذَى برأيه بدون علم يقينى ؛ فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله ورسوله أعلم . ا هـ بتصرف .

وخلاصة هذا : أن ظواهر القرآن والأحاديث تدل على أن الطوفان كان عامًا شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عامًا للأرض ؛ إذ لا دليل على أنهم كانوا يملئون الأرض ، وكذلك وجود الأصداف والحيوانات البحرية فى قُنن الجبال لا يدل على أنها من أثر ذلك

الطوفان ، بل الأقرب أنه كان من أثر تكوّن الجبال وغيرها من اليابسة فى الماء ، فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدودة لا يكفى لحدوث ما ذكر فيها .

ولما كانت هذه المسألة التاريخية ليست من مقاصد الدين لم يبينها بنص قطعى ، ومن ثم نقول : إنه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت علم طبقات الأرض «الجيلوجيا» خلافه ؛ فلا يضيرنا ؛ لأنه لا ينقض نصًّا قطعيًا عندنا[٤١] .

★ ★ ★

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

مفترون : كاذبون .

فطرنى : خلقنى على الفطرة السليمة فطرة التوحيد يقال : فطره ، يفطره فطرًا . أى : خلقه ، ومنه الفطرة للخلقة .

مدرارًا : كثيرة الدَّر ، يقال : درَّت السماء تدرّ درًّا . أى : أمطرت .

مجرمين : مشركين .

تمهيد :

ذكرت قصة عاد مع نبيهم هود فى سورة الأعراف بأسلوب ونَظْم آخر ، وتلك هى طريقة القرآن فى عرض هذا القصص ، يتناول منه ما يناسب السياق العام للسورة ، ويذكر فى كل مكان ما يناسب ذلك المكان.

وقد ذكرت هذه القصة هنا بعد قصة نوح ، ويوجد شبه بينهما فى نصيحة الرسول ، وردّ قومه وعنادهم ، وهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .

وكانت قبيلة عاد قبيلة عربية تسكن بناحية اليمن فى الأحقاف ، شمال حضرموت ، وكانت قبيلة ذات قوة وشدة ؛ وأهلها أصحاب زرع وضرع ، وقد كُشفت آثار فى سلطنة عمان ، قرب مدينة صلالة عبارة

عن مدينة بائدة تحت الأرض يرجِّح الباحثون أنها مبان وآثار بائدة لقبيلة عادة ، وبعض الباحثين والمستشرقين يخلط بين الحضارمة سكان حضرموت وسكان سلطنة عمان .

التفسير:

٥٠- وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ .

أى : وكما أرسلنا نوحًا إلى قومه ، أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا ؛ فهو أخوهم فى الوطن والنسب فقال لهم: يا قوم ، اعبدوا الله وحده فلا تعبدوا صنمًا ولا وثنًا ، فليس هناك إله سوى الله وحده ؛ فما أنتم بعبادتكم غير الله من الأوثان والشركاء ، إِلَّا مُفْتَرُونَ . الكذب عليه بتسميتكم إياهم شفعاء تتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم ، وترجون النفع وكشف الضرّ عنكم بجاههم عنده .

٥١- يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

إن رسالة الأنبياء والرسل هى البلاغ ، إبلاغ عباد الله ما يريد الله أن يصلهم ؛ من الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، وإصلاح أحوال الناس فى المعاش والمعاد ، ورسول الله هود يقول لقومه : إنّه يدعوهم بهذه الدعوة خالصة لوجه الله تعالى ؛ لا يطلب منهم أجرًا ولا مالا ولا وجاهة ، ولا أى عرض من أعراض الدنيا ؛ ذلك أن أجره على الله الذى خلقه وأوجده وهداه إلى فطرة التوحيد .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أفلا تستخدمون عقولكم وتتأملون بأفكاركم ؛ فيما أقدم لكم من نصح قائم على الإخلاص ، وتعلمون أنى مصيب فى دعوتكم إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام .

٥٢- وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ .

كانت عاد أصحاب زروع وماشية وقوة ، وكانوا فى أمس الحاجة إلى المطر ؛ لتشرب ماشيتهم وزراعتهم وقبيلتهم ، وذكر المفسرون[٤٢] : أن الله تعالى عاقبهم بحبس المطر فاشتكوا ؛ فأرشدهم هود إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى ، والرجوع إليه مع الإيمان الكامل والإخلاص فى التوحيد .

والمعنى : عبدوا الله تائبين إليه ، نادمين على ما فرط منكم طالبين للمغفرة ، فإذا فعلتم ذلك ؛ أرسل الله عليكم المطر متتابعا ، وزادكم قوة إلى قوتكم بالأموال والأولاد ، وعزًّا إلى عزكم .

وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ : ولا تعرضوا عن دعوتى مصرِّين على آثامكم وإجرامكم .

فى أعقـاب الآيـة

نلمح فى هذه الآية : ما كانت تتمتع به عاد من قوة وبأس ، وبسطة فى الجسم والرزق ، وتفيد آيات أخرى هذا المعنى ، قال تعالى : فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ . (فصلت : ١٥) .

وقال سبحانه : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . (الشعراء : ١٢٨-١٣٥) .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

المفردات :

بـيـنــة : برهان وحجة .

اعــتـراك : أصابك ، وهى ثلاثية ، عراه ، يعروه عَرْوًا : أصابه .

ســوء : جنون أو لغو أو أذى .

فكيدونى جميعا : اجتمعوا على الكيد فى إهلاكى . أى : تدبير الأمر والمكائد لإهلاكى إن استطعتم .

لا تـنـظـرون : أى : ثم لا تمهلونى ، يقال : أنظره ينظره إنظارًا : أمهله ومنه : فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ . (البقرة:٢٨٠)

دابـــــــــة : كل ما يدب على وجه الأرض .

آخذ بناصيتها : مالك لها ، يصرفها على ما يريد بها ، فلا نفع ولا ضرر إلا بإذنه .

صـــــــــراط : طريق ، جمعه: صُرُط ، وأصله : سراط .

مستقيم : على الحق والعدل .

فإن تولوا : أى : فإن تتولوا وتعرضوا ، حذفت إحدى التائين .

ويستخلف ربى قوما غيركم : أى : يجعل غيركم خلفاء لكم بعد إبادتكم .

تمهيد :

فى الآيات السابقة حكى القرآن دعوة هود لقومه وضمّن دعوته ثلاثة أمور هى :

١- الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ونبذ عبادة الأوثان .

٢- دعوة هود خالصة لوجه الله تعالى لا يبتغى أجرًا منهم عليها .

٣- دعاهم إلى الاستغفار والتوبة والإيمان ؛ فإن ذلك باب زيادة الرزق القوة ، ثم بدأ يذكر جواب قبيلته عاد.

التفسير :

٥٣- قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ .

قابلت عاد دعوة نبى الله هود بالرفض والعناد ؛ وتدرّجت فى الرد عليه من سيئ إلى أسوأ ؛ وردت عليه هنا بثلاث ردود :

الأول : أنه لم يأت لهم بحجة ظاهرة أو برهان مقنع ، يدل على صحة دعواه .

الثانى : أنهم لن يتركوا عبادة الآلهة والأصنام ؛ لمجرد قوله : اتركوا عبادة آلهتكم ، واعبدوا الله وحده.

الثالث : ما نحن بمصدّقين ولا مستجيبين لك .

٥٤ ، ٥٥ - إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ .

أى : لا نجد من قول نقوله فيك ؛ إلا أن بعض آلهتنا أصابك بمس من الجنون أو الخبل ؛ لإنكارك لها ، وصدّك إيانا عن عبادتها ؛ وكلمة : اعتراك معناها : أصابك وغشيك ، ومنه قول الشاعر :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة　　كما انتفض العصفور بلله القطر

قال الزمخشرى :

وقد دلت ردود قبيلة عاد : على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبَهت، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد ، وهذا الرد الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه ؛ حيث اعتقدوا فى حجارة أنها تنتصر وتنتقم[٤٣] .

ردود نبى الله هود

ضمّن هود جوابه لقومه عدة أمور هى :

١- البراءة من الشرك ، وإشهاد الله على ذلك ، وإشهادهم على براءته من شركهم .

٢- التحدّى لهم بأن يجمعوا كيدهم وتدبيرهم ، ويضموا إليهم كل من يستطيعون ضمه ؛ للكيد له والإيقاع به بلا إمهال ولا تأخير إن استطاعوا ، وفى هذا دليل واضح على أنه لا يخاف منهم ولا من آلهتهم.

٣- أخبرهم : أنه يعتمد على قوة عليا ؛ بيدها الخلق والأمر وهو رب العالمين جميعًا ، وهو المتصرف فى كل ما دبّ على وجه الأرض ، وهو سبحانه حصن لمن اعتصم به ، فمن وجد الله ؛ وجد كل شىء ، ومن فقد الله ؛ فقد كل شىء ، وهو سبحانه حاكم عادل ؛ لا ينصر أهل الباطل على أهل الحق ، انظر إلى قوله تعالى: قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونَ .

٥٦- إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

أى : إنى اعتمدت على الله خالقى وخالقكم ، وهو المتصرف فى كل شىء فى هذا الكون ، وما من دابة تدب على وجه الأرض ، إلا والله تعالى مالكها وقاهر لها ، أى : وما أنتم جميعًا إلا دوابٌّ من هذا الدوابّ ؛ التى يأخذ ربّى بناصيتها ، ويقهرها قهرًا كليًّا إذا شاء ؛ فكيف أخافكم ؟! أو أخاف أصنامكم ؟! ومعى قوة الإله القادر العادل ، الذى لا يسلط أهل البغى على أهل الحق .

أخوة الرسل

تتواصل دعوات الرسل ، وتتفق فى دعوة الناس إلى الحق والإخلاص لله ، وعدم طلب أجر على تبليغ الرسالة ، وعدم الخوف من كثرة الأعداء أو إيذاء الأصنام ؛ لأن الإله الحق هو الله وحده ، انظر إلى قول نوح عليه السلام : فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلاَ تُنظِرُونَ . (يونس : ٧١) .

وانظر إلى توجيه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ (الأعراف:١٩٥).

٥٧- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ .

يختم هود عليه السلام الحوار هنا بتهديد ووعيد .

والمعنى : إن تعرضوا عن رسالتى ، وتتولوا وتتركوا ما جئتكم به من عبادة ربكم وحده لا شريك له ؛ فقد أبلغتكم رسالة ربكم ، ولم أقصر فى البلاغ . أما أنتم إذا أصررتم على الجحود والكفر ؛ فإن الله سينتقم منكم ويهلككم ، ويجىء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم ، ويكونون أطوع لله منكم .

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ . بتوليكم وكفركم ؛ فالله غنى عنكم وأنتم الفقراء إليه . وفى الحديث القدسى : « ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ؛ ما نقص ذلك من ملكى شيئًا»[٤٤] ، فأنتم بمعصيتكم وكفركم لا تعجزون الله ، ولا تضرون إلا أنفسكم .

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ .. فهو المهيمن على كل شىء ، وهو الحسيب الرقيب ؛ فلا تخفى عليه أعمالكم ؛ ولا يغفل عن مؤاخذتكم .

★ ★ ★

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

المفردات :

أمرنا : العذاب ، أو أمرنا بالعذاب .

غليظ : شديد .

وتلك عاد : أى : وتلك قبيلة عاد .

عنيد: معاند للحقّ.

وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة: أى : جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدنيا والآخرة .

ألا بعدًا لعاد: أى : من رحمة الله وهو دعاء عليهم بالهلاك .

قوم هود: عطف بيان لعاد ؛ لتمييزهم عن عاد الثانية : عاد إرم .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات فى نهاية القصة كنتيجة لتكذيب عاد لرسولها .

التفسير :

٥٨- وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

أى : ولما حان وقت هلاكهم بالعذاب ؛ نجينا رسولنا هودًا والذين آمنوا معه وكانوا أربعة آلاف .

بِرَحْمَةٍ مِّنَّا .

بهداية ونعمة ووقاية ولطف ورعاية ، ونجيناهم من عذاب شديد قاس ؛ كان يقتلع النخلة ويدمر كل شىء، قال تعالى : وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ. (الذاريات: ٤١، ٤٢) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الحاقة : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ . (الحاقة: ٦-٨) .

٥٩- وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

وتلك هى قصة عاد مع نبيها ، كفروا بآيات الله الدالة على صدق أنبيائه ، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم ، وهم كذبوا رسولا واحدًا ؛ هو نبى الله هود ، لكن لما كانت رسالة الرسل جميعًا واحدة ؛ صار تكذيبُ رسول منهم يعدّ تكذيبًا للرسل أجمعين .

وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وقد سار سوادهم وزعماؤهم وراء كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم ، بدون تكفير أو تدبر .

لقد وصفتهم الآية بثلاث صفات :

١- كفرهم بآيات الله .

٢- معصيتهم للرسول .

٣- طاعتهم للجبارين المعاندين .

٦٠- وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ .

وقد لحقت بهم لعنة فى هذه الدنيا ؛ فكل من علم بحالهم ، أو بلغه خبرهم على ألسنة الرسل يلعنونهم فى الدنيا ، وتلحقهم لعنة أيضًا يوم القيامة .

قال قتادة : تتابعت عليهم لعنتان من الله : لعنة فى الدنيا ، ولعنة فى الآخرة ، ثم أكد القرآن كفرهم بشهادته عليهم فقال :

أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ .أى : كفروا بنعمه ، وجحدوا ألوهيته حين كذبوا رسله ، واتبعوا الجبارين المعاندين.

أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . ألا سحقًا لهم ، وبعدًا لهم عن رحمة الله .

★ ★ ★

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾

المفردات :

واستعمركم فيها : جعلكم تعمرونها ، يقال : أعمرته الأرض ، واستعمرته إياها ؛ إذا فوضت إليه عمارتها.

مرجوًا قبل هذا : مأمولاً أن تكون لنا سيدًا ، أو مستشارًا فى الأمور .

مـــــــــــريب : موقع من الريبة أو الريب . أى : الظن والشكّ .

بــــيــــنــــة : بيان وبصيرة .

وءاتانى منه رحمة : يراد بالرحمة هنا : النبوة .

تمهيد :

هذه هى القصة الثالثة فى هذه السورة ، وهى قصة صالح مع ثمود وصالح هو الرسول الثانى من العرب ، ومساكن قبيلته ثمود : الحِجر ، وهى بين الحجاز والشام ، إلى وادى القرى ، وموقعه الآن تقريبا المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، ومازال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمّى: بمدائن صالح حتى اليوم.

وقد سبق أن ذكرت قصة صالح فى سورة الأعراف ، وسيأتى ذكر هذه القصة أيضًا فى سورة الشعراء ، والنمل ، والقمر ، والحجر ، وغيرها .

ومضمون القصة : تبليغ صالح دعوته وأدلته على وجود الله تعالى ، ثم مناقشة قومه له ، وتوضيحه الأمور أمامهم ، ثم تأييد صدقه بمعجزة الناقة وقتلهم لها ، وإهلاكهم بالصيحة أو الصاعقة .

التفسير :

٦١- وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ... الآية .

أى : ولقد أرسلنا إلى بنى ثمود ، الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد - أرسلنا لهم رجلا من قبيلتهم ؛ فأمرهم بعبادة الله وحده ؛ فهو الإله الخالق الرازق ، بيده الخلق والأمر، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . هو الذى ابتدأ خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلاّ منها ، وهو أبو البشر ، ثم خلق الناس من نطفة ، ثم من علقة ثم مضغة تُكْسَى بعدئذ بهيكل عظمى ولحم ، وتستكمل مواصفات الحياة بقدر الله أحسن الخالقين ، وأصل النطفة من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء إما من نبات الأرض ، أو من اللحم الذى يرجع إلى النبات .

وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . أى : جعلكم عمّارا لها ؛ فقد كانوا زراعًا وصناعًا وبنّائين ؛ قال تعالى : **أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَآ ءَامِنِينَ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .** (الشعراء : ١٤٦ - ١٥٠) .

فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ . أى : اسألوه المغفرة لما سلف من ذنوبكم وشرككم ومعصيتكم ، ثم توبوا إليه بالإقلاع عن الذنوب والندم على المعاصى ، والعزم على الاستقامة فى المستقبل .

إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ؛ فهو سبحانه قريب من عباده ، يسمع دعاءهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويجيب طلبهم ، قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة: ١٨٦) .

٦٢- قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ..

أى : كنت موقع الرجاء والأمل بأن تكون سيدًا من ساداتنا ؛ نستشيرك فى الأمور العظام ، ونلجأ إليك فى المهمات .

قال كعب : كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم ؛ لأنه ذا حسب وثروة ، وعن ابن عباس: كان فاضلاً خيرًا ، وجمهور المفسرين : على أن رجاءهم فيه ، هو الاستشارة فى مهام الأمور، وأن يكون سيدًا سادًّا مسدّ الأكابر . أى : إن رجاءنا قد انقطع منك ؛ بسبب دعوتك .

أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا . أى : أتنهانا عن عبادة ما كان يعبده أسلافنا ؛ وقد تتابعوا على هذه العبادة كابرًا عن كابر .

وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ . وإننا نشك كثيرًا فى صحة ما تدعونا إليه : من عبادة الله وحده ، وترك التوسل إليه بالشفعاء المقربين عنده ، وهو شك مُوقِع من التهمة وسوء الظن . والمقصود من هذا الكلام : التمسك بطريق التقليد ، ووجوب متابعة الآباء ، والشك العظيم فى صحة ما يدعوهم إليه صالح ، وهذا نظير ما حكاه القرآن عن كفار مكة حين قالوا : أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ . (ص : ٥) .

٦٣- قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ .

نجد نبىّ الله صالح يناقش قومه فى هدوء ؛ فيقول لهم : أخبرونى : إذا كنت على يقين جازم بأن الله اختارنى للرسالة ، وأعطانى النبوة والرحمة ؛ تفضلا منه ؛ فهل يليق بى أن أعصى ربِّى ، وأكف عن دعوتكم إلى التوحيد لله ، وعبادته وحده ؛ فمن ذا الذى ينصرنى من الله إن عصيته ، وخالفت أمره ، وقصَّرت فى تبليغ

الرسالة ؛ احتفاظا برجائكم فىّ ، ومسايرتى لكم فى باطلكم ؟!!! أى : لا أحد يدفع عنى عذاب الله ؛ فلا أبالى إذًا بقطع رجائكم فىّ ، ولا بما أنتم فيه من شك وريب .

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ . أى : فما تزيدونني إذا أنا عصيت ربّى ، وأطعتكم غير الوقوع فى الخسران ، والتعرض لعذاب الله وسخطه ؛ وحاشاى أن أخالف أمر ربّى إرضاء لكم .

★ ★ ★

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

المفردات :

ناقة الله : هى ناقة امتحن الله بها طاعتهم ؛ إذ أمرهم ألاَّ يمسوها بسوء ، وأن يدعوها تأكل من حيث أرادت ، فلم يأبهوا بهذا الأمر وعقروها ؛ فأنزل الله بهم العذاب .

آية : معجزة دالة على صدق نبوة صالح .

ذروها : اتركوها .

عذاب قريب : عاجل .

فعقروها : قطعوا قوائمها بالسيف أو نحروها .

تمتعوا : عيشوا ، أو تلذذوا بالمنافع .

فى داركم : منازلكم أو بلدكم .

ذلك وعد غير مكذوب : ذلك خبر غير مكذوب فيه .

الصيحة : الصوت الشديد ، والمراد به هنا : صوت العذاب .

جاثمين : أى : باركين على ركبهم ميتين ، يقال : جثم ، يجثم جثومًا ، أى : برك على ركبتيه .

كأن لم يغنوا فيها : كأن لم يسكنوا فيها ، أو كأن لم يقيموا فيها .

تمهيد :

فى هذه الآيات نجد أن الله تعالى أعطى الناقة ؛ آية ومعجزة تدلّ على صدق نبى الله صالح ، بيد أن قومه ضربوا الناقة بالسيف ؛ فاستحقوا العذاب ، وفى سورة : وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا يقول الله تعالى :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

التفسير :

٦٤- وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ .

أعطى الله نبيه صالحا آية ومعجزة تدل على صدقة ، وهى معجزة مدهشة عجيبة ؛ فقد خلقها الله من صخرة فى جوف الجبل ، وخلقها حاملا من غير ذكر ، وخلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة ، وكان لها يوم تشرب فيه الماء وحدها ، ولكلٍّ القوم يوم ثانٍ يشربون فيه الماء وحدهم ، وكانت تدر لبنًا كثيرًا يكفى الخلق العظيم ، فهذه الأمور جعلت الناقة آية متميزة تدل على أنها معجزة ، «والمعجزة : أمر خارق للعادة ، يظهرها الله على يد مدَّعى الرسالة ؛ تصديقًا له فى دعواه» .

وتوجَّه صالح إلى قومه يقول : هذه ناقة الله ، أى : معجزة الله لكم ، إضافتها إلى الله ؛ إضافة تشريف وتعظيم ، وتلطف صالح مع قومه حين ناداهم بقوله :

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً . أى : يا عشيرتى وأقاربى ، هذه الناقة أنزلها الله من بين جبلين ، وهى آية ومعجزة ظاهرة لكم ؛ لتعتبروا وتصدّقوا بأنى رسول من قبل الله .

فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ اللَّهِ . أى : اتركوها ترعى من النبات والكلإ المباح ، ولا تتحملوا مؤنتها ؛ فالناقة ناقة الله ، والأرض أرض الله ، أنبت بها الكلأ والمرعى .

وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . أى : ولا يمسها أحد منكم بأذى ؛ فيأخذكم عذاب عاجل ، لا يتأخر عنكم إلا يسيرًا .

٦٥- فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَالِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ .

تدلّ الآية على كنود الإنسان وعصيانه وتجبره ، فهذه ناقة من عند الله ، ترعى فى أرض الله ، وتحلب لهم لبنا يكفيهم عن آخرهم ، ولا تكلفهم أى شىء سوى أن يتأملوا فى قدرة الله على الخلق ، والإبداع على غير مثال سابق .

ومعنى الآية : أن قوم صالح تآمروا مع بعض الأشقياء ؛ رغبة فى إيذاء صالح ، واستعجال المجهول ، وتحدّى هذا النبىّ بأن ينزل بهم العذاب .

فذهب قدار بن سالف يعاونه بعض الأشقياء ، وهجموا على الناقة فقطعوا أرجلها بالسيف ، أو ضربوها فى لبّتها ؛ فعقروها ؛ فماتت ؛ فقال لهم نبى الله صالح : أمامكم مهلة ثلاثة أيام ، ثم ينزل بكم العذاب، فاستمتعوا بما تريدون من الطعام والمتع والسكنى ؛ فإن العذاب نازل لا محالة .

والأيام الثلاثة إنذار مناسب ؛ لأنه لو زادت المدة لطالت المهلة ، ولم يتحقق المراد من الإرجاف والخوف ، ولو قصرت عن ذلك لم تكن كافية للتأمل والتدبر ، وبين لهم : أن هذا وعيد صادق واقع .

ذَالِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ . هذا وعيد مؤكد ، غير مكذوب فيه .

٦٦- فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ .

أى : فلما حان وقت نزول العذاب والهلاك بهم ؛ عزلنا صالحًا عنهم ، ونجيناه والمؤمنين معه بفضل منا وتلطف ، ورحمة بهم ، لقد نجيناهم من العذاب ، ومن الذل والمهانة والخزى والفضيحة التى أصابت الكفار الهالكين يَوْمِئِذٍ . فى ذلك اليوم الهائل الشديد .

إن يد القدرة الإلهية هى يد القوة القادرة على كل شىء التى تعزّ المؤمنين بعزة الله ؛ فإنهم فى رعاية القدرة القادرة .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ .

إن الله تعالى هو القادر المعزّ المذلّ ؛ بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شىء قدير . قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

٦٧- وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ .

والصيحة هنا هى : صيحة جبريل ، أو صيحة الحق ، وهو صوت العذاب الذى نزل بهم ، فأخذهم الرعب والخوف والهلع ؛ فجثوا على ركبهم من الخوف ، وجمُد الدَّم فى عروقهم ، وأصابتهم صيحة تحمل فى كيانها صاعقة ، أقرب مثل إليها : الرعد المحمل بالصواعق المهلكة ، وهكذا صاروا جثثا هامدة ، وتحولت ديارهم إلى صمت مطبق ، لا حس بها ولا نفس .

٦٨- كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ .

أى : كأنهم لسرعة هلاكهم ، وعدم بقاء أحد منهم ، لم يقيموا فى ديارهم ألبتة .

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ .

يَغْنَوْاْ فِيهَآ . أى : يقيموا فيها ، يقال : غنى فلان بالمكان ، يغنى ؛ إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

والمعنى : كأن هؤلاء القوم الظالمين ، لم يقيموا فى ديارهم عمرا طويلا ، وهم فى رخاء من عيشهم .

أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ . تتكرر هنا أَلَآ . وهى حرف تنبيه ؛ لتلفت الأنظار إلى ملخّص القصة ومغزاها : أن سبب الهلاك هو الكفر بالله وبنعمة الله .

أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ . ألا سحقًا وهلاكا لثمود الذين كفروا بربِّهم ، وبعدًا وطردًا لهم عن رحمة الله ؛ بسبب جحودهم وكفرهم.

لقد طويت صفحة قوم ظالمين ، وعقّب القرآن على القصة بهذه الآية ، وهى تشبه الصدى المردود الذى شيّع به قوم هود من قبل ، قال تعالى : أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . (هود : ٦٠) ؛ كأنما يسجل الجبَّار سبحانه وتعالى فى نهاية كل قصة نطق المحكمة الإلهية التى تحكم على المجرمين ، وتضمَّن حكمها حيثيات الحكم فى إيجاز بليغ ، يعقبه صمت رهيب ، لقد كفروا بالله ؛ فاستحقوا عقاب الله ولعنته ، والطرد من رحمته ، وذلك جزاء الظالمين .

وقد ورد فى الصحيحين : أنّ رسول الله ﷺ مرّ على ديار ثمود وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك ؛ فاستحث راحلته ، وأسرع السير ، وحث قومه على الاعتبار بهم .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

المفردات :

فما لبث : فما أبطأ .

حنيذ : أى : مشوى فوق الحجارة المحمَّاة .

لا تصل إليه : لا تمتد للتناول .

نكرهم : أى : أنكرهم ، يقال : نكره ، ينكره نكرًا ، وأنكره واستنكره بمعنى واحد .

وأوجس منهم خيفة : أحسّ منهم خوفًا فى نفسه .

لوط : نبى كريم ، وهو ابن أخى إبراهيم ، وأول من آمن به .

فضحكت : سرورًا بزوال الخوف ، وقيل : بمعنى : حاضت .

ياويلتا : أصله : يا ويلى وهلاكى ! أى: يا عجبا ! وهى كلمة تقال عند التعجب من بلية أو فجيعة أو فضيحة .

حميد : فاعل ما يستوجب عليه الحمد .

مجيد : كثير الخير والإحسان .

تمهيد فى بشارة إبراهيم بإسحاق

ذكرت قصة إبراهيم فى سورة البقرة ، وذكرت قصته مع قومه فى سورة الأنعام ، وذكر نقاشه مع أبيه فى سورة مريم ، وذكرت قصة إبراهيم مع الذبيح إسماعيل فى سورة الصافات ، وذكرت بشارته

بإسحاق ويعقوب فى سورة الذاريات ، وتكررت قصة إبراهيم فى القرآن الكريم ، وهنا فى سورة هود ، تبشِّر الملائكة إبراهيم بهذه البشرى ، وكان طاعنًا فى السنّ ، وزوجته عجوز عقيم ، وكانت قرى قوم لوط بنواحى الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين ، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط ، مرُّوا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان إبراهيم أبًا للأضياف ؛ يكرمهم ويقدم لهم أحسن الطعام وأجوده .

التفسير:

٦٩- وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

أى : ولقد جاءت رسلنا من الملائكة إلى إبراهيم ؛ للبشارة بالولد ، واختلفت الروايات فى عددهم ؛ فعن عطاء : أنهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل عليهم السلام ، وقيل : مع جبريل سبعة ملائكة آخرون .

قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ . أى : قالوا : نسلم عليك سلاما ، فقال : عليكم سلام .

فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . الحنيذ : هو المشوىّ بحرّ الحجارة ؛ من غير أن تمسه النار ، أو بالشمس .

وتفيد الآيات : سرعة إبراهيم فى تقديم أكل جيد مشوى بطريقة متميزة ، بدون إبطاء ، وجاء فى سورة الذاريات : **فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ .** (الذاريات : ٢٦، ٢٧) ، والعجل : فتى البقر.

٧٠- فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ .

أى : لما رأى إبراهيم أن أيديهم لا تمتد إلى العجل كما يمدّ يده من يريد الأكل ؛ أنكر منهم ذلك ، ووجد فى نفسه خوفًا وفزعًا منهم ، وظن أنهم قد جاءوه بشرٍّ ؛ فإن من لم يأكل طعامك ؛ لم يحفظ زمامك ، وقد صارحهم بالخوف على نحو ما ورد فى سورة الحجر قال تعالى : **وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ .** (الحجر: ٥١-٥٣) .

قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ .

أى : قالوا له : يا إبراهيم ، لا تخف منَّا ؛ فلسنا بشرًا نأكل الطعام ؛ بل نحن ملائكة الله أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم ، وكانت ديارهم قريبة من دياره .

٧١- وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ .

كانت امرأة إبراهيم قائمة وراء ستار بحيث ترى الملائكة ، أو كانت واقفة تخدم الملائكة ، فضحكت ؛ سرورًا بزوال الخوف ، وتحقيق الأمن ، أو استبشارًا بهلاك قوم لوط ؛ لكراهتها لأفعالهم المنكرة .

فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ .

بشرتها الملائكة بأنها تحمل وتلد ولدًا ، وبشرتها بولد الولد ، أى : سيكون لإسحاق ابنها ولدًا يسمّى : يعقوب ، وهو الملقب بـ « إسرائيل » ، ومن ذريته الأسباط ، وأنبياء بنى إسرائيل .

٧٢- قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ .

لاشك أنها فوجئت بهذه البشرى ، واهتزت لها أركانها ، واندهشت وقالت : يا عجبًا كيف ألد وأنا عجوز كبيرة شيخة عقيم ؛ لا تلد فى صباها ، فكيف تلد فى شيخوختها ، وهذا زوجى فى سن الشيخوخة لا يولد لمثله ، إن هذا الخبر لشيء عجيب غريب عادة !!!

وقد جاء فى سفر التكوين : «إن إبراهيم كان عمره يومئذ مائة سنة ، وأن زوجه سارة كانت ابنة تسعين سنة» ا هـ .

والغالب أن حيض المرأة ينقطع فى سنّ الخمسين ؛ فيبطل استعدادها للحمل والولادة ، على أنها كانت عقيما ، قال تعالى : فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ . (الذاريات : ٢٩ ، ٣٠) .

٧٣- قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ .

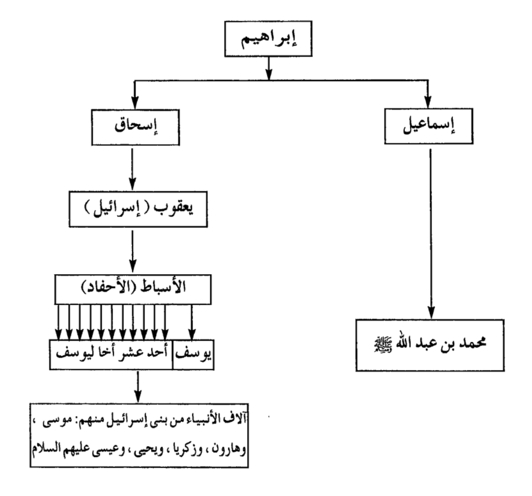
أى : قالت الملائكة لسارة زوجة إبراهيم : كيف تتعجبين من قضاء الله وقدره ؟ أى : لا عجب من أن يرزقكما الله الولد وهو إسحاق ، وأنتما شيخان كبيران يائسان من إنجاب ولدٍ فى هذه السنّ ، فالله تعالى قادر على كل شيء ، وهو يتفضل على عباده ، ويختص من يشاء برحمته ؛ حتى يظل الأمل عند الناس ، ويظل الرجاء فى رحمة الله وفضله قائمًا فى نفوس المؤمنين .

رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ . رحمة الله الواسعة وفضله ونعمه عليكم .

وَبَرَكَٰتُهُۥ . هى النمو والزيادة فيكم وفى نسلكم ؛ فقد رزق إسحاق يعقوب ولقب يعقوب بـ «إسرائيل» ومن نسله كان الأسباط اثنى عشر نبيًّا ، ومن نسل الأسباط كان آلاف الأنبياء من بنى إسرائيل ، وعرف إبراهيم بأنه : أبو الأنبياء وأبو الملّة ، وخليل الله ، وقد نجاه الله من نار الظالمين ، وآواه إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ . إنه سبحانه فعال ما يستوجب الحمد والشكر ، وهو محمود فى جميع أفعاله وأقواله ، مَّجِيدٌ . ذو المجد والرفعة، ممجد فى صفاته وذاته ، كثير الخير والإحسان إلى عباده .

ويمكن تقريب شجرة الأنبياء التى تنسب إلى إبراهيم عليه السلام بهذا الرسم :



★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

الـــروع : بالفتح : الخوف والفزع ، يقال : راعه الأمر ، يروعه روعًا أى : أخافه .

وجاءته البشرى : بدل الروع

يجادلنا فى قوم لوط : يجادل رسلنا فى شأنهم قائلا : إن فيها لوطا .

لحليـم : غير عجول على الانتقام .

أوَّاه : كثير التأوّه من الذنوب ، والتأسف على الناس .

منيب : يرجع إلى الله فى أمره ، يقال : أناب ، ينب إنابة ، أى : رجع وتاب .

أعرض عن هذا : أعرض عن هذا الجدال .

إنه قد جاء أمر ربك : قدره بمقتضى قضائه الأزلى بعذابهم ، وهو أعلم بحالهم .

غير مردود : غير مدفوع لا بجدال ولا بشفاعة .

التفسير :

٧٤- فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ .

أى : فلما سرِّى عن إبراهيم ، وانكشف له ما أوجس منه خيفة ، إذ علم أن هؤلاء الرسل ملائكة من السماء ، وجاءته البشرى بالولد واتصال النسل ، أخذ يجادل الملائكة ، راغبًا فى تأجيل العذاب عن قوم لوط أو تخفيفه .

وكانت حجة إبراهيم : أن قرية لوط فيها العصاة وفيها المؤمنون ، وهلاك القرية سيشمل الجميع ، وقد بينت له الملائكة : أن علم الله شامل لكل فرد ، وأنه سينجِّى لوطا ومن آمن به ، وسيهلك الكافرين .

وقد فصل القرآن الكريم هذه المجادلة بين إبراهيم والملائكة فى سورة العنكبوت فجاء فيها : وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ .(العنكبوت : ٣١ ، ٣٢) .

كما جاءت هذه المجادلة فى الفصل الثامن من سفر التكوين من التوراة ففيه : « إن الرب ظهر لإبراهيم وهو جالس فى باب الخيمة ، فظهر له ثلاثة رجال فاستضافهم ، وأتى لهم بعجل وخبز مَلَّةٍ ؛ فأكلوا ويشروه بالولد ، فسمعت امرأته سارة ؛ فضحكت ، وتعجبت لكبرها ، وانقطاع عادة النساء عنها ، فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة ، هل يستحيل على الربّ شيء ؟! ... وانصرف الرجال (أى: الملائكة) من هناك، وذهبوا نحو سدوم (قرية قوم لوط) ، وإبراهيم لم يزل قائما أمام الربّ ؛ فتقدم إبراهيم وقال : أفتهلك البارَّ مع الأثيم ؟ عسى أن يكون هناك خمسون بارًا فى المدينة ، أفتهلك المكان ؟! ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًا الذين فيه ؟! فقال الرب : إن وجدت فى سدوم خمسين بارًا ؛ فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم ، ثم كلمه إبراهيم مثل هذا فى خمسة وأربعين ، ثم فى أربعين ، ثم فى ثلاثين ، ثم فى عشرين ، ثم فى عشرة ، والربّ يعده فى كلٍّ من هذه الأعداد ، بأنه من أجلهم لا يهلك القوم ، وذهب الربّ عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم إلى مكانه» ا هـ .[٤٥]

٧٥- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ .

تصف هذه الآية خليل الرحمان بثلاث صفات :

لَحَلِيمٌ . غير متعجل بالانتقام من المسيء إليه .

أَوَّاهٌ . كثير التأوه والخشوع والتضرع والدعاء ، وهذا كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب .

مُّنِيبٌ . سريع الرجوع إلى الله فى كل أموره ، أى : أن رقّة قلبه وفرط رحمته حملته على المجادلة .

٧٦- يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم ، اترك الجدال فى أمر قوم لوط والاسترحام لهم ؛ فقد صدر أمر الله تعالى بنزول العذاب بهم ، ولا يُردّ بأس الله عن القوم المجرمين ، وإنهم آتيهم عذاب غير مصروف ولا مدفوع عنهم أبدًا ، لا بجدال ولا بدعاءٍ ولا بشفاعة ونحوها .

ما يؤخذ من الآيات

١- تبادل السلام بين الملائكة والأنبياء .

٢- من السنة: إكرام الضيف ، وتعجيل قراه . والضيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيين والصالحين .

٣- المخاطب بإكرام الضيف : أهل المدن وأهل البادية . فى رأى الشافعى ، وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة.

٤- من أدب الطعام : تعجيل تقديمه ، وتعجيل أكل الضيف .

٥- مشاركة الزوجة لزوجها فى أفراحه وأتراحه ومشاركتها فى خدمة ضيوف زوجها عند أمن الفتنة .

٦- جواز مراجعة المرأة للأجانب فى القول ، وأن صوتها ليس بعورة ، وأن امرأة الرجل من أهل بيته .

٧- أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ؛ لأن الله بشر إبراهيم وسارة بإسحاق ، وبشرهما بأن إسحاق سيلد ولدًا يسمّى : يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فتعين أن يكون الذبيح إسماعيل[٤٦] .

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾

المفردات :

سـيء بـهـم : وقع فيما ساءه وغمَّه بمجيئهم ؛ لأنهم جاءوا في صورة غلمان ؛ فظن أنهم أناس ؛ فخاف أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم .

ضاق بهم ذرعا : ضاق صدره بمجيئهم ، والذرع والذراع : منتهى الطاقة ، يقال : مالى به ذرع ولا ذراع. أى : مالى به طاقة ، ويقال : ضقت بالأمر ذرعا ؛ إذا صعب عليك احتماله .

عصيب : شديد الأذى .

يُهرعون إليه : يسرعون إليه .

ولا تخزون : لا تفضحونى من الخزى ، أولا تخجلونى .

رجــل رشــيــد : ذو رشد وعقل يهتدى إلى الحق ويرعوى عن القبيح .

مــن حــق : من حاجه .

وإنك لتعلم ما نريد : من إتيان الرجال .

لو أن لى بكم قوة : أى : على الدفع بنفسى .

أو آوى إلى ركن شديد : من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين .

قـوم لـوط

هذه هى القصة الخامسة من القصص المذكور فى هذه السورة ، وهى قصة لوط عليه السلام ، وقوم لوط : أهل سدوم فى الأردن قال ابن عباس : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط (ابن أخى ابرهيم) ؛ فبين القريتين أربع فراسخ ، ودخلوا عليه على صورة شباب مُرْدٍ من بنى آدم ، وكانوا فى غاية الحسن ، ولم يعرفْ لوط أنهم ملائكة .

وجاء قوم لوط يسرعون إليه ، ويتخطّون أبواب الدار ؛ رغبة فى إتيان الرجال الضيوف فى دبرهم ، وحاول لوط تذكيرهم وإرشادهم إلى زواج بنتيه ، أو إتيان النساء من أفراد قريته ؛ فالنبى أب لأتباعه وسائر النساء بنات له ، فهو يرشدهم إلى أن الفطرة السليمة تبحث عن قضاء الوطر مع الطرف الآخر ؛ فقد خلق الله الذكر والأنثى ليستمتع كلُّ واحدٍ بالآخر فى حلال ونظافة ونظام ، لكن قوم لوط أصمّوا آذانهم عن سماع نصيحته ، وصمموا على فعل فاحشة اللواط مع ضيوفه ، وهنا تمنّى لوط لو كانت معه قوة من الرجال تحميه وتنصُره ، أو أن له ركن شديد يعتمد عليه من أصحاب العصبيات الذين ينصرون الحق .

لقد كان مجىء الملائكة للوط استدراجًا لقومه ؛ ليظهروا على حقيقتهم ، ويفتضحوا أمام الملائكة ، ويضبطوا متلبسين برغبتهم الشاذّة ، فى إتيان الرجال دون النساء ، وهذه المثلية الجنسية ظاهرة خطيرة ؛ تستحق عقاب السماء ، كما حدث لقوم لوط ، حيث أرسل عليهم الخسف ، وأمطرتهم السماء بحجارة معلمة ترجمهم وتهلكهم ، وهكذا يكون عقاب كل ظالم لم يتنكب الجادة ، ويتبع هواه ويتنكر لوحى السماء .

وفى سفر التكوين : إن لوطا عليه السلام ابن هارون أخى إبراهيم عليه السلام ، وأنه هاجر معه من مسقط رأسهما « أور الكلدانيين » فى العراق ، إلى أرض الكنعانيين ، وسكن إبراهيم فى أرض كنعان ، ولوط فى سدوم بالأردن ، ويظنّ بعض الباحثين : أن بحيرة لوط غمر موضعها بعد الخسف ، ويقال : إن الباحثين فى العصر الحاضر عثروا على آثارها .

التفسير:

٧٧- وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ .

انتقلت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام إلى لوط ، وكانوا فى أجمل صورة بهيئة شباب حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، فساء لوط وصولهم ومجيئهم ، وضاقت نفسه بسببهم ؛ لأنه ظن أنهم من الإنس ؛ فخاف عليهم من خبث قومه ، ورغبتهم الجامحة فى إتيان الذكور ، وخاف لوط من العجز عن حماية ضيوفه، وقال : هذا يوم عصيب شديد شرّه ، عظيم بلاؤه .

٧٨- وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ... الآية .

علم قوم لوط بوجود أضياف فى بيته ، وربما كانت زوجته هى التى أخبرتهم ، فأسرعوا يتدافعون جميعًا ، كأنما يسوقهم سائق ، وهم فى شدة الفرح والتعطش ؛ لقضاء الشهوة مع هؤلاء الرجال .

وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ .

أى : كان شأنهم ارتكاب الفاحشة مع الرجال علنًا ، وقطع الطريق ، والاستيلاء على أموال عابر السبيل؛ بدون رحمة أو رأفة ، كما حكى الله عنهم : أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ . (العنكبوت: ٢٩) .

فهم قوم تعودوا على إتيان هذا الشذوذ فى جماعتهم وناديهم ، وكان لوط عليه السلام ينصحهم ، ويحذّرهم من هذا الشذوذ ، كما قال لهم فى آية أخرى : أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . (الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦) .

قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .

تقرب لوط إلى قومه ، وقال لهم : يا قوم ، النساء أطهر لكم من الرجال ، وأنا أنصحكم بقضاء هذه الشهوة مع بنات أمتى من الزوجات ، والصالحات للزواج ، فكل نبى فى أمته بمنزلة الوالد .

وكان مما يتلى فى القرآن : ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ . (الأحزاب : ٦) .

وقيل : المراد : تزوجوا بناتى هنَّ أطهر لكم من الرجال ؛ أى : عرض عليهم الزواج ببناته من صلبه ، ليصرفهم عن اللواط بضيوفه .

وعلماء التفسير يرجحون أن المراد : تزوجوا بنات أمّتى ، أى : النساء جملة ؛ لأن نبىّ القوم أب لهم ؛ قال مجاهد : لم يكنّ بناته ولكن كنّ من أمته ، وكل نبى أبو أمّته ، وقال سعيد بن جبير : يعنى : نساؤهم هن بناته؛ وهو أب لهم ، وقد رجح الإمام فخر الدين الرازى رأى الجمهور واستدل على ذلك بما يأتى :

١– أنه قال : هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . وبناته اللائى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ؛ أما نساء أمته ففيهن كفاية الكلّ .

٢– أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان ، وهما : زنتا وزعورا . وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ؛ لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة .

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ . أى : راقبوا الله فى ترك هذه الفاحشة السيئة التى لم يسبقكم إليها أحد من العالمين ؛ بل أنتم اخترعتموها واستمررتم عليها .

وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ . لا تفضحونى فى ضيوفى وتذلونى لعدم قدرتى على الدفاع عن ضيوفى ، وإن إهانتهم إهانة لى ، ويطلق لفظ الضيف على المفرد والمثنى والجمع ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ويجمع فيقال : أضياف وضيوف .

أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ . فيه رشد وحكمة وعقل وخير ، يقبل ما آمر به ، وينهاكم عن المنكر ويهديكم إلى الطريق الأقوم .

٧٩– قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ .

أى : لقد علمت سابقًا ألاّ حاجة لنا فى النساء ولا نشتهيهن ، فلا فائدة فيما تقول ، وليس لنا غرض إلا فى الذكور ، وأنت تعلم ذلك منا ، فأى فائدة من تكرار القول علينا – والخلاصة : أنهم صمموا على ما يريدون .

جاء فى تفسير فتح القدير ، تأليف محمد بن على بن محمد الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠هـ ، ٥١٤/٢ :

مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ .

« أى : مالنا فيهم من شهوة ولا حاجة ؛ لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم : أنه قد علم منهم المطالبة على إتيان الذكور ، وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء » اهـ .

٨٠- قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ .

أى : لو كانت لدى قوة تقاتل معى ، أو عشيرة تؤازرنى وتنصرنى عليكم ، وتدفع الشرَّ عنى ؛ لكنت قاتلتكم وحُلْت بينكم وبين ما تريدون .

وفى صحيح البخارى : عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد »[٤٧] . يعنى : حماية الله تعالى .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ ﴾

المفردات :

فاسر بأهلك : أى : فسر بأهلك ليلا ، يقال : أسرى ليلاً ، يسرى إسراءً ، وسرى ليلا ، والسُّرى : السير ليلاً؛ ويقال : سار نهارًا ، يسير سيرًا .

بقطع : طائفة أو بقية من الليل .

ولا يلتفت منكم أحد : لا ينظر وراءه ؛ حتى لا يرى عظيم ما ينزل بهم .

إلا امرأتك : فلا تسر بها .

أمرنا : عذابنا .

جعلنا عاليها سافلها : أى : قراهم رفعها جبريل فى السماء ، وأسقطها مقلوبة إلى الأرض .

سجيل : الطين المتحجر .

منضود : وضع بعضه على بعض وأعدّ لعذابه.

مسومة : أى : لها « سُومة » أو علامة خاصة فى علم ربك أو فى خزائنه .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات فى أعقاب قصة لوط ، وفيها تخبر الملائكة لوطا : بأنهم ملائكة من السماء ، وأن قومه لن يصلوا إلى ما هموا به ، وأن الله مهلكهم ، ومنجيه مع أهله من العذاب

التفسير:

٨١- قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ... الآية .

أى : قالت الملائكة للوط عليه السلام ، عندما رأته مهتمًّا مكروبًا ، خائفًا على أضيافه من عدوان قومه : إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ . أى : ملائكة الله أرسلنا من السماء .

لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ . أى : لن يصلوا إليك بسوء ولا إلى ضيوفك ، وحينئذ طمس الله عيونهم ؛ فلم يعودوا يبصرون لوطًا ومن معه ؛ كما قال تعالى : وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ . (القمر: ٣٧) ، فخرج قوم لوط من بيته يتخبطون ، لا يعرفون الطريق وصاروا يقولون : النجاء النجاء ، إن فى بيت لوط قوما سحرة !

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ . أى : فاخرج أنت وأهلك فى جزء من الليل يكفى لتجاوز حدودها .

قال تعالى : فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . (الذاريات : ٣٥، ٣٦).

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ . ولا ينظر أحد منكم إلى ما وراءه أبدًا ، أو لا يشتغل بما خلفه من مال أو غيره ، قيل : أمروا بذلك ؛ حتى يجدُّوا فى السير قبل نزول العذاب بالظالمين ، وقيل : أمروا بالإسراع ؛ اتقاءً لرؤية العذاب.

وقد أسرع النبى ﷺ عندما مرَّ على قرى هالكة ، وقال : « لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم؛ إلا وأنتم مشفقون ؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم » ، وجاء فى سورة الحجر : وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ .

إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ . أى : امض بأهلك إلا امرأتك فلا تأخذها معك ؛ إنه مصيبها ما أصابهم من العذاب ؛ لأنها كانت كافرة خائنة .

إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ . أى : سينزل بها العذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين فيهلكها معهم .

إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ . أى : موعد هلاكهم فى الصبح ، ابتداء من طلوع الفجر ، إلى شروق الشمس ؛ كما جاء فى سورة الحجر: فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . (الحجر: ٧٣) .

أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . أى : أليس موعد الصبح بموعد قريب ؛ لم يبق له إلا ليلة واحدة ؛ فانج فيها بأهلك.

وقد جعل الصبح ميقاتًا لهلاكهم ؛ لكون النفوس فيه أسكن ، والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم.

٨٢- فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا ... الآية .

أى : فلما جاء أمرنا بالعذاب ، وقضاؤنا فيهم بالهلاك ؛ قلبنا قراها كلها وخسفنا بها الأرض ، وجعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، وهى عقوبة مناسبة لجريمتهم ، حيث قلبوا فطرتهم .

وهذا يذكرنا بما تفعله الزلازل ، وما حدث فى القاهرة من زلزال عام ١٩٩٣م ، حيث تحول أعلى العمارة إلى أسفلها وهلك من كان بداخها .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . وأمطرنا عليهم حجارة من طين متحجر ، مَّنضُودٍ . متتابع فى النزول بدون انقطاع ، موضوع بعضه على بعض .

٨٣- مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ .

أى : معلمة بعلامات من عند ربك ، ومعدّة إعدادًا خاصًا ؛ لإهلاك هؤلاء القوم ، بحيث لا تصيب غير أهلها، فمن لم يمت بالخسف أو الزلازل ، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض هذه الحجارة المعينة التى سخرها الله عليهم ، وحكّمها فى إهلاكهم بحيث لا يمنعها شىء ؛ فهذه الحجارة قدر الله الذى لا يردّ .

وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ . أى : هذا العذاب وذلك الخسف قريب من كل ظالم ، حيث يصيبه الله تعالى على نحو ما ، وفى الحديث الشريف : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »[٤٨] .

وبعض المفسرين يرى أن معنى الآية على النحو الآتى : «وما هذه القرى التى حل بها العذاب بمكان بعيد عنكم ، أيها المشركون من أهل مكة ، الظالمون لأنفسهم بالكفر والتكذيب بمحمد ﷺ ؛ بل هى قريبة منكم ، على طريقكم فى رحلة الصيف إلى الشام ، وإنكم لتمرون عليها فى أسفاركم نهارًا أو ليلا أفلا تعقلون ، وتتدبرون ما نزل بهم ؟! » . قال تعالى : وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الصافات: ١٣٧، ١٣٨) .

فى أعقاب قصة لوط

تفيد هذه القصة لهذا النبى الكريم ما يأتى :

١- أن الكريم الشهم الأبى ، هو الذى يحافظ على كرامة ضيوفه ؛ لذا قال لوط : فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أى : لا تهينونى وتذلونى .

٢- من أَلِفَ الفساد والفحش ؛ بَعُدَ عن الصلاح والطهر ؛ لذا قال قوم لوط : مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ . أى : من حاجة ولا شهوة ، وإنما رغبتنا فى إتيان الذكور .

٣- لا بأس على المسلم أن يستعين بغيره ؛ لنصره الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه ؛ فلوط عليه السلام ، عندما رأى من قومه الإصرار على الشذوذ ، والرغبة فى إتيان ضيوفه ؛ تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم ، أو يأوى إلى عشيرة أو أتباع مؤمنين ، ولا جناح على لوط فى ذلك فقد قال تعالى : وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ . (البقرة: ٢٥١) ، وقد طلب النبى ﷺ من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، وفى الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله لوطًا، لقد كان يأوى إلى ركن شديد »[٤٩] ، ومعناه : أن معه ملائكة الله ، وعون الله الفعال لما يريد ، وحين قال لوط : أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ . لم يكن لوط قد علم بأن ضيوفه من الملائكة ، أو هى خاطرة خطرت ببال لوط ؛ حين رأى نفسه عاجزًا عن الدفاع عن ضيوفه ، ثم أنقذه الله تعالى ببشارة الملائكة[٥٠] .

٤- كان كلام الملائكة متضمنًا أنواعًا خمسة من البشارات هى :

(أ) أنهم رسل الله .

(ب) أن الكفار لن يصلوا إلى ما هموا به .

(ج) أنه تعالى يهلكهم .

(د) أنه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب .

(هـ) أن ركنه شديد ، وأن ناصره هو الله تعالى .

٥- كان إهلاك قوم لوط ما بين طلوع الفجر إلى شروق الشمس ، وتضمن العذاب وصفان :

الأول : الخسف وجعل عاليها سافلها .

والآخر : ضربها بحجارة مسومة كالصاروخ الموجّه لا يصيب غير الظالمين ؛ بحيث نجّى الله المؤمنين ، كما نجى القرى المجاورة ، وانحصر العذاب فى أقوام بأعيانهم ، هم أصحاب الشذوذ المنتكسين بفطرتهم فى استغناء الرجال بالرجال .

٦- هذا العقاب يصيب الله به كل ظالم ، وكل من سلك الشذوذ الجنسى ، وفى الحديث الشريف : أن رسول الله ﷺ قال : « سيكون فى آخر أمتى قوم يكتفى رجالهم بالرّجال ، ونساؤهم بالنساء ، فإذا كان ذلك ؛ فارتقبوا عذاب قوم لوط ، أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل » ثم تلا رسول الله ﷺ : وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ . [٥١] .

★ ★ ★

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفردات :

وإلى مدين : أراد : أولاد مدين بن إبراهيم .

عذاب يوم محيط : أى : لا يشذ منه أحد .

ولا تبخسوا : ولا تنقصوا .

ولا تعثوا : ولا تفسدوا .

بقية الله : ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم .

بحفيظ : أحفظكم من القبائح ، أو رقيب أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها ؛ وإنما أنا نذير ناصح مبلّغ ، وقد أعذرت حين أنذرت .

شعيب

قصة شعيب مع أهل مدين هى القصة السادسة فى سورة هود ؛ تقدمت عليها قصة نوح مع قومه ، وقصة هود ، وقصة صالح ، وقصة إبراهيم ، وقصة لوط .

وقصة شعيب تسير كما سارت قصص الرسل من قبله : دعوة إلى الإيمان بالله ، تحذير من تطفيف الكيل والميزان ، معارضة من قومه ؛ فهم يعبدون الأشجار الكثيفة ، ويثمِّرون أموالهم بالحق والباطل ، ويسيرون حسب أهوائهم ، وشعيب رسول قوى الحجة ، واضح البيان ، له فى قومه سندٌ ، وعشيرة ، ورهط قوى يدافع عنه ؛ لكنه يعتز بأنه رسول الله ، مبلِّغ عن دعوة الله ، وكان النبى ﷺ إذا ذكر شعيبًا ؛ قال : « ذلك خطيب الأنبياء » ؛ لحسن مراجعته لقومه وقوة حجته .

ومدين : اسم القبيلة التى تنسب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى : « معان » وتقع بين حدود الحجاز والشام ، والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية « معان » وكان يسكنها بعض الناس ؛ فأرسل الله شعيبًا إليهم جميعًا .

وقد أمر شعيب قومه بعبادة الله وحده ، ونهاهم عن تطفيف الكيل وعن الخيانة وسوء الأخلاق ، وناقشه قومه ؛ فوضح لهم دعوته ، وأسبابها وأهدافها ؛ فتعنت قومه وكفروا وجحدوا ؛ فأنذرهم شعيب بالعذاب ؛ فأخذتهم الرجفة ، والصيحة ، وعذاب يوم الظلة – أى : السحابة – وكل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

التفسير :

٨٤- **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ** .. الآية .

أى : وما أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم فى النسب والقبيلة ، وهو شعيب عليه السلام ، وكانوا أهل كفر وجشع وطمع ، لا يوفُّون الحقوق ، ولا يحفظون الأمانات ؛ فدعاهم أولا إلى الإيمان بالله تعالى ، فهو الإله وحده ولا يستحق العبادة سواه .

وقد جرت عادة الأنبياء أن يبدءوا قومهم بالدعوة توحيد الله تعالى ؛ لأن الإيمان بالله أصل الفضائل ؛ فهو الذى يمنح الإنسان مراقبة الله ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، ثم نهاهم شعيب عن تطفيف الكيل والميزان ؛ فقال :

وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ . أى : لا تنقصوا الناس حقوقهم فى مكيالكم وميزانكم ، وهذا النقص يكون من جهتين .

الأولى : عند البيع بأن يجعلوا المكيال ناقصًا ، ويسمى : تطفيف الكيل ؛ لأنه لا يكاد يسرق من البائع له إلا الشىء الطفيف .

الثانية : عند الشراء ، بأن يأخذوا من غيرهم أكثر من حقهم فتجد عند التاجر مكيالان يبيع بأحدهما ، وهو الناقص ، ويشترى بالآخر وهو الزائد ، وفى هؤلاء قال تعالى : وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . (المطففين: ١-٥) .

إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ . إنكم من نعمة الله وعافية ، وأرزاق كثيرة ، وأرض طيبة ، وأشجار وارفة ، وثروة كبيرة ، ورفاه فى المعيشة ؛ تغنيكم عن الطمع والدناءة ؛ فى بخس الناس حقوقهم .

وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ . وإنى أخشى عليكم عذاب يوم يحيط بكم جميعًا ؛ فلا يترك أحدًا منكم ، وهو إما عذاب الاستئصال فى الدنيا ، وإما عذاب الآخرة فى جهنم ، قال تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ . (التوبة: ٤٩) .

٨٥- وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ... الآية .

كرر نصيحتهم ودعوتهم إلى وفاء المكيال والميزان بالعدل ، بلا زيادة أو نقصان .

وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ . البخس : النقص والظلم والجور أى : إياكم والظلم والجور فى حقوق الناس .

وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . العثوّ : الفساد التام ؛ وقد كانوا يقطعون الطريق ، ويمنعون الناس من الإيمان بشعيب ، ويحاولون تضليل المؤمنين ، وصدهم عن الإيمان .

والعثو فى الأرض بالفساد ، يشمل جميع أنواع الإفساد والعدوان ، كقطع الطريق ، وتهديد الأمن، وقطع الشجر ، وقتل الحيوان ، وسائر ألوان العدوان .

وقد ذكرت سورة الأعراف جانبًا من ذلك فى قوله تعالى : وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ . (الأعراف : ٨٦) .

٨٦- بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... الآية .

أى : ما يبقى لكم من الربح الحلال ، بعد إيفاء المكيال والميزان ، خير لكم من الحرام ، وأكثر بركة وأرجى عاقبة ، مما تأخذونه بطريق الحرام ؛ بشرط أن تكونوا مؤمنين بالله حق الإيمان ؛ فالإيمان بالله يطهّر النفس من الطمع والجشع ، ويحفزها على العدل فى المكيال والميزان والتزام الحق، والبعد عن الباطل .

وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ . لست رقيبا عليكم ، ولا محاسبًا لكم على أعمالكم ، ولا أملك حفظكم من تطفيف الكيل ، وإنما أنا ناصح أمين ، وقبول النصيحة يتوقف على إرادتكم ورغبتكم ؛ فالرسل عليها تبليغ النصيحة ، وإبراء الذمّة والتبعة ، وعلى كل إنسان مسئولية الاختيار ، قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا . (الشمس: ٧-١٠) .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

المفردات :

أصلاتك : جمع صلاة ، وكان شعيب كثير الصلاة ، وقصدوا : الاستهزاء بصلاته .

الحليم : ذو الأناة والتروِّى الذى لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته .

الرشيد : الذى لا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد .

أرءيتم : أخبرونى .

بينة : حجة واضحة .

ورزقنى منه رزقا حسنا : ومنحنى من لدنه النبوة والحكمة ، وغمرني بنعمه الكثيرة .

أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه : أن أخالفكم إلى فعل ما أنهاكم عنه .

وإليه أنيب : وإلى الله أرجع .

لا يجرمنكم : جرم الذنب أو المال : كسبه ، أى لا يكسبنكم خلافى الشديد معكم ومعاداتى .

ما أصاب قوم نوح : من الغرق .

أو قوم هود : من الريح .

أو قوم صالح : من الرجفة .

وما قوم لوط منكم ببعيد : أى : أنتم حديثو عهد بما نزل بهم .

إن ربى رحيم : عظيم الرحمة للمستغفرين .

ودود : كثير اللطف والإحسان إليهم .

تمهيد :

تقدمت دعوة شعيب لقومه إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، ثم نهاهم عن تطفيف الكيل والميزان ، وهنا يذكر ردَّ قومه عليه ، فردّوا على دعوته إلى التوحيد : بأنهم على دين آبائهم ، وردّوا على نهيه عن تطفيف الكيل : بأنهم حريصون على تثمير أموالهم وزيادتها بالطرق التى تعوَّدوا عليها ، لا بأهواء شعيب .

ثم أعاد شعيب النصح لهم ؛ بتذكيرهم بما أصاب الأمم السابقة من العذاب ، وبدعوته لهم إلى التوبة والإنابة إلى الله ؛ فإنه واسع الرحمة والعطاء لمن أناب إليه .

التفسير :

٨٧- قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ... الآية .

أى : قالوا مستهزئين به ؛ لكثرة صلاته وعبادته : هل صلاتك تأمرك بترك عبادة الآباء والأجداد ، كما يقال لعالم الدين المصلح ، هل علمكَ أو مشيختك دافع لك إلى ترك ما نحن عليه ؟!

أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ . من إتمام الكيل والميزان ، وإخراج الزكاة ، وترك الأرباح التى كنا نحصل عليها ؟

أى : أن ما أمرتنا به مناف لسياسة تنمية المال وتكثيره ؛ وذلك حجر على حريتنا الاقتصادية.

والخلاصة : أن ردّهم على شعيب فى الأمرين تضمن رفضهم للتوحيد ، وإصرارهم على تثمير الأموال بالطرق العديدة المحرمة .

إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ . أى : أنت صاحب الحلم والتروِّى والتعقل ؛ فكيف تأمرنا بما أمرتنا به؟!

وقيل: المعنى: التهكم به ، والمراد : أنت ذو الجهالة والسفاهة فى الرأى ، والغواية فى الفعل ، بهوس الصلاة ، لكنهم عكسوا القضية ؛ تهكما واستهزاءً ؛ كما يقال للبخيل : (لو رآك حاتم لاقتدى بك فى سخائك) .

٨٨– قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ...

أى : أخبرونى : إن كنت على برهان يقينى مما أتانى ربِّى من العلم والنبوة ، وكنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة ؛ منحنى إياها ربِّى .

وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا . أى : مالاً حلالاً مكتسبًا بلا بخس وتطفيف – أو الرزق الحسن : الحكمة ، والنبوة ، والاستقامة على التوحيد ، والهداية إلى الصراط المستقيم .

وحذف جواب أَرَءَيْتُمْ ؛ لما دلّ عليه فى مثله وتقديره : هل يصح لى أن أخون الوحى ، وأترك النهى عن الشرك والظلم ، والإصلاح بالتزكية والتحلية .

وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ .

أى : وما أريد أن آتى ما أنهاكم عنه لأستبدّ به دونكم ، فلو كان صوابًا لآثرته ، ولم أعرض عنه، فضلا عن أن أنهى عنه[٥٢] .

وقال قتادة : لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه .

وقال الثورى : أى : لا أنهاكم عن الشىء وأخالف أنا فى السرّ فأفعله خفية عنكم[٥٣] .

إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ . أى : ما أريد فى تبليغ الرسالة ، ومحاربة المنكر : إلا إصلاح نفوسكم بالتزكية ، والتهيئة لقبول الحكمة ، مادمت مستطيعًا متمكنًا منه .

وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلاَّ بِٱللَّهِ . وما توفيقى لإصابة ذلك فيما أستطيعه منه إلا بحول الله ، وقوته ، وفضله ، ومعونته ، وأعلاها ما خصنى الله به دونكم من نبوته ورسالته[٥٤] .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . فى أداء ما كلفنى من تبليغكم ما أرسلت به ، لا على حولى وقوتى .

وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . أى : وإليه وحده أرجع فى كل ما نابنى من الأمور فى الدنيا ، وإلى الجزاء على أعمالى فى الآخرة، فأنا لا أرجو منكم أجرًا ، ولا أخاف منكم ضرًا .

وجاء فى تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية ما يأتى :

روى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ؛ فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد . فأنا أبعدكم منه » .

٨٩- وَيَـٰقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ .

أى : لا تحملنكم عداوتى وبغضى ، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ؛ فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح من النقمة ، والعذاب[٥٥] .

وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ .

أى : إذا كنتم لم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم هود من ريح دمَّرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتهم ، فاتعظوا بما أصاب قوم لوط من الهلاك ؛ وهم ليسوا بعيدين عنكم لا فى الزمان ولا فى المكان .

فزمن لوط – عليه السلام – غير بعيد من زمن شعيب عليه السلام ، وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب ؛ إذ منازل مدين عند أيلة بجوار معان مما يلى الحجاز ، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت[٥٦] .

٩٠- وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ...

أى : اطلبوا منه المغفرة لما أنتم عليه من الشرك والمعاصى ، وتُوبُوٓاْ إِلَيْهِ . بالتوحيد أو الرجوع عن تطفيف الكيل والميزان .

إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ . فهو سبحانه واسع الرحمة والمغفرة ، عظيم المودة والقبول للتائبين والراجعين إليه ، فما أعظم فضله ، وما أوسع باب رحمته! وصدق الله العظيم : قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الزمر: ٥٣) .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

المفردات :

ما نفقه كثيرا مما تقول: ما نفهم مرادك ، والفقه : الفهم الدقيق المؤثر فى النفس .

رهطك: رهط الرجل : قومه وقبيلته ، والرهط : الجماعة من الرجال خاصة ، من ثلاثة إلى تسعة .

لرجمناك: لقتلناك بالرمى بالحجارة .

بعزيز: بذى عزة ومنعة .

واتخذتموه وراءكم ظهريا: تركتموه وراء ظهوركم ، والمراد : أعرضتم عنه ونسيتموه .

محيـــــــــط : أحاط علمه بكل شيء وأحصاه ؛ فلا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم .

اعملوا على مكانتكم : على غاية تمكنكم من أمركم ؛ وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال : مكُن مكانة : إذا تمكّن أبلغ تمكن .

وارتـــقـــبـــوا : وانتظروا عاقبة ما أقول .

الصــيــحـــة : صيحة العذاب .

جـــاثـــمين : باركين على الركب ، من الجثوم ، وهو للناس بمنزلة البروك للإبل .

كأن لم يغنوا فيها : كأن لم يقيموا فيها ، يقال : غنى بالمكان يغنى ، أى : أقام به وعاش فى نعمة ورغد.

ألا بـــعـــدًا : ألا هلاكا .

التفسير :

٩١- قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ... الآية .

حاول شعيب بيان دعوته وإصلاح قبيلته ؛ وبين لهم بالحجة ، والموعظة الحسنة : الدعوة إلى عبادة الله ، وعدم تطفيف الكيل والميزان ؛ لكن قومه رفضوا دعوته ، وادعوا : أنها غريبة عليهم ثقيلة على مسامعهم ، خافية فى فهمها على عقولهم ، ومرادهم بذلك : الاستهانة بها ، والإعراض عنها ، ولما عجزوا عن محاجته هددوه باستعمال القوة حين قالوا : أى : وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا . أي : لا قوة لك ولا قدرة على شيء من النفع والضرّ ،ولا تستطيع أن تمتنع منّا ؛ إن أردنا أن نبطش بك .

وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ . أى : ولولا عشيرتك الأقربون ؛ لقتلناك رجمًا بالحجارة ، ولكن مجاملتنا لعشيرتك هى التى منعتنا من ذلك .

وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . وما أنت بذى عزة ومنعة ، تحول بيننا وبين رجمك بالحجارة .

٩٢- قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ...

أى : أتتركونى من أجل قومى ، ولا تتركونى إعظاما لجناب الربّ تبارك وتعالى ، الذى خلقكم ورزقكم ، وأرسل إليكم رسولا منكم ؟! وإهانة هذا النبى أو رجمه يؤدى إلى هلاككم .

وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا . أى : واستخففتم بربكم فجعلتموه خلف ظهوركم ، لا تطيعون أمره ، ولا تخافون عقابه ، ولا تعظمونه حق التعظيم .

إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . إن ربى مطلع على أعمالكم ، ولا يخفى عليه شىء من أفعالكم ، وسيجازيكم عليها ، وأمَّا رهطى فلا يستطيعون لكم ضرًا ولا نفعًا .

٩٣- وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ... الآية .

أى : اعملوا ما شئتم بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وابذلوا جهدًا فى عداوتى ؛ فإن ذلك لن يثنينى عن دعوتى ويقينى بربِّى وخالقى .

إِنِّى عَٰمِلٌ . على مكانتى ، على قدر ما يؤيدنى به ربِّى ، من وسائل التأييد والتوفيق .

سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ . أى : سوف تشاهدون وتعلمون علم اليقين : من الذى سيأتيه عذاب يذلّه ويخزيه بالهوان والمذلة ، أنا أم أنتم ، ومن هو كاذب فى قوله ، ومن هو صادق منى ومنكم .

وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ . أى : انتظروا عاقبة تكذيبكم وسوء أفعالكم ؛ إنى منتظر عاقبة أمركم ومراقب لها ، وفيه ألوان من التهديد والوعيد من رسول واثق بنصر الله ، وهلاك المكذبين .

٩٤- وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ...

أى : ولما جاء أمرنا بعذابهم ، نجينا رسولنا شعيبًا والذين آمنوا معه ، فصدَّقوه وفازوا بالإيمان الصادق والطاعة الخالصة ، وفازوا بالنجاة من الهلاك ؛ برحمة خاصة بهم .

وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ . أى : صاح بهم جبريل صيحة نزلت بهم فأهلكتهم ؛ فأصبحوا من شدة الرُّعْب جاثمين على ركبهم ، هالكين لا حراك بهم .

قال ابن كثير :

ذكر هـهنا : أنه أتتهم صيحة ، وفى الأعراف : رجفة ، وفى الشعراء : عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة؛ اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النِّقم كلها ، وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه ؛ ففى الأعراف

لما قالوا : لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ... ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها وأرادوا : إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم ؛ ذكر الصيحة التى استلبثتهم وأخمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . قال: فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

وهذا من الأسرار الدقيقة ، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا[٥٧] .

٩٥– كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ . كأنهم لم يقيموا فيها متصرفين فى أطرافها ، متقلبين فى خيراتها .

أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ . أى : هلاكًا لهم ، وبُعْدًا من رحمة الله ، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته، «وكانوا جيرانهم قريبا منهم فى الدار ، وشبيها بهم فى الكفر وقطع الطريق ، وكانوا عربًا مثلهم»[٥٨] .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

المفردات :

بـآيـاتـنـا : هى الآيات التسع التى أعطاها الله لموسى عليه السلام معجزة دالة على صدقه، والمذكورة فى سورة الأعراف / ١٣٣ ، والإسراء / ١٠١ ، والنمل / ١٢.

وسلطان مبين : حجة بالغة ودليل قاطع بصدق رسالته .

ومـلـئـه : وأشراف قومه الذين يملئون العين مهابة .

يقدم قومه : يتقدمهم ويسير أمامهم إلى النار .

فأوردهم النار : تسبب فى دخولهم إلى النار .

وبئس الورد المورود : وبئس المكان الذى يردونه – النار -- .

واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة : أى : وجعلت اللعنة تتبعهم .

بئس الرفد المرفود : بئس العون المعان أو العطاء المعطى ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى : رفدهم ، وهو اللعنة فى الدّارين .

تمهيد :

ساقت السورة فى طياتها جانبًا كبيرًا من القصص حسب التسلسل التاريخى – فذكرت قصة نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب ، وأخيرًا هنا نجد قصة موسى مع فرعون .

وموسى عليه السلام هو ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب ، ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت فى حوالى القرن ١٣ ق. م ؛ وأنّ بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس .

التفسير :

٩٦– وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .

أى : تالله لقد أرسلنا موسى بالآيات والمعجزات التسع الباهرة ، الدالة على توحيد الله ، وفيها السلطان الواضح الجلىّ ، أى : الدلالة القاطعة المؤيدة بالحس المشاهد ، على صدق رسالته .

الآيـات التسـع

الآيات التسع هى :

١– العصا تبتلع حبال السحرة .

٢– اليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء بياضًا يغلب ضوء الشمس .

٣– الطوفان. ٤– الجراد. ٥– القمّل. ٦– الضفادع. ٧– الدم.

قال تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ .. (الأعراف: ١٣٣).

٨، ٩– الأخذ بالسنين ، والنقص فى الثمرات ، قال تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . (الأعراف : ١٣٠) .

ومن المفسرين من أبدل بنقص الثمرات والأنفس : إظلال الجبل ، وفلق البحر .

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . كما أيدناه بالحجج البالغة ، والبيان الساطع أثناء دعوته إلى الإيمان ،

حين قال فرعون : فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَى * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ. (طه: ٤٩ – ٥٤) .

٩٧– إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ... الآية .

أى : أرسلنا موسى إلى فرعون وسادات قومه ، وخصَّهم بالذكر ؛ لأن الأمر بيدهم ، ولأنهم كوَّنوا مع فرعون قوة قادرة مهيمنة جبَّارة ؛ ترفض الإيمان ، وتغرى الأتباع أن يكفروا بموسى ورسالته ، ويتبعوا فرعون مع جهله وبطشه ، وسوء سلوكه ، حيث جعل من نفسه إلهًا ، وظلم وتجبر ، ثم شايعه قومه واتبعوا أمره .

وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . أى : ما شأنه وتصرفه بذى رشد وهدى ؛ بل محض الغىِّ والضلال ، والظلم والفساد ، فى غروره بنفسه وكفره بربّه ، وطغيانه فى حكمه .

٩٨– يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ .

لقد كان يقودهم فى الدنيا ، ويتبعونه مع ظلمه وبطشه وكفره ، وكأن الله تعالى يقول لهم ، خلقت لكم عقولا وإرادة وكسبًا واختيارًا ، فألغيتم عقولكم ، وسرتم وراء فرعون الظالم فى الدنيا ، وجعلتموه متقدما عليكم ، وأنتم تابعون له ، فإذا كان يوم القيامة ، فإنه يتقدم عليكم ؛ ليصل إلى النار فيدخلها ، وتدخلون وراءه إلى النار .

جاء فى ظلال القرآن :

فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ . أوردهم كما يورد الرّاعى الغنم ، ألم يكونوا قطيعًا يسير بدون تفكير ؟! ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهى حرية الإرادة والاختيار ؟!

وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ . أى : بئس الورد الذى يردونه : النار ؛ لأن الورد – وهو النصيب من الماء – إنما يُراد ؛ لتسكين الظمأ ، وتبريد الكبد ، والنار على الضدّ من ذلك .

٩٩- وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ .

أى : واستحق آل فرعون اللعنة فى الدنيا ؛ بسبب كفرهم وإيثارهم العاجل على الآجل ؛ وأما يوم القيامة فإن الله يطردهم من رحمته ، ويحرمهم من جنته ورفده وعطائه ؛ فبئس العطاء عطاؤهم، وبئس الجزاء جزاؤهم ؛ حيث يقول سبحانه : وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ . (محمد: ١٥).

وسمى ذلك : رفدًا وعطاءً ؛ تهكمًا بهم ، فالإنسان ينتظر العطاء ؛ لينعم به ، ولكن هؤلاء يعطون الحميم والغسلين ، وتنزل عليهم اللعنة فى الدنيا والآخرة .

وفى ختام هذه القصة نجد عبرة وعظة تتمثل فى الآتى :

١- وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ؛ فكل نبى قال لقومه : ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ .

٢- الناس فى كل زمان فيهم الأخيار الذين يتبعون الرسل ، وفيهم الأشرار الذين يحاربون الحق .

٣- العاقبة للمتقين والنجاة للمؤمنين والهلاك للكافرين .

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

المفردات :

ذلك : النبأ المذكور سابقا .

من أنباء القرى : المهلكة .

قائم : منها باق : كالزرع القائم ، وهلك أهله دونه .

وحصيد : أى : ومن القرى ما زال أثره وهلك بأهله ؛ فلا أثر له كالزرع المحصود بالمناجل.

تتبيب : إهلاك وتخسير ، يقال : تبّ ، يتبّ تبًّا : هلك ، وتببه تتبيبًا : أهلكه .

أخذ ربك : إهلاك ربك إياهم .

أليم شديد : شديد الإيلام ، غير مرجو الخلاص منه ، وهو مبالغة فى التحذير والتهديد .

تمهيد :

ذكر الله تعالى فى هذه السورة قصص الأنبياء مع الأمم السابقة فى ترتيب بديع ، وتنسيق للحوار والمواقف ، وبيان لجهاد الرسل وتكذيب أقوامهم وقد مر بنا ذكر سبع من هذه القصص : قصة نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى عليهم السلام .

ثم تأتى هذه الآيات لبيان عاقبة الظالمين وسنن الله فى نصر المؤمنين ، وإهلاك المكذبين .

التفسير :

١٠٠- ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ .

هذا الذى قصصناه عليك فى هذه السورة من أخبار الأمم السابقة ، وأنباء القرى المهلكة .

مِنْهَا . من هذه القرى المهلكة ما هو قائم على عروشه ومبانيه ؛ فلا زالت آثارها قائمة يراها الناظر إليها كآثار قوم ثمود ، ومن هذه القرى ما انطمرت معالمه ، وعفت آثاره ، وصارت كالزرع المحصود الذى استؤصل بقطعه ، فلم تبق منه باقية ، كقرى قوم نوح وقوم لوط .

١٠١- وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ... الآية .

أى : أن الله لم يظلم هذه القرى المهلكة ، ولم يهلكهم بدون وجه حق ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم؛ فساروا وراء شهواتهم ، وكذبوا رسل الله وأنبياءه ، وتجاوزوا الحق والعدل ؛ فى شركهم وعبادتهم للأصنام والأوثان ، فاستحقوا الهلاك والعقاب .

فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ . فما دفعت عنهم آلهتهم العذاب ، ولم تنفعهم الأصنام التى عبدوها من دون الله شيئًا من النفع ، بل هى لم تنفع نفسها ؛ فقد اندثرت معهم كما اندثروا .

لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ . لما جاء عذابه وهلاكه ، وأصبحوا فى مسيس الحاجة إلى نفع هذه الأصنام وشفاعتها ؛ لم يجدوا منها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ . أى : وما زادتهم الأصنام التى كانوا يعبدونها ؛ إلا هلاكا وخسرانا ، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع .

١٠٢ - وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

أى : ومثل ذلك الأخذ بالعذاب الذى مرّ بيانه ، وكما أهلكنا القرى الظالمة الذين ظلموا رسل الله وأنبياءه ، كذلك نفعل بأشباههم فنهلك الظالمين ؛ تطهيرًا للأرض من الظلم والعدوان .

إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . إن عقاب الله وجيع مؤلم لا يرجى منه الخلاص ، وهو إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم .

جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

روى الشيخان : عن أبى موسى الأشعرى : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليملى للظالم[٥٩] حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾

المفردات :

لآيـــــــــة : لعبرة وعظة .

خـاف عـذاب الآخـرة : أى : يعتبر بتلك القصص من خاف عذاب الآخرة .

مجمـوع لـه الـنـاس : يجمع له الناس للحساب والجزاء .

مشـــــهـــــود : كثير شاهده من الملائكة والرسل وسائر البشر .

لأجل معدود : لانقضاء مدة معدودة متناهية .

فمنهم : من الخلق أهل الموقف .

شقوا : كانوا أشقياء بكفرهم ومعاصيهم .

زفير وشهيق : الزفير: إخراج النفس من الصدر ، والشهيق : إدخاله فيه ، والمراد : تلاحق أنفاسهم فى النار من شدة العذاب .

إلا ما شاء ربك : استثناء من الخلود فى النار ؛ لأن بعضهم كفسَّاق الموحدين يخرجون منها .

غير مجذوذ : غير مقطوع . يقال : جذّه جذًا ، أى : قطعه .

فى مرية : فى شك .

نصيبهم غير منقوص : جزاءهم كاملا .

التفسير :

١٠٣- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ... الآية .

إن فى هذا الذى ذكر من قصص الأمم السابقة ، وما أصاب المكذبين من الهلاك ، لعظة وعبرة للذين يخافون عذاب الآخرة ؛ فيحملهم ذلك الخوف على سلامة النظر ، وحسن الاعتبار ، وسرعة الاستجابة إلى دعوة الحق .

ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ .

ذلك اليوم يوم الحساب والجزاء فى الآخرة ، يوم يجمع فيه الناس جميعًا ، أولهم وآخرهم ؛ ليحاسبوا على أعمالهم ، ثم يجازوا عليها ، كقوله تعالى : وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . (الكهف: ٤٧) .

وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . أى : تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها .

١٠٤- وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ .

أى : وما نؤخر إقامة القيامة ؛ إلاَّ لانتهاء مدة محدودة فى علمنا ، لا يزاد عليها ولا ينقص منها، وهى عمر الدنيا ؛ لإعطاء الفرصة الكافية للناس لإصلاح أعمالهم،وتصحيح عقيدتهم ، قال تعالى : وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً . (الكهف: ٥٨) .

١٠٥- يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ...

أى : يوم يأتى هذا اليوم ، ويعرض فيه الناس على ربهم ؛ لا تملك نفس من أمرها شيئًا ، فلا تنطق بكلمة حتى يؤذن لها من الله سبحانه ؛ وذلك لهول الموقف . قال تعالى : يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا . (النبأ : ٣٨) .

لقد خشع الجميع لعدل الجبار ، وسكنت كل نفس ، قال تعالى : وَخَشَعَتِ ٱلأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا . (طه : ١٠٨) .

وينقسم الناس إلى قسمين : طائع لله فى الدنيا ؛ فهذا هو السعيد ، وعاص كافر ؛ فهذا هو الشقى.

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . أى : فمن أهل هذا الجمع فى ذلك اليوم : شَقِيٌّ ، معذب ؛ لكفره وعصيانه ، ومنهم : سَعِيدٌ ، منعم فى الجنان ؛ لطاعته واستقامته قال تعالى : فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ . (الشورى : ٧) .

١٠٦- فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ .

هؤلاء الأشقياء تنقطع أنفاسهم من هول ما يعانون من عذاب النار ، فالزفير : خروج الهواء بشدة وكرب ، والشهيق : استنشاق الهواء بشدة وكرب فمن نزل به مكروه ، أو رَكض ركضا متتابعا ، أو صعد فى طبقات الجو العليا ؛ صار صدره ضيقًا حرجًا ؛ يحتاج إلى شهيق متتابع ، وزفير متتابع ؛ ليعوِّض نقص الأكسوجين . والمقصود : تلاحق أنفاس الأشقياء بالزفير والشهيق ؛ من حرج صدورهم ، وشدة كربهم ، ويأسهم من النجاة .

قال الآلوسى :

« والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمِّهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، واستبدّ به الضيق ؛ حتى صار فى كرب شديد » . ا هـ .

١٠٧- خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

أى : ماكثون فى النار على الدوام مدة بقاء السماوات والأرض ، والمراد : التأبيد ونفى الانقطاع، على سبيل التمثيل ، كقول العرب : لا أفعل هذا ما لاح كوكب ، وما تغنَّت حمامة ، وما أضاء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار .. إلى غير ذلك من كلمات التأبيد عندهم .

والمعروف أنه إذا جاء يوم القيامة ؛ اضمحل نظام الكون ؛ فانشقت السماء على غلظها ، وامتدت الأرض وألقت ما بداخلها ، قال تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨)

ويجوز أن يكون المراد : إن أهل الجنة خالدون فيها فى إقامة دائمة خالدة ؛ مادامت سماوات الآخرة وأرض الآخرة قال تعالى : وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ . (الزمر: ٧٤) .

ولأنه لابدّ لأهل الآخرة مما يقلّهم ويظلّهم ، وكل ما أظلك فهو سماء ، قال ابن عباس : لكل جنة أرض وسماء .

إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

تعددت آراء المفسرين فى تفسير هذا المقطع من الآية ومن هذه الآراء ما يأتى :

أولاً : إن هذا الخلود فى النار للأشقياء ليس أمرًا واجبًا بذاته ؛ بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فكل شىء فى الكون بإرادته سبحانه ومشيئته . قال ابن جرير الطبرى : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف شيئًا بالدوام أبدًا ؛ قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض ، ويقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار.

ثانيا : المراد بالذين شقوا : الكفار ، وأهل التوحيد من أهل الكبائر ؛ فيخلدون فى النار ويمكثون فيها مكثًا طويلاً إلا ما شاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة . أى : العصاة من المؤمنين[٦٠].

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

إن الاستثناء إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ . عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ؛ حيث يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرًا قطّ . وقال يومًا من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا ، فى تفسير هذه الآية الكريمة[٦١] .

وجاء فى زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ما يأتى :

إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ . من تأخير قوم عن ذلك ، وقيل : إلا العصاة من المؤمنين فيخرجون منها ، ويبقى فيها الكفار .

وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترًا يفيد العلم الضرورى : بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصًا لكل عموم .

ثالثًا : ذكر القرطبى أحد عشر وجها فى تفسير الآية ، ونقل القرطبى فى الوجه الرابع فى تفسيره لها: عن ابن مسعود أنه قال : **خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ** . لا يموتون فيها ولا يخرجون منها: **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** . وهو أن يأمر بالنار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم ؛ ليتجدد تعذيبهم . ا هـ .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ** .

(النساء : ٥٦)

إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

يصنع فى الدنيا والآخرة ما يشاء ؛ فلا يمنعه أحد من العفو عن عصاة المؤمنين ، بعدما عذبوا على ذنوبهم .

وجاء فى زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ما يأتى : عن عمر قال : لو لبث أهل النار فى النار قَدْر رمل عالج ؛ لكانَ لهم على ذلك يوم يخرجون فيه . والله أعلم .

١٠٨ – وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ .

ذكر سبحانه جزاء الأشقياء فيما سبق ، وفى مقابل ذلك ذكر جزاء من أسعده الله بالإيمان والعمل الصالح واتباع ما جاءت به الرسل – هؤلاء السعداء فى الجنة خالدين فيها خلودًا أبديًا سرمديًا مدة بقاء السماوات والأرض .

إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ . إلاَّ الوقت الذى يشاء سبحانه فيه ؛ أن يكون لهم موعدًا عند ربهم ؛ حيث يحلّ عليهم رضوانه ، ويشملهم بفضله . قال تعالى : **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** . (يونس : ٢٦) .

أى: للذين آمنوا الجنة ، ثم الزيادة هى رضوان الله عليهم ، أو رؤية الله تعالى فى الآخرة رؤية منزهة عن الكمّ والكيف ، فنحن نؤمن بها ونفوّض المراد منها إلى الله – وبعض المفسرين أنكر هذه الرؤية ؛ تنزيها لله تعالى عن مشابهة الحوادث ، وبين الفريقين نقاش طويل يلتمس فى مواطنه .

ومعنى الاستثناء : إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ . إلا الوقت الذى ينقلون فيه من نعيم الجنة ، إلى ما هو أعلى منه من الفوز برضوان الله الذى هو أكبر من الجنة قال تعالى : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . (التوبة: ٧٢)، ولهؤلاء السُّعداء أيضًا ما يتفضل الله به عليهم ؛ سوى ثواب الجنة مما لا يُعرف كنهه ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُون . (الزخرف: ٧١) .

عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ . عطاءً غير منقطع ولا ممنوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية ، كقوله تعالى : لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . (الانشقاق: ٢٥) .

قال ابن كثير :

« الاستثناء هنا فى قوله تعالى : إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ . معناه : أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائما ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد ، كما يلهمون النَّفَس[٦٢] » ا هـ .

ويمكن أن نستنبط من التعبير بالمشيئة هنا ما يفيد : أن نعيم الجنة تَفَضُّلٌ من الله على عباده ، وجزاء زائد ، ومِنَّةٌ من الخالق الفعال لما يريد .

روى البخارى ومسلم والنسائى : عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ : قال : « لن يدْخَل أحدٌ منكم الجنة بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته»[٦٣] .

وجاء فى الصحيحين : «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال: يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت»[٦٤] .

وفى الصحيح أيضًا : «فيقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبأسوا أبدًا»[٦٥] .

١٠٩ - فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰؤُلاَءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ .

الخطاب هنا للرسول ﷺ : والمراد : من يتأتى منه الخطاب .

والمعنى: لا يتطرق إليك أيها الرسول، شك فى ضلال هؤلاء المشركين، وأن عبادتهم للأصنام لا تقوم على حجة أو منطق، بل يعبدون الأصنام؛ تقليدًا للآباء بدون تعقل أو روية.

وإن زعموا: بأنهم يعبدونها؛ لأنها تقربهم إلى الله زلفى فهو زعم باطل؛ لأن الأصنام لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا؛ فكيف تملكهما لغيرها ؟!

وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ.

أى: وإننا لمجازوهم على عقائدهم الباطلة، وأعمالهم الفاسدة جزاء كاملا غير منقوص، كما جازينا الأمم السابقة.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بهذه الفقرة: بيان عدالة الله تعالى فى حق الكفار، فيوفيهم ثواب أعمالهم الحسنة فى الدنيا؛ فيكون معنى: وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ. أى: إنّهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق، فإنا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية ا هـ.

والأرجح: وإنا لموفوهم نصيبهم من العذاب كاملا، وربما كان الكلّ مرادًا، والله أعلم.

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

المفردات:

الكتاب: التوراة.

فاختلف فيه: بالتصديق والتكذيب فآمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف مشركو مكة فى القرآن.

ولولا كلمة سبقت من ربك: لولا وعد سبق من ربّك: بتأجيل العذاب حتى حين يعلمه.

شك منه مريب: شك مزْعج محيرُ مقلق.

تمهيد :

كان فى قصص الأنبياء السابقين عبرة وعظة ، فقد سخر قوم نوح من نبيهم ، وكفروا بدعوته فأُغرقوا ، وتوالت الرسل من بعدهم ، ومع كل رسول حجة وبينة وبيان ، ويقابله قومه بالجحود والنكران ، ثم يستمر الرسل فى جهادهم وبيانهم ، وتحدّى أقوامهم ؛ وفى النتيجة هلاك المكذبين ، ونجاة المؤمنين . وهنا يذّكر القرآن أهل مكة أيضًا بقوم موسى الذين اختلفوا فى التوراة بين مؤمن وكافر ؛ فعاقبهم الله وجازاهم ؛ بسوء أعمالهم .

التفسير :

١١٠– وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ... الآية .

تأتى هذه الآية ؛ تسلية للرسول ﷺ بأن خلاف قومه عليه لم ينفرد به ؛ بل هو الشأن فى جميع أمم المرسلين ، وضرب له مثلا بقوم موسى حين اختلفوا عليه .

ومعنى الآية :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ...

أى : كما اختلف قومك يا محمّد بشأن القرآن ؛ فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه ، كذلك اختلف بنو إسرائيل بشأن التوراة ظلمًا وبغيًا ، وتنازعًا على الزعامة والمصالح المادية ؛ فآمن بالتوراة قوم وكفر بها آخرون .

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ .

أى : لولا سبق القضاء بتأخير العذاب إلى أجل مسمًّى ؛ لقضى بينهم فى الدنيا ؛ بإهلاك العُصَاة وإنجاء المؤمنين ، كما حدث لأمم آخرين .

وتلك كلمة الله العليا فى إمهال العصاة والكافرين ؛ رجاء توبتهم ورجوعهم إلى باب الله تعالى: قال تعالى : **وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاً .** (الكهف : ٥٨) ، وقال تعالى : **وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا.** (فاطر: ٤٥) .

وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .

وإن قومك يا محمد لفى شك من القرآن ، موقع فى حيرة لهم ، ولو أنصفوا ؛ لبادروا إلى الإيمان به ؛ فإن مبعث ريبهم هو استمساكهم بدين الآباء ، وتعصُّبهم له ، وعدم إصغائهم إلى الرسول الناصح الأمين .

وبعض المفسرين أعاد الضمير فى هذه الفقرة إلى قوم موسى ؛ إذ هم المختلفون فى الكتاب الشاكّون فى التوراة كما قال تعالى : وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ . (الشورى: ١٤) والذين أورثوا الكتاب هم : اليهود والنَّصارى .

وقيل : يعود الضمير على المختلفين فى الرسول من معاصريه والمختلفين فى التوراة من بنى إسرائيل.

قال ابن عطية : « وأن يعمهم اللفظ أحسن عندى وهذه الجملة من جملة تسليته ﷺ» .

من تفسير فتح القدير للشوكانى :

قال الشوكانى : قوله سبحانه : وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ . أى : لولا أن الله تعالى قد حكم بتأخير عذابهم ، إلى يوم القيامة ؛ لما علم فى ذلك من الصلاح؛ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ . أى : بين قومك ، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين ، فأثيب المحق ، وعُذِّب المبطل ، أو الكلمة هى : أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ؛ فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك .

وقيل : إن الكلمة هى : أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له ﷺ .

١١١- وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

وإن كلا من المؤمنين والكافرين ، المختلفين فى كتاب الله ، ليوفينهم الله جزاء أعمالهم ، وما وعدوا به من خير أو شرّ ، فهو سبحانه عليم بما يعمله المحسنون والمسيئون خبير بشك الشاكّين وريب المترددين ، مطلع على خفايا النفوس ، فهو قاضٍ عادل ، محيط بالحيثيات والضمائر ، بصير بالخفايا ، مطلع على السرائر ، فهو أهل للحكم العادل ، قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

★ ★ ★

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

المفردات :

فاستقم كما أمرت : نفِّذ ما أمرناك به دون ميل عنه بزيادة أو نقص .

ولا تطغوا : لا تتجاوزوا الحدّ الذي أمرتم به ، وذلك بالإفراط أو التفريط .

ولا تركنوا : أي : لا تميلوا إليهم أدنى ميل ، والركون : الميل اليسير .

إلى الذين ظلموا : لا تميلوا إلى الظالمين بمودّة ، أو مداهنة ، أو رضى بأعمالهم .

التفسير :

١١٢- فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

الزم أيها الرسول ﷺ طريق الاستقامة على أمر الله ، والالتزام بأوامره ، واجتناب نواهيه ، أنت ومن آمن بك ، وصدَّق دعوتك ، ولا تحيدوا عن الحق ، ولا تميلوا عن أوامر الشرع ؛ إن الله تعالى مطلع عليكم ، بصير بأعمالكم ، خبير بنوازع نفوسكم ، وسيجازيكم أعدل الجزاء .

وليس معنى الآية أنه ﷺ لم يكن مستقيما ؛ بل معناها : دم على الاستقامة ، أنت ومن معك من المؤمنين ، واستمرَّ عليها ، فمن أطاع الله ؛ يسر الله له أسباب النصر ، ولما نزلت هذه الآية ؛ لزم النبى ﷺ الطاعة ، وشمَّر عن ساعد الجدّ ، بل وعجَّل عليه الشيب ، وقيل : أوانه .

أخرج الترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : «شيبتنى هود والواقعة وأخواتهما»[٦٦] .

أراد قوله تعالى : فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ : عن الحسن أنه قال : لما نزلت هذه الآية قال ﷺ : «شمّروا شمّروا» وما رؤى بعدها ضاحكا ، وعن ابن عباس : قال : ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشق من هذه الآية .

الاستقامة

هى السير المستقيم ، وهى التزام الجانب المعتدل فى الدين ، والسير على هدى القرآن وسنة الرسول الأمين ، وفى صحيح مسلم : عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال : «قل آمنت بالله ثم استقم»(٦٧) .

والدعوة إلى الاستقامة وتجنب الطغيان هدف تربوى ودليل علمى ، وصَّى به القرآن والسنة ؛ قال تعالى : فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ . (الشورى : ١٥) ، وقال عز شأنه : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ. (فصلت : ٣٠-٣٢)

والاستقامة تتسع لتكون منهج حياة إسلامية متكاملة ؛ فتقتضى توحيد الله فى ذاته ، وصفاته ، والإيمان بالغيب من جنة ونار وبعث وحساب وجزاء ، وملائكة وعرش ، والتزام ما أمر به القرآن فى نطاق العبادات والمعاملات ، وهى درجة عليا وعسيرة ، إلا على من جاهد نفسه ، وترتفع عن أهوائه وشهواته ، وقد أُمر بها موسى وهارون بقوله تعالى : قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (يونس : ٨٩)

الاستقامة واليسر

مما ييسر الاستقامة : الالتزام بتوجيه الله تعالى من فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، قال تعالى : مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ . (المائدة: ٦) .

وقال ﷺ : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا »(٦٨) .

وروى البخارى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدين يسر ، ولن يشادَّ الدين أحد إلاَّ غلبه، فسدِّدُوا وقاربوا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة»(٦٩) .

وكانت عبادة الرسول ﷺ وسطًا لا إفراط فيها ولا تفريط ، مراعاة للطاقة البشرية لأمّته ، أخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : « كنت أصلى مع النبى ﷺ فكانت صلاته قصدًا ، وخطبته قصدًا »(٧٠) .

١١٣- ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ... الآية .

ولا تميلوا أدنى ميل إلى الظالمين ؛ بمشاركتهم أو معاونتهم أو الميل إليهم بقلوبكم ؛ بل يجب بغض الظالم ، والبعد عنه . فإذا خالط الإنسان الظالم للضرورة . أو لتوجيهه وتحذيره ؛ فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى « وقد تضمنت الآية صراحةً : بيان عاقبة الركون إلى الظلمة ، وهى الإحراق بالنار ؛ بسبب مخالطتهم ومصاحبتهم ، وممالأتهم على ما هم عليه ، وموافقتهم فى أمورهم والظلمة هم أعداء المؤمنين من المشركين ، أو كل ظالم ، سواء أكان كافرًا أم مسلما ؛ والرأى الثانى أصح ؛ لأن الأخذ بعموم الكلام أولى»[٧١].

قال الشوكانى :

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ .

والركون المنهى عنه هو: الرضا بما عليه الظلمة ، أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ، ومشاركتهم فى شىء من تلك الأبواب ، فأمّا مداخلتهم لرفع ضرر ، واجتلاب منفعة عاجلة ؛ فغير داخلة فى الركون[٧٢].

وقد حذر القرآن الكريم من الظلم ، والركون إلى الظلمة ، كما حذّرت السنّة المطهرة من عاقبة الظلم ، وفى الحديث الشريف: « اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »[٧٣] ، وفى الحديث القدسى الذى رواه الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : ياعبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ... »[٧٤] .

وفى الحديث القدسى أيضا يقول الله تعالى : « ثلاث لا أرد لهم دعوة ، دعوة الوالد لولده ، ودعوة الصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم ترفع فوق السماء ، ويفتح لها الحجاب ، ويقول الله تعالى : وعزتى وجلالى ، لأنصرنّك ولو بعد حين»[٧٥] .

ويقول الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا	الظلم شيمته يدعو إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه	يدعو عليك وعين الله لم تنم

وجاء فى تفسير القاسمى :

« الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ؛ لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا ؛ فكيف يكون حال من ينغمس فى حمأته ؟! .

ثم قال : وقد وسَّع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على إحقاق الحق ، أو جلب الخير ، فلا حرج فى ذلك ، وإن كانت لإيناسهم ، وإقرارهم على ظلمهم فلا ... » .

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ .

وليس لكم غير الله أنصار أبدًا ينفعونكم ، ويمنعون العذاب عنكم حتى هؤلاء الذين ركنتم إليهم .

ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ . ثم لا ينصركم الله ، ولا تجدون من ينصركم ؛ لأن الله لا ينصر الظالمين ، قال تعالى : وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (البقرة: ٢٧٠) .

وقال سبحانه : وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ . (الحج: ٧١ ، فاطر: ٣٧) . فعلى المسلمين أن يعتمدوا على ربهم ، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وأن يحذروا هؤلاء الظالمين ، وأن يحولوا بينهم وبين الظلم ، قال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه ؛ يوشك أن يعمهم الله بعقابه » . رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن .

★ ★ ★

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات :

طرفى النهار : صباحًا ومساءً .

وزلفا من الليل : وساعات منه قريبة من النهار .

وزلفا : جمع زلفة ، وهو مشتق من أزلفة أى : قربة .

التفسير :

١١٤ – وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ... الآية .

الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين ، وهى صلة بين العبد وربِّه ، فيها يفتح الباب ، ويقف المؤمن أمام الله مناجيًا ، داعيًا متضرعًا ، فيغسل روحه وقلبه ، ويملأ نفسه بالدعاء والتضرع والإنابة إلى الله ، وينال وجبة روحية تغذى عواطفه ووجدانه ، وتريح أعصابه وتمدُّه بزادٍ روحى نافع .

ومعنى الآية :

وأدِّ الصلاة بأركانها وشروطها فى طرفى النهار : الغداة والعشى ، فأما صلاة الغداة فهى صلاة الصبح ، وأما صلاة العشى فهى الظهر والعصر .

وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ . أى : وأقم الصلاة أيضًا فى ساعات من أول الليل ، وهى صلاة المغرب والعشاء ؛ وبهذا التأويل تضمنت الآية الكريمة الصلوات الخمس .

قال القرطبى :

لم يختلف أحد من أهل الإيمان فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها : الصلوات المفروضة .

وقد جاء فى آيات أخرى فى القرآن الكريم إشارات إلى جميع أوقات الصلاة :

١ – أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا . (الإسراء : ٧٨) .

٢ – وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ . (طه : ١٣)

٣ – فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ . (الروم: ١٧ ، ١٨) .

إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ .

حثت الآية هنا على عمل الحسنات ، والتنبيه إلى التوبة إلى الله بالندم على المعاصى ، والإقلاع عن الذنب فى الحال، والعزم على البعد عن المعاصى فى المستقبل ، ويضاف إلى ذلك عمل الصالحات والقربات؛ فإن العمل الصالح يُذهب أثر المعصية ، والصلاة وسائر العبادات والقربات تكفِّر السيئات وتذهب الآثام . فإذا أخطأ المؤمن ، وارتكب معصية أو ذنبًا أو إثمًا ؛ فعليه أن يتطهر ، وأن يصلِّى ، وأن يستغفر الله ويتوب إليه.

روى الإمام أحمد وأهل السنن : أن رسول الله ﷺ قال : «ما من مسلم يذنب ذنبا ، فيتوضأ ، ويصلِّى ركعتين ؛ إلاَّ غفر له» [٧٦] .

وفى معنى الآية يقول الرسول ﷺ : «اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلقٍ حسن» [٧٧] . رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى .

سبب النزول :

روى الشيخان ، وابن جرير : عن ابن مسعود : أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً ؛ فأتى النبى ﷺ فأخبره ؛ فأنزل الله : وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفِىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ؛ فقال الرجل : أَلِى هذه ؟ قال: « لجميع أمتى كلهم » [٧٨] .

١١٥ – وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

ذكر الصبر فى كتاب الله تعالى فى سبعين موضعًا فالصبر نصف الإيمان ، والصبر من المؤمن بمنزلة الرأس من الجسد . من لا صبر له لا إيمان له ، ومن لا رأس له لا حياة له .

والمعنى : واصبر أيُّها الرسول الكريم ومن معك من المؤمنين ، على مشاق التكاليف التى كلفكم الله بها ، واصبر على المصائب والشدائد ، واصبر على البعد عن المعصية ومغرياتها ؛ فإن الله لا يُهْدر ثواب المحسنين أعمالا ، الصابرين على مراد الله وقدره ، وهذا دليل على أن الصبر إحسان وفضيلة .

قال تعالى : إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ . (الزمر : ١٠) .

فى ختام الآيتين

نجد فى الآيتين منهاجًا تربويًّا يأخذ بيد المسلم ، ويحث على التوبة وإقام الصلاة والمحافظة عليها ، ويبين : أن الحسنات والأعمال الصالحة ، ومنها : الصلوات الخمس وذكر الله تعالى ، وإخراج صدقة ؛ يكفر الذنوب ويمحق السيئات ، وأن فى القرآن الكريم موعظة وذكرى للذاكرين ، وأن الصبر على الصلاة ، والصبر على الطاعات ، والصبر على البعد عن المعاصى ؛ مما يقرِّب المؤمن من ربه ، ويجعله سالكًا فى طريق الصالحين .

قال تعالى : وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ . (البقرة : ٤٥) .

وقال سبحانه وتعالى : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ . (طه : ١٣٢) .

★ ★ ★

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

المفردات :

فلولا : فهلاّ .

القرون : جمع قرن وهو مائة سنة ، والمراد هنا : أهلها من الأمم السابقة .

أولوا بقية : أصحاب بقية من العقل والرأى والتفكير ، وأطلق عليهم ذلك ؛ لأنهم لا يعجلون بإبداء الرأى ، بل يبقونه حتى يمحِّصوه و يدركوا صوابه فيجهروا به .

ما أترفوا فيه : ما تنعموا به من الشهوات ، والمُتْرف : المُتنعم .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات فى أعقاب قصص الأمم السابقة ؛ لتبين أن سبب العذاب أمران :

الأول : أنه ما كان فيهم قوم أصحاب روية وعقل ينهونهم عن الفساد فى الأرض .

الثانى : أن الظالمين اتبعوا الترف والشهوات والإجرام ؛ فاستحقوا العذاب .

التفسير:

١١٦ - فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ... الآية

أى : هلا وجد من هذه الأمم المهلكة ، أصحاب عقل وروية وفكر ، يؤيدون الرسل وينصحون قومهم باتباعهم ، وينهون المفسدين عن الإساءة ، وعن فعل المنكر .

إن هؤلاء فى كل أمة دليل حيويتها ، وسبيل بقائها ، وهم دعاة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ من أمثال مؤمن آل فرعون الذى حضَّ قومه على الإيمان بموسى وعدم إيذائه .

بيد أن هؤلاء الدعاة لم يتواجدوا بكثرة ، بل وجد قليل منهم نصَحُواْ وآمنوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ؛ فنجاهم الله مع المرسلين ، والآية تلقى اللوم على المكذبين ، وتحذر المسلمين أن يتهاونوا فى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ .

إن القلة من العقلاء لم تستطع القضاء على الفساد ، ولكن الكثرة الظالمة انغمست فى الترف والنعيم، وأمعنت فى الفساد والضلال ، وتابعت حلقات الشهوات والإجرام ؛ فاستحقت الهلاك والدمار .

١١٧ – وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ .

إن الله تعالى عادل فى حكمه وأفعاله، ولا يظلم ربك أحدًا ، ولو أن أهل القرى السابقة استقامت وآمنت؛ لفتح الله عليها بركات السماوات والأرض .

ومعنى الآية : ما صح ولا استقام عقلا أن يُهلك أهل القرى ظالمًا لها ، وأهلها قوم مصلحون ؛ تنزيها لذاته عن الظلم، وإيذانًا بأن هلاك الظالمين كان قصاصًا عادلاً .

قال تعالى : وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ . (هود : ١٠١) .

وقال سبحانه : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

وقال تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٩٦) .

١١٨ – وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...

أى : ولو شاء ربك – أيها الرسول الكريم ، الحريص على إيمان قومه – أن يجعل الناس جميعًا أمة واحدة ، مجتمعة على الدين الحقّ ؛ لجعلهم ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ولم يرده ، بل خلقهم وأودع فيهم العقل ، وأعطاهم الاختيار ، ووضح لهم الطريق ، وأقام الحجة بإرسال الرسل ؛ حتى تكون عقيدتهم وعملهم بكسبهم واختيارهم وبذلك تكون هناك عدالة ؛ حيث يكون الجزاء من جنس العمل ، فمن اختار الهدى وآثر الباقية على الفانية ؛ فله حسن الجزاء ، ومن آثر الهوى والضلال ؛ جوزى من جنس عمله .

وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .

أى : ولا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل .

قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (الشمس : ٧ - ١٠).

وفى معنى الآية يقول الله تعالى :

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي ٱلأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

١١٩ - إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ...

إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين آمنوا بهم وصدقوهم ، واتبعوا ما أمروا به ، وتركوا ما نهوا عنه ، وقد مدح الله أتباع محمد ﷺ بقوله : ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ... (الأعراف : ١٥٧) .

وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ .

لقد خلقهم الله ومنحهم العقل والاختيار والإرادة ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ ليختار الإنسان بكسْبه ، واختياره الطريق الذى يريده ، ويتحمل مسئولية اختياره ، ولهذا الاختلاف خلقهم الله ؛ ليتمايزوا ويظهر الخبيث من الطيب .

قال تعالى : فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . (الأعراف : ٣٠) .

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

أى : نفذ قضاء ربّك ، وثبت حكمه ، الذى أكده وأقسم عليه بقوله : لأملأن جهنم من عصاة الجن ومن عصاة الإنس أجمعين .

حكمة إلهية

شاء الله تعالى أن يختلف الناس فى منازعهم ومشاربهم ؛ حتى يعمر الكون ، ولو أحبَّ الناس اسمًا واحدًا أو بلدًا وسطًا واحدًا ، أو مدينة معتدلة واحدة ؛ لضاق المكان بأهله .

ومن حكمة الله أن حبب كل إنسان في عمله ومسلكه حتى يعمر الكون ولو هجر الناس جميعا الحياكة ؛ لتعرَّى الناس ، ولو هجروا الفلاحة ؛ لجاع الناس ، ولو هجروا البناء ؛ لجلس الناس فى العراء ، وتلك حكمة إلهية أرادها الله حتى يتم إعمار الكون ، فيكون هناك الملوك والأمراء ورجال السياسة ، ورجال القانون والاجتماع والأدب ، ورجال الحرف من زراعة وصناعة وتجارة ، وأقوام متفوقون ممتازون وآخرون دون ذلك [٧٩] .

وشاء الله أن يختار أناس الهدى ويعملون الصالحات ، ويتسابقون في عمل الخير واتباع هدى المرسلين ؛ حتى يكونوا أهلا للجنة والرضوان ، وشاء الله أن يختار أقوام الضلال والانحراف ، وأن يؤثروا العاجلة على الآجلة ، وأن يكونوا تابعين للشيطان فى اقتراف المحرمات والبعد عن الطاعات ؛ وهؤلاء أهل للنار وغضب الجبار .

قال تعالى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٥) . وتكرر هذا المعنى فى سورة الأعراف الآية ١٨ وسورة هود الآية ١١٩ وهو يشير إلى عدالة الله تعالى فما أدخلهم النار ظلمًا ؛ ولكن ظلموا أنفسهم واتبعوا أهواءهم ، وساروا وراء الشياطين ؛ فجمع الله فى جهنم أتباع إبليس من الجن ومن الإنس ، قال تعالى : مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاس وهم أتباع إبليس من الجن والإنس .

من هدى السنة

وفى الصحيحين : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «اختصمت الجنّة والنّار ، فقالت الجنّة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم [٨٠] ، وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، فقال الله عز وجل للجنّة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء ، وقال للنار : أنت عذابى أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما الجنّة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول : هل من مزيد ، حتى يضع لها ربّ العزّة قدمه ، فتقول : قط قط [٨١] ، وعزتك ! » .

★ ★ ★

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾

المفردات :

نقص : نخبرك به ، والقص : تتبع أثر الشيء للإحاطة والعلم ، ومنه قوله تعالى : وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ . (القصص : ١١) ثم أطلق على الإخبار ؛ لما فيه من تتبع الأحداث رواية .

أنباء : إخبار جمع : نبإ .

نثبت به فؤادك : نقوى ونطمئن .

في هذه : السورة ، أو في الأنباء المقصوصة عليك .

اعملوا على مكانتكم : أي : على غاية تمكنكم ، وأقصى استطاعتكم ، والأمر للتهديد .

التفسير :

١٢٠ - وَكُلًّا(٨٢) نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ... الآية .

حفلت سورة هود بذكر عدد وافر من أعلام الرسل السابقين ، وفي ختام السورة يذكر الحق سبحانه فوائد ذكر قصص المرسلين ، فيجمله في أمرين :

الأول : تثبيت قلب الرسول ﷺ ، حين يشاهد أن هؤلاء الرسل الكرام في تاريخ البشرية ، تعرضوا للأذى ، وجاهدوا قومهم طويلا ، وصبروا وصابروا ؛ فيتأسى بهم ، ويتسلى بتاريخهم وجهادهم ، ويشاهد أنه لم يكن بدعا من الرسل ، وأن طبيعة الكافرين واحدة ، كأنهم تواصوا بتكذيب المرسلين ، ومقاومة المصلحين ، وفي هذا المعنى يقول القرآن الكريم : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . (الأحقاف :٣٥) .

الهدف الثاني : وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

الهدف الثاني : تسجيل كفاح الرسل ، ودعوتهم إلى : التوحيد ، والعدل ، والحق ، والخير ، وإحياء ذكراهم ، وإرشاد الناس إلى مواعظهم ، وهلاك المكذبين لهم ، ونجاة المؤمنين بهم ، فيتذكر المؤمنون بما

ينفعهم والذكرى من شأنها أن تفيد جميع الناس ؛ لكن لما لم يستفد بهذه الذكرى سوى المؤمنين ؛ أضافها إليهم ؛ فالمؤمنون هم الذين يتعظون بما حلّ بالأمم السابقة من هلاك ودمار ؛ فيبتعدون عن أسبابه وموجباته . وقريب من هذا المعنى قوله تعالى :

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

١٢١ – وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ .

اتجه القرآن هنا بتوجيه الرسول ﷺ إلى الإنذار والتحدّى . أى : قل لهؤلاء المشركين الذين كفروا بالإسلام وأعرضوا عن الإيمان برسالتك : اعملوا بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وبكل ما أوتيتم من قوة على مقاومة الدعوة والصدّ عنها .

إِنَّا عَـٰمِلُونَ . فى تبليغ الحق ، ثابتون عليه ، أو عاملون بما أنزله ربنا لا يصرفنا عنه صارف أو كفّار أثيم.

وقريب من هذه الآية تهديد شعيب لقومه حين قال : وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ . (هود : ٩٣) .

وقوله سبحانه : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . (الأنعام : ١٣٥) .

١٢٢ – وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ .

وترقبوا ما تتمنون لنا من هلاك ؛ إنا مترقبون أن يحل بكم مثل ما حل بالأمم السابقة التى كذّبت رسل ربها وصدّت عن سبيله .

١٢٣ – وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ .

أى : ولله وحده علم ما غاب فى السماوات والأرض ؛ فلا يخفى عليه شىء فى سركم وجهركم .

بهذه الآية الكريمة ، نختم هذه السورة ، الحافلة بقصص الأنبياء ، والتعليق المناسب على هذا القصص ، وهذا القصص غيب لم يكن عند الرسول ﷺ علم به ، وكان أهل الكتاب عندهم علم ببعضه ، لكنه خليط من الصدق والكذب ، أو الواقع والخيال .

ثم إن هذا القصص كان غيبا بالنسبة للعرب ، والذى كان عندهم منه أوهام وظنون ، فقدم القرآن قصصًا حقيقيًّا متكاملاً عن رسل الله العظام : نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب عليهم السلام .

وفى الآية ٤٩ من سورة هود يقول الحق سبحانه : تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

إن جميع أنواع الغيب فى السماوات والأرض يملكه الله ؛ فهو سبحانه لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ. (طه : ٦ - ٨)

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ .

مصائر الأمور كلها راجعة إليه ، من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة ، فخيوط الأمر كلها ترجع إليه ، يدبرها بحكمته ، ويحركها بمشيئته ، ويرسيها بإرادته ، وهو اللطيف الخبير.

فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .

فاخلص العبادة له ؛ فالعبادة حق له وحده ، والعبادة زاد روحى وسعادة نفسية ، وصفاء ومحبة ومودة بين المخلوق والخالق ، وبعد العبادة يأتى صدق التوكل على الله ؛ فبيده الخلق والأمر. قال تعالى : وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٣) .

وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

بل هو سبحانه عالم بجميع أحوال عباده صغيرها وكبيرها ، وسيجازيهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

قال تعالى : وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

ويقول عز شأنه : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وفق الله تعالى لإتمام تفسير سورة هود عشية يوم الثلاثاء ٦ محرم ١٤١٥ هـ الموافق ١٤ يونيو ١٩٩٤ بجامعة السلطان قابوس ، بمدينة مسقط سلطنة عمان .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .



تفسير سورة يوسف

نظرات فى سورة يوسف [٨٣]

سورة يوسف سورة مكية كلها ، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط ، وقيل : إن الآيات الثلاث الأولى مدنيات وهو رأى ضعيف ؛ لأن السورة كلها قصة واحدة ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء فى المصحف المطبوع فى مصر ويزاد عليه الآية السابعة ، قاله السيوطى فى الإتقان وهو رأى واه جدًا فلا يلتفت إليه .

وحين نستعرض سورة يوسف نجد أنها سورة فريدة فى نوعها من بين سور القرآن الكريم – فهناك قصص متعدد مثبوت فى ثنايا سور القرآن ، لكن القرآن كان يكتفى أحيانًا بذكر حلقة أو حلقات محدودة من القصة ، كحلقة قصة مولد عيسى ، أو حلقة قصة نوح والطوفان ؛ لأن هذه الحلقات تفى بالمقصود منها.

أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ . (يوسف : ٣) .

وسورة يوسف هى قصة يوسف مطوعة في سردها وطريقة أدائها وخصائصها الفنية كلها للقضية الكبرى التى جاء القرآن ليعالجها ويوضحها ، ويثبتها فى القلوب . وهى قضية العقيدة وما يقوم عليها فى حياة الناس من روابط ونظم وصلات ، تسبقها فى السورة مقدمة تشير إلى الوحى بهذا القرآن وبقصصه الذى هو أحسن القصص ، والذى لم يكن محمد ﷺ ، يعرف عنه شيئًا من قبل .

وتتلوها تعقيبات شتى، تفيد أن القصص القرآنى : غيب من عند الله يثبت به الرسول، ويعظ به المؤمنين ، قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

كذلك تضم السورة جناحيها على لفتات ولمسات أخرى فى صفحة الكون وفى أغوار النفس ، وفى آثار الماضين ، وفى ضمير الغيب المطوى لا يدرى البشر ما هو مخبوء خلف ستاره الرهيب وكل هذه العظات المبثوثة فى حنايا السورة ، تتناسب مع القصة ، والقصة تتكامل معها ؛ لتحقيق القضية الكبرى التى جاء بها هذا القرآن للبشرية ، وجاءت بها رسالات الأنبياء فى العصور المتلاحقة .

وقد ساق القرآن دعوة صريحة إلى العقيدة السليمة والإيمان بالله على لسان يوسف حين مكث فى السجن يدعو إلى الله ، ويأخذ بيد الضعفاء ، ويواسى المحزونين ، ويفسر الأحلام ويشرح لهم سر معرفته وإيمانه فيقول:

ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ * وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوٓاْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . (يوسف ٣٧ – ٤٠) .

وبذلك نجد السورة تربط بين رسالات السماء جميعها برباط أساسى وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد ، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح والدين القيم الذى يسمو بصاحبه ويعصمه من الفتنة ويمنعه من الرذيلة ويجعله يقف ثابت اليقين ، يقاوم الإغراء ، ويرد المنحرف إلى طريق الصواب . قال تعالى : وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . (يوسف : ٢٣) .

قصة يوسف

قصة يوسف أطول قصة فى القرآن تجتمع حلقاتها كلها فى سورة واحدة وتلحظ فيها الخصائص الفنية البحتة للقصة – خصائص الموضوع ، وخصائص العرض والأداء .

فالقصة غنية بالعنصر الإنسانى ، حافلة بالانفعال والحركة ، وطريقة الأداء ، تبرز هذه العناصر إبرازًا قويًا ، فضلا عن خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة .

فى القصة يتجلى عنصر الحب الأبوى فى صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والمعالم ، فى حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه ، وفى استجاباته للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها.

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات ، بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوى.

وعنصر التفاوت فى الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد فى نفوس الإخوة ؛ فبعضهم يقوده هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف فى الجب تلتقطه بعض القوافل السيارة، وفى قصة يوسف نجد عنصر المكر والخداع فى صور شتى من مكر إخوة يوسف به إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة .

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام ، وبالإعجاب والتمنى ، والاعتصام والتأبى .

وعنصر الندم فى بعض ألوانه ، والعفو فى أوانه ، والفرح بتجمع المتقاربين ، وذلك إلى بعض صور المجتمع المتحضر في البيت والسجن والسوق والديوان فى مصر يومذاك ، والمجتمع العبرانى ، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات .

وقد بدأت القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم ، وينصحه بألا يقصها على إخوته ؛ كى لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له ، ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنما هى تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا فى النهاية أنهى السياق القصة، ولم يسر فيها كما سار كتاب (العهد القديم) بعد هذا الختام الفنى الدقيق الوافى بالغرض كل الوفاء.

وما يسمى : بالعقدة الفنية فى القصة الحديثة واضح فى قصة يوسف ، فهى تبدأ بالرؤيا ، ويظل تأويلها مجهولا ، ينكشف قليلا قليلا حتى تجىء الخاتمة فتحل العقدة حلا فنيا طبيعيا ، يرضى الذوق الفنى الخالص ، ويرضى الوجدان الدينى ، ويفى بدوره للقضية الكبرى التي سيقت القصة لها من الأساس.

والقصة مقسمة إلى حلقات كل حلقة تحتوى على جملة من مشاهد ، والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد بحيث يترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ، ويكمل فيها ما حذف من حركات وأقوال، ويستمتع بإقامة الصلات بين المشهد السابق والمشهد اللاحق ، فيمنح القصة بعض خصائص التمثيلية . ويملؤها بالحركة والحيوية – وهذه الطريقة متبعة فى جميع القصص القرآنى – على وجه التقريب – وهى شديدة الوضوح فى القصص الكبيرة ، وخاصة قصة يوسف الصديق .

يوسف بين إخوته وأبيه

أكرم الله نبيه يوسف بأصل كريم ؛ فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وقد رزق يعقوب اثنى عشر ابنا هم الأسباط ، كان يوسف وبنيامين من أم تسمى : راحيل ، وبقية الأسباط من أمهات أخرى.

وقد ماتت راحيل أمّ يوسف وتركته فى الثامنة عشرة من عمره أشد ما يكون حاجة إلى قلب الأم وعطفها ؛ ولهذا آثر يعقوب يوسف وبنيامين بالحب والحنان ، فسرى داء الحسد بين بقية الإخوة وقال قائل منهم : ألا ترون أن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا وأقرب إليه منا جميعا .

وقال الثانى : إن حب يوسف قد تمكن من قلب يعقوب ولا شفاء ليعقوب من هذا المرض إلا بإبعاد يوسف عنه ، فيجب أن نقتل يوسف أو نتركه فى أرض نائية مقطوعة حتى يموت .

وقال يهوذا : إن القتل لا يقره العقل ولا الدين فلا تقتلوا يوسف وإنما ألقوه فى البئر العميق بجوار بيت المقدس ، فهذا البئر ملتقى الغادى والرائح وسيأخذه بعض القوافل ويبعدون به عنكم ، فوافقوا جميعا على رأى يهوذا ، وبيتوا أمرهم عليه .

رؤيا يوسف

أصبح يوسف فأخبر أباه : أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له ، فعلم الأب أن ابنه سيكون له شأن عظيم ، وأن أسرته ستأتى له خاضعة معترفة بفضله فيسجد بين يديه يعقوب أبوه ، وخالته ليا وهى بمنزلة أمه ، وإخوته الأحد عشر ، ولكن يعقوب خشى على يوسف من حسد إخوته ؛ فأمره أن يكتم هذه الرؤيا وألا يخبر بها أحدًا ، ولأمر ما تسرب خبر هذه الرؤيا إلى الإخوة ؛ فأشعل نار الغيرة بينهم واستأذنوا أباهم فى مصاحبة يوسف يوما إلى المرعى حيث الهواء الطلق والمنظر الجميل ؛ فأذن لهم بعد تردد ، وأخذوا يوسف وألقوه فى ظلام البئر بعد أن استغاث بهم فلم يغيثوه ، وألقى الله على يوسف السكينة ؛ فاطمأن لمصيره ، وجاءت قافلة تريد الماء وألقت بدلوها إلى البئر فتعلق يوسف بالدلو وفرحت القافلة بمنظر الغلام الجميل ، وقدموا به إلى أرض مصر فباعوه إلى عزيز مصر ووزيرها الأكبر بثمن بخس زهيد ، ولمح العزيز فى يوسف كرم الأصل وشرف العنصر وجمال الخلق وطيب المنبت ، فقال العزيز لامرأته : أكرمى مثوى هذا الغلام ، وأحسنى معاملته ، حاشاك أن تزجريه زجر الخدم أو تضربيه ضرب العبيد ؛ فإنى لأرجو إذا اكتمل عوده ونضجت سنه أن ينفعنا أو نتخذه ولدا !

وانصرف يوسف إلى العمل ببيت العزيز فى جد وأمان ، فمكن الله له فى الأرض وأودع محبته فى قلوب الجميع . فلما وصل إلى سن الرشد والقوة ، وهو يقع عادة بين العشرين والثلاثين ؛ آتاه الله حكما وعلما ، وصوابًا فى الحكم على الأمور ، ومعرفة بمصائر الأحاديث وتأويل الرؤيا .

وهكذا أراد إخوة يوسف به أمرًا وأراد الله له أمرًا ، ولكن أمر الله غالب ، ومشيئته نافذة ، فقد زادت ثقة العزيز فى يوسف وظهر له مكنون حزمه وعقله ، وأمانته ونزاهته ؛ فأدخله فيما بين نفسه وأهله ، وبوأه مكان الأشراف الأحرار ووضعه من قلبه موضع الأبناء الأبرار .

يوسف وامرأة العزيز

نما يوسف وترعرع وبلغت سنُّه خمسا وعشرين سنة ، وصار أمينا فى بيت العزيز ، وكانت امرأة العزيز فى سن الأربعين ، ولها سلطان الملك وقدرة الأمر والنهى ، وسيطرة النفوذ والجاه ، ولكن سلطان الحب قد ملك قلبها وسيطر على فؤادها ، وحاولت إغراء يوسف مستغلة كل فنون الإغراء ، قال تعالى : وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ . (يوسف : ٢٣) .

فكلمة : رَاوَدَتْهُ من راد ، يرود بالإبل ؛ إذا ذهب بها وجاء ، وهى تشير إلى فنون الأنثى مقبلة إلى فن مدبرة عن فن من فنون الإغراء الصامتة التى تحاول أن تثير يوسف ، فلما يئست من الصمت غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ بتشديد اللام ، كأنها أرادت أن تجعل الأبواب حيطانًا ، ثم عرضت نفسها على يوسف ، وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قد تهيأت لك راغبة فيك ، وهنا وقد خلعت المرأة ثياب الملك والعظمة والسيادة ، ولبست ثوب الإغراء والتوله والرغبة، وقف يوسف فى عزة وإباء وإيمان يقول : مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . (يوسف : ٢٣) .

فالمرأة فى كل العصور أكثر عاطفة من الرجل ، وأكثر تدينًا وإيمانًا ، وأكثر مراعاة لحرمة الزوجية ، وأكثر نفورًا من الظلم – ولهذا عمد يوسف إلى عاطفة الإيمان بالله فقال : مَعَاذَ ٱللَّهِ . أستعيذ بالله من الفحشاء والمنكر ، إن زوجك أكرمنى وجعلنى أمينًا على بيته وعرضه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ! إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، وهناك عين الله التى ترى وتعلم السر وأخفى ، وهذا ظلم وعدوان وإنه لاَ يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ .

ولكن المرأة كانت قد صمّت أذنيها عن سماع كل موعظة وأغضت عينيها عن رؤية الحق ، ولم يبق فى ذهنها إلا فكرة واحدة فى مكان .. فى رجل .. فهمت به صائلة عليه ؛ لتنتقم لنفسها وكرامتها ، أو لترغمه على طاعتها ، وهم بها ليضربها أو يقتلها ؛ دفاعا عن الفضيلة والشرف ، ولكن الله ألهمه أن الفرار خير من القتال ، والمسالمة خير من المواثبة ، وفتحت الأبواب أمامه فأسرع هاربا منها ولكنها عَدَتْ وراءه ؛ طمعًا فى تنفيذ رغبتها ، أو خوفًا من افتضاح أمرها ، وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ . (يوسف : ٢٥) ؛ نتيجة جذبها له لترده عن الباب ، وعند الباب وقعت مفاجأة ، فقد كان العزيز يمر فى تلك اللحظة فرأى يوسف واقفا وقميصه ممزقا ، وكان موقفا يبعث على الريبة ويثير الاتهام ، فاتهمت المرأة يوسف بأنه راودها عن نفسها وهجم عليها فى مخدعها ولابد من سجنه أو إذاقته مر العذاب !!!

ولم يجد يوسف بدًا من الاعتراف بالواقع ، فقال : هى التى راودتنى عن نفسى وجذبتنى من ثوبى ، وهذا قميصى شاهد على صدقى ، وأمام تضارب الأقوال ؛ استدعى الملك ابن عمها وكبير أسرتها ، وكان فطنا لبيبا ، فسمع القضية من أطرافها ، وفطن لما وراء قصتها فقال : إن كان قميصه قُدَّ من الأمام ؛ فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها ؛ فهى صادقة وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدَّ من الخلف ؛ فهو إذن من أثر هروبه منها ومطاردتها له حتى الباب ؛ فهى كاذبة وهو من الصادقين .

فلما رأى الملك بعينه أن القميص قد مزق من الخلف ؛ وضح الحق وظهرت براءة يوسف أمامه ، والتفت العزيز إلى امرأته وقال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن ؛ فاستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، وأنت يا يوسف أمسك لسانك عن الخوض فى هذا الحديث ، واكتم أمره عن الناس أجمعين .

يوسف عزيز مصر

تعرض يوسف لحلقات متتابعة من الإغراء والوعد والوعيد، وتوالت عليه حملات زليخا، ونساء من وجوه المدينة، فدعا يوسف ربه: أن ينجيه من كيدهن ومكرهن، وقال: رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ. (يوسف: ٣٣).

ورأى العزيز أن يضحى بهذا البرىء النزيه حتى تسكت الألسنة وتخف عن زوجته التهمة، فأدخل يوسف السجن، وكان يوسف فى السجن مثالا كريما فى الدعوة إلى الإيمان وتفسير الأحلام وإرشاد الناس إلى الحق، ثم رأى الملك فى منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف، وفسر يوسف هذه الرؤيا: بأن البلد مقبلة على سبع سنين مخصبة يجود فيها النيل بالماء، ثم تأتى بعدها سبع سنين مجدبة يجف فيها ماء النيل، ويعقب ذلك عام طيب مثمر، فأمر الملك بالعفو عن يوسف، ولكنه أبى أن يخرج من السجن إلا بعد التثبت من براءته ونزاهته، فاعترفت النسوة بنزاهته وقلن: حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ. (يوسف: ٥١).

فخرج يوسف من السجن بريئا نزيها، ثم نال إعجاب الملك والحظوة عنده، وعلم يوسف أن مصر قادمة على مجاعة، فالنيل سيجود بالماء سبع سنين ثم يمتنع عن الفيضان سبع سنين أخرى، ورأى يوسف ثقة الملك فيه وإعجابه بنزاهته وأمانته فقال يوسف: ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ. (يوسف: ٥٥).

واستطاع يوسف بحكمته أن ينجى مصر من المجاعة، وأن يدخر القمح فى سنابله، والذرة فى كيزانها، وأن يدبر التموين والأموال، وأن يحفظ لمصر مكانتها وفضلها، فاستطاعت أن تساعد نفسها وأن تمد يد العون لما حولها من البلاد ووصل خبر يوسف إلى البلاد المجاورة، وإلى أرض كنعان حيث يقيم نبى الله يعقوب وأبناؤه الأسباط.

فقال يعقوب لبنيه: يا بنى، إن الجدب عمنا والقحط يكاد يأتى علينا، فاقصدوا هذا العزيز وأحضروا من عنده القمح والطعام واتركوا عندى أخاكم بنيامين أتعزى ببقائه عن فراقكم، فرحل أبناء يعقوب إلى مصر؛ قاصدين مقابلة العزيز.

واستأذن الحاجب على يوسف، فقال: إن بالباب عشرة رجال تتشابه وجوههم وكأنهم غرباء عن هذه الديار يستأذنون فى الدخول عليك؛ فأذن يوسف لإخوته وعرفهم ولكنهم لم يعرفوه، فقد تركوه فى

الجب ذليلا فريدًا ، فأين منه هذا الأمير العزيز الذى يأمر فيطاع ، ويقول فيمتثل الجميع أمره . وأكرم يوسف وفادتهم ، وترك نقودهم داخل التموين الذى أمدهم به ، وطلب منهم أن يحضروا بنيامين معهم فى المرة الثانية ، ولما حضر بنيامين مع إخوته استطاع يوسف أن يستبقيه معه بحيلة دبرها ، ثم ذهب الإخوة إلى أبيهم ، فاشتد حزنه لفراق يوسف وبعده بنيامين وجلس حزينًا فى محرابه يبكى أشد البكاء ويقول : يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ . (يوسف : ٨٤) .

ثم قال الأب لأبنائه : إنى أحس فى قرارة نفسى بوجود يوسف على قيد الحياة ؛ فاذهبوا إلى مصر وتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من فضل الله ورحمته ، ودخل الإخوة على يوسف وقد اشتد بهم الضر والحاجة ، فطلبوا من يوسف أن يرفق بهم وأن يتصدق عليهم ، وهنا فاض قلب يوسف حنانًا وعطفًا على إخوته ، وسألهم عما فعلوه بيوسف فى زمان جهلهم ، فقالوا : إنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى بنيامين ، قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (يوسف : ٩٠) .

لقد اتقى يوسف ربه وصبر عن الفحشاء وتحمل السجن فى طاعة الله فلم يضع أجره ، وجعله الله على خزائن الأرض عزيزًا كريمًا ، فالله يتولى الصالحين . وصفح يوسف عن إخوته وقال لهم : ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ . (يوسف : ٩٣) .

وعاد الإخوة إلى أبيهم فأحس برائحة القميص من مسافة بعيدة ، ولم وضع القميص على وجهه ؛ عاد بصيرًا ، ورحل يعقوب مع أسرته قادمين إلى مصر ودخلوا على يوسف وخروا له جميعًا ساجدين ، الأب والأم والإخوة ، فقال يوسف : يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا . (يوسف : ١٠٠) .

وشكر يوسف ربه ؛ إذ أخرجه من السجن ، وجاء بإخوته من البادية ، وجمع شمل الأسرة ، ثم مكّن الله ليوسف فى الأرض ، وآتاه الملك والحكمة ؛ ليكون فى قصته دليلاً للعاملين ونبراسًا للمخلصين ، وكأن الله يمهد الأسباب والمقدمات بلطفه وحكمته ؛ لتكون العاقبة للمتقين ، ومد يوسف يده لله طالبًا منه حسن الخاتمة والسير فى موكب الصالحين فقال : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ . (يوسف : ١٠١) .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾

المفردات :

الــر : هذه الأحرف التى تبدأ بها السور ، قيل : إنها أسرار علوية ، وقيل : إنها أقسام لله تعالى . أى : أقسم الله بهذه الأحرف التى ينطق بها الناس ، ويتكون منها القرآن الكريم .

وقيل : هى أسماء لله تعالى ، أو صفات .

وقيل : هى إشارات لابتداء كلام وانتهاء كلام

وقيل : هى أسماء للسور .

وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، مع أنه مكون من حروف عربية هى : الألف واللام والراء ، وهم ينطقون بها ويؤلفون منها كلامهم .

وقال بعضهم بجواز اشتمال هذه الأحرف على جميع المعانى التى ذكرها العلماء فى تفسيرها ، فهى أسماء للسورة ، وهى رموز لأسماء الله تعالى أو صفاته ، وهى مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهى حروف للتحدى والإعجاز ... إلخ .

تمهيد :

اشتملت سورة يوسف على معان متعددة متميزة ؛ فهى سورة تشتمل على قصة كاملة فيها عبرة وعظة ، فيها عفة وتماسك واستعلاءً من يوسف ، وفيها إغراء وكيد من امرأة العزيز ونسوة المدينة ، وفيها تنافس الأبناء وتحاسدهم إذا كانت أمهاتهنّ متعددة ، وفيها بيان لطف الله وكرمه ؛ فإذا قدَّر لإنسان أمرًا ؛ فلابد أن يصل إليه مهما اجتمعت الأمة كلها على غير ذلك .

وفيها عاقبة التقوى والعفة والاستقامة ؛ فقد جعل الله يوسف عزيزًا على خزائن الأرض ، ثم قال يوسف فى نهاية السورة ؛ حين سجد له إخوته تأويلاً لرؤياه : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ . (يوسف : ١٠١).

التفسير:

١ – الٓر... الآية .

هذه الأحرف قيل : هى مما استأثر الله بعلمه ، وقيل : هى حروف للتحدّى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، مع أنه مكون من حروف عربية ينطقون بها ويكونون منها كلامهم.

وقد اشتملت هذه الفواتح فى أوائل السور على (١٤ حرفا) بعد حذف المكرر منها ، واشتملت هذه الفواتح على نصف صفات الحروف ؛ ففيها نصف الحروف الرخوة ، وفيها نصف حروف الاستفال ، ونصف حروف القَلْقَلَة ، وكأن الله تعالى يقول للمكذبين : جعلت من نصف هذه الحروف فواتح للسور ، وتركت لكم النصف ؛ لتصنعُوا منه قرآنا إن استطعتم !

والسور المبدوءة بهذه الأحرف ٢٩ سورة هى : البقرة ، آل عمران ، الأعراف ، يونس ، هود ، يوسف، الرعد ، إبراهيم ، الحجر ، مريم ، طه ، الشعراء ، النمل ، القصص ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، يسٓ، صٓ ، غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، قٓ ، القلم .

تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ .

تلك الآيات الواردة فى هذه السورة : آيات من الكتاب الواضح الظاهر فى معانية وأغراضه ، المبين لحقائق الدين الحق ، ومصالح الدنيا والآخرة .

٢ – إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

أى : أنزلنا هذا القرآن عربيًّا واضحًا ؛ لعلكم تعقلون معانيه وتفهمون ألفاظه ، وتنتفعون بهدايته ، وتدركون أنه ليس من كلام البشر ؛ ولكنّه من كلام الله القادر المقتدر .

٣ – نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ .

نحن نروى لك يا محمد أحسن القصص الواقعى النافع ، فى شتى نواحى الحياة ، ومن هذا القصص: قصة يوسف التى جاءت كاملة مفصلة ؛ ذات أهداف سامية وعبر كثيرة . وإن كنت قبل هذا الوحى لمن

الغافلين عنه ، لا علم لك به ، شأن قومك ، لا يعلمون من أخبار الماضين وقصصهم شيئًا موثوقًا به مفيدًا نافعًا .

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

يـا أبت : أصله : يا أبى ، فعوّض عن ياء المتكلم بتاء التأنيث ؛ لتناسبهما فى الزيادة .

فيكيدوا : فيحتالوا لإهلاكك حيلة ، وأصل الكيد : هو الاحتيال على إنسان لإيقاعه .

يجتبيك : يختارك ويصطفيك .

تأويل الأحاديث : تعبير الرؤيا ، وتفسير الأحلام ، وبيان ما تئول إليه .

أبويك : المراد بهما : الجدّان : إبراهيم ، وإسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، وأطلق عليهما أبوان؛ لأن الجدّ أب لغة وعرفًا وشرعًا ؛ حيث يرث الجدّ ميراث الأب عند عدم وجوده .

التفسير:

٤ - إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ .

سبب النزول :

روى ابن جرير : عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله ؛ لو قصصت علينا ؛ فنزلت : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ..

تمهيد :

تأتى هذه القصة ؛ جوابًا لسؤال قوم عنها ؛ فأجاب القرآن رسول الله بهذه القصة التى لا يعلمها هو ولا قومه ، وإنما هى وحى من عالم الغيب .

والمعنى : اذكر يا محمد لقومك : قصة يوسف حين قال لأبيه يعقوب : إنى رأيت أحد عشر كوكبًا ، والشمس والقمر تسجد لى سجود احترام وانحناء ، لا سجود عبادة . والأحد عشر كوكبًا هم : إخوته الأحد عشر نفرًا ، والشمس والقمر : أبوه وأمّه ، وقد استمرت القصة من أولها إلى آخرها ، وكأنها تنزع إلى تحقيق هذه الرؤيا .

فقد تسربت الرؤيا إلى إخوته ، ثم ألْقوه فى الجبّ ، والتقطه ركب مسافرون ، وباعوه إلى عزيز مصر، وتعرَّض لإغراء زليخا ثم دخوله السجن ، وكان يفسِّر الأحلام ، ويدعو إلى توحيد الله فى السجن . فلما رأى الملك رؤيا فسَّرها يوسف ، وامتنع عن الخروج من السجن ؛ حتى يحقق الملك فى قصته ، ثم شهد الجميع بنزاهته وعفته ، وقالت امرأة العزيز ما يبرأ ساحته ، وقالت النسوة : حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ؛ فخرج من السجن مكرَّما ، وجعله الملك وزيرًا ، وجاء إخوته ؛ ليحصلوا منه على الطعام ، ثم أرسل قميصه إلى أبيه ؛ فارتد بصيرًا ، وجاء الإخوة مع أبيهم وأُمّهم ، وخرّوا ساجدين ليوسف ، وقال يوسف : هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا . (يوسف : ١٠٠) .

والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة كما ورد فى البخارى ، وكما أورد أيضًا قوله ﷺ: «لم يبق من النبوة إلاَّ المبشرات » قالوا : وما المبشرات يا رسول الله؟ قال : « الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له» [٨٤] (أخرجه البخارى) .

٥ - قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

ألهم الله يعقوب تأويل الرؤيا ، وفهم منها : أن يوسف سيكون له شأن عظيم فى المستقبل ، حيث ترمز الكواكب الأحد عشر إلى : إخوته ، والشمس والقمر إلى : أبيه وأمّه ، وأن الجميع سيعظمونه ويسجدون له سجود انحناء وتعظيم لا سجود عبادة .

وإذا أخبر إخوته بذلك ؛ أدّى إلى إثارة نوازع الحسد والغيرة والكيد ، والتدبير للإيذاء فى خفاء ؛ فربما أدى ذلك إلى هلاك يوسف أو إيذائه . والشيطان يوسوس للإنسان بالشر ويغريه بالمعصية ، وهو عدو مبين للإنسان . يستدرجه إلى المعصية استدراجًا . قال تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (فاطر : ٦).

لذلك نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته ، وأمره أن يمسك عن الخوض فى هذا الموضوع ، الذى يثير نوازع الحسد والغيرة ، ويحرك فى إخوته دواعى الشر والإيذاء ليوسف.

حيث إن الشيطان يستدرج الإنسان إلى المعصية ، وقد أشار يوسف فى ختام القصة إلى ذلك حيث قال :

مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ . (يوسف : ١٠٠) .

٦ – وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ...

أى : كما اختارك ربك واصطفاك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، يختارك لنفسه، ويصطفيك لنبوته ، ويعلمك تأويل الرؤيا وتفسيرها والإخبار بما تئول إليه ، وترى أن هذه الآية حملت بشارات من يعقوب لابنه يوسف ، منها ما يأتى :

١ – الإخبار بأن الرؤيا بشرى بمستقبل عظيم ليوسف .

٢ – رعاية الله ليوسف وعنايته به وتقريبه واصطفاءه من الله .

٣ – يختص الله يوسف بمعرفة تأويل الرؤيا وتفسير الأحلام .

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ .

أى : سيتم الله عليك النعمة ؛ بإرسالك رسولا يوحى إليك من السماء ، ويتم نعمته على أبيك وإخوتك وذريتهم ؛ بأن يجعل النبوة فى أعقابهم . وآل الإنسان : أهله ، وهو خاص بمن له مجد وشرف .

كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ .

كما أتمها على جدّك إبراهيم ؛ بأن جعله خليلا ، وجعل النار بردًا وسلامًا عليه ، وجعله أبا للأنبياء، وأتم الله النعمة على جدّك إسحاق ؛ بأن جعله رسولا ، وجعل النبوة فى عقبه وأطلق لفظ الأبّ على الجدّ ؛ لأن الجدّ أب فى اللغة والعرف والشرع .

إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

إن ربك عَلِيمٌ بخلقه ، خبير بمن يستحق الاصطفاء والرسالة ، حَكِيمٌ فى صنعه وتدبيره . قال تعالى :

ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ . (الأنعام : ١٢٤) .

وقال سبحانه : ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ . (الحج : ٧٥) .

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

ءايـــــات : عبرٌ أو علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته فى كل شىء لمن سأل عنهم وعرف قصتهم .

للسائلين : الذين سألوا عن قصتهم من أهل مكة .

وأخـــوه : هو بنيامين .

عصـــبـــة : جماعة أقوياء أحق بالمحبة . وقال البيضاوى : تطلق العصبة على : الجماعة من الرجال عشرة فصاعدًا ، أطلق عليهم ذلك ؛ لأن الأمور تُعصب بهم ، أى : تشتد وتقوى .

ضلال مبين : خطأ بيِّن واضح .

اطرحوه أرضًا : أى: ارموه فى أرض بعيدة عن العمران .

غيابت الجب : قعره ، سُمِّىَ به ؛ لغيبوبته عن أعين الناظرين .

السـيـارة : المسافرين الذين يسيرون فى الأرض .

التفسير:

٧ - لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّائِلِينَ .

تأتى هذه الآية فى مقدمة قصة يوسف من أول السورة إلى آخرها ، وقد سبق هذه الآيات حديث عن رؤيا يوسف ، ثم تمضى الآيات وكأنها سبيل إلى تحقيق هذه الرؤيا ؛ فلولا كيد إخوة يوسف ومكرهم به ، لما أُلقى فى الجبّ ، ولولا أنه ألقى فى الجب ؛ لما حمله الركب المسافر ، ولولا ذلك ؛ لما تم بيعه إلى عزيز مصر ، ولولا بيعه إلى عزيز مصر ؛ لما راودته زليخا عن نفسه ، ولولا هذه المراودة لما دخل السجن ، ولولا دخوله السجن ؛ لما فسّر رؤيا نديم الملك ، ثم فسر رؤيا الملك ، ولولا تفسير رؤيا الملك ؛ لما جُعل على خزائن الأرض ، ولولا أنه جُعل على خزائن الأرض ؛ لما تعرف على إخوته ، ثم جاءوا إليه بعد ذلك مع أبيه وأمّه ،

حيث سجدوا له جميعًا ، وتحققت رؤياه ، ثم شكر الله على ما أنعم به عليه ، وطلب منه حسن الختام والوفاة علىٰ الإسلام .

ومعنى الآية : تالله ! لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته لأبيه عبرة ومواعظ لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام تشهد بصدق محمد ﷺ ، وهو النبى الأمىّ الذى سُئل عن هذه القصة فجاء بها متتابعة متناسقة ، تدلّ على أنها وحى من السماء .

٨ – إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

حين قالوا : والله ! إن يوسف وأخاه بنيامين ، وهما صغيران ضعيفان ، أحب إلى أبينا منّا ، مع أننا جماعة قوية يشتد بنا ساعده ، فما باله يحبهما أكثر من حبّه لنا ، ويؤثر القلة على الكثرة ؟!

إن أبانا لفى خطإ واضح ، مجاف للصواب فى ذلك ؛ بإيثار يوسف وأخيه علينا بالمحبة ، وتركه العدل والمساواة فى المحبة ، فكيف يفضل صغيرين ضعيفين ، على رجال أشداء تقوم بكل ما يحتاج إليه من منافع معاشية ودفاعية ، وفاتهم أن الفضل فى الرجال ليس بالكثرة بل بسموّ الروح ، وصفاء النفس ، وغلبة الخير، وكل ذلك كان فى يوسف وشقيقه بنيامين، وقد اجتمع إلى ذلك ما دلت عليه رؤيا يوسف عليه السلام ، من الجاه العظيم ، والعز الرفيع الذى ينظره عند الله والناس ، فكان ذلك كله باعثًا على أن يؤثرهما يعقوب عليه السلام ؛ بمزيد من الحب أكثر من بقية إخوتهما ؛ فحقدوا عليهما ، وتآمروا على يوسف ؛ ليخلوا لهم وجه أبيهم.

٩ – ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ .

أى : ومما قالوا ، أى : قال بعض إخوة يوسف لبعض : ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ بأى وجه من وجوه القتل ؛ حسمًا للمشكلة ، أو انبذوه فى أرض مجهولة بعيدة عن العمران ، فلا يستطيع الرجوع إلى أبيه فإن فعلتم واحدًا منهما ؛ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ . تقع هذه الجملة فى جواب الأمر ، أى : اقتلوا يوسف أو ألقوه فى أرض مجهولة ، فإنكم إن فعلتم ذلك ؛ يخل لكم وجه أبيكم ويفرغ لكم فلا ينازعكم فيه أحد ، وذكر الوجه هنا لتصوير معنى إقباله عليهم ؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشىء ؛ أقبل عليه بوجهه .

وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ .

هذه الجملة معطوفة على جواب الأمر . أى : وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف قوما تائبين إلى الله مما جنيتم عليه ، أو قوما صالحين مع أبيكم ؛ بأن يكثر إقباله عليكم ، وبرّه بكم ، وإغداق الخير عليكم، بعد يأسه من عودة يوسف وخفاء أمره عليه .

١٠ - قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ .

قال قائل منهم - عز عليه قتل أخيه بلا ذنب جناه ، قيل : هو يهوذا ، وقيل هو رُوبيل - لا تقدموا على قتله ؛ فإن القتل جريمة عظيمة ، وهو أخوكم ، ولكن ألقوه فى أسفل البئر ؛ يلتقطه بعض المسافرين الذين يسيرون فى الأرض للتجارة ، حين يدلون بدلائهم فى البئر ؛ ليستقوا منها ؛ فيتعلق بها ؛ فيبعدوه عن بلادنا إلى حيث يجد رزقه ويبقى حيًّا .

إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ . أى : عازمين على ما تقولون ، وفاعلين ما هو الصواب ، فهذا هو الرأى .

فى أعقاب الآية

١ - إن تفضيل بعض الأولاد على بعض ؛ يورث الحقد والحسد ويورث الآفات ، ولعل يعقوب عليه السلام لم يفضل يوسف إلا فى المحبة ، والمحبة ليست فى وسع البشر .

٢ - ورد فى هدى السنة : أن رسول الله ﷺ قال : «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم حتى فى التَّمرة والكلمة الطيبة» .

٣ - لقد فعل إخوة يوسف أمرًا عظيمًا ؛ حين حملوا فتى صغيرًا ضعيفًا ، وأبعدوه عن والده ، وأقدموا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل ... يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين [٨٥] .

٤ - الرأى الأصح : أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ، لا أولا ، ولا آخرًا ؛ لأن الأنبياء معصومون عن الكبائر ، وقيل : لم يكونوا فى ذلك الوقت أنبياء ، ثم تابوا ، ثم نبأهم الله [٨٦] .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ ﴾

المفردات :

لناصحون : القائمون بمصالحه ، والناصح : المشفق المحب للخير .

يرتع : يتوسع فى أكل الفواكه وغيرها من الرَّتع وهو أكل البهائم ، يقال : رتع ، يرتع رتعًا ، ورتوعًا .
أى : أكل البهيم وتوسع ، وذكر الراغب : أن الرتع حقيقة فى أكل البهائم ، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ا هـ .

ليحزننى : بفتح الياء وقرئ بضمّها ، وكلاهما بمعنى : يجعلنى حزينًا .

غافلون : مشغولون عنه بالرتع واللعب ، أو لقلة اهتمامكم بحفظه .

ونحن عصبة : ونحن جماعة .

لخاسرون : عاجزون أو ضعفاء مغبونون ، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسار .

التفسير :

١١ - **قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ .**

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين استرضاءه ؛ لاستصحاب يوسف معهم : يا أبانا ! وهذا النداء فيه تلطف واستجلاب للعطف ، **مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ** . أىُّ شىء جعلك لا تأمنا على يوسف وهو أخونا ونحن راغبون فى خروجه معنا ؟!

وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ . لا نريد له إلا الودّ والخير .

وتوحى هذه الآية : بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك فى اصطحابه معهم ، ولكنها جميعًا باءت بالفشل.

١٢ - أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ .

أرسل معنا يوسف غدًا فى رحلة رياضية يأكل ما يشتهى فيها ؛ حيث يطيب الطعام فى الرحلة ، ويلعب ما يشاء له من ألوان اللعب النافع لبدنه وروحه كالاستباق والاصطياد ، وألعاب الفروسية .

وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ . سنحافظ عليه كل الحفظ من أن يصيبه مكروه أو يمسه سوء .

١٣ - قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ .

ذكر يعقوب عليه السلام حجتين ؛ ليعتذر بهما :

الأولى : هى حبّه ليوسف وشدة أنسه به ؛ فبعده عنه يوقعه فى الحزن .

الثانية : خوفه من انشغال إخوته عنه باللعب والرعى وقلة الاهتمام ، فيتعرض لأذىً من الحيوانات المفترسة كالذئب .

وهذه الحجج كانت تزيد فى ولعهم بإبعاد يوسف عن أبيه :

فالحجة الأولى : وهى شدة تعلق الأب بيوسف ؛ كانت ملهبة ؛ لتحمسهم فى إبعاده .

والحجة الثانية : كأنّها أغرتهم بالغَدْر وقدمت لهم العُذْر الذى يستخدمونه بعد إبعاد يوسف .

١٤ - قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ .

أى : قال إخوة يوسف لأبيه محاولين إدخال الطمأنينة عليه : والله ! لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن جماعة قوية من الرجال ، قادرة على الدفاع والنزال .

إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ . خسارة قوية نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شىء .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

أجمعوا : أى : عزموا . يقال : أجمع الأمر ، وأجمع على الأمر أى : عزم فيه . وجواب لمَّا محذوف تقديره : ضربوه أو آذوه .

وأوحينا إليه : فى البئر أى : ألهمناه ، وله سبع عشرة سنة ، أو دونها ؛ تطمينًا لقلبه .

لتنبئنهم : لتخبرنهم بعد اليوم .

بأمرهم : بصنيعهم .

عشاءً : وقت المساء ، آخر النهار .

يبكون : متباكين .

نستبق : نتسابق فى العَدْو أو فى الرمى .

متاعنا : ما نتمتع به من الثياب والطعام ونحوهما .

بمؤمن لنا : بمصدق لنا فيما نقوله .

سولت لكم أنفسكم أمرًا : أى : سهلته وزينته لكم حتى ارتكبتموه .

التفسير :

١٥ – فَلَمَا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ... الآية .

استجاب يعقوب لرجاء أبنائه وإلحاحهم ، ووعدهم أن يذهب يوسف معهم فى الصباح ، وفى الصباح أخذوا يقبلونه ويعانقونه أمام أبيهم ، وحملوه على أكتافهم فلما تواروا عن أعين أبيهم ؛ غدروا بعهدهم مع أبيهم ، وأساءوا معاملة يوسف ، وقرروا وصمموا أن يلقوه فى قعر جبٍّ معروف لهم ، على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بفلسطين .

وقد وردت عدة روايات فى استغاثة يوسف بإخوته ، وتوسّله إليهم واحدًا واحدًا توسلاً يلين له الصخر ، لكن هذه الروايات ليس فيها ماله سند يعول عليه [٨٧] .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ .

عندما أُلقى يوسف فى الجب وحيدًا ، حزينًا ، عاريًا من قميصه الذى يستره ، أوحى الله إليه وحى إلهام ؛ ليزيل عنه الحزن ، ويلهمه بمستقبل باهر عظيم يكون فيه سيدًا مطاعًا ، ويخبر يوسف إخوته عندئذ بما فعلوه به عند الجبّ ، من حيث لا يتوقعون أنه يوسف ؛ لبعد المدة وطول الفراق ، ولكون يوسف سيدًا مطاعًا ذا هيبة وسلطان .

وقد تحقق ذلك كما أخبر القرآن الكريم حين قال لإخوته: هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (يوسف : ٨٩ ، ٩٠) .

الوحى إلى يوسف فى الجب

كان الوحى إلى يوسف إلهامًا ، كما أوحى الله إلى النحل ، وإلى أمّ موسى عن طريق الإلهام القلبى ، وقيل : عن طريق جبريل ، وقيل : عن طريق الرؤيا الصالحة .

قال تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... (القصص : ٧) .

١٦ ، ١٧ – وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ...

جاء إخوة يوسف إلى أبيهم بعد أن ذهب النهار ، وبدأ الظلام وهم يتباكون وسألهم يعقوب : لماذا تبكون هل حدث للغنم شىء ؟!

قالوا : لا .

قال يعقوب : فأين يوسف ؟!

قالوا : إنا ذهبنا نتسابق بالنبل ، أو بالخيل ، أو بالجرى، وتركنا يوسف فى مكان قريب منا عند متاعنا، وفى لحظة خاطفة هجم عليه الذئب وأكله، وأحسُّوا فى قرارة أنفسهم بالكذب؛ فصوت المريب واضح، والصوتُ فضاح ، ويكاد المريب يقول : خذونى ؛ لذلك قال إخوة يوسف لأبيهم : إنك لا تصدقنا – والحالة

هذه – لو كنّا صادقين موثوقين عندك ، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك ؟! وأنت معذور فى هذا لغرابة ما وقع ، وعجيب ما حدث .

والحاصل : أنّا وإن كنّا صادقين ، لكنك لا تصدقنا ؛ لأنك تتهمنا فى يوسف ؛ لشدة محبتك إياه ، ولظنك أنا قد كذبنا .

السّباق :

دلت هذه الآية على أن السباق مشروع ، لكن لا يجوز أن يكون على وجه الرهان إلاَّ فى ثلاثة : الخف ، والحافر ، والنَّصل . **قال الشافعى** : ما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قُمار . ا هـ . والأصل فى ذلك قوله ﷺ : «لا سبق إلاَّ فى نصل ، أو خف ، أو حافر» (٨٨) .

قال ابن العربى : المسابقة شِرَعةٌ فى الشريعة ، وخصلة بديعة ، وعون على الحرب ، وقد فعلها النبى ﷺ بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة على قدميه فسبقها ، فلما كبر رسول الله ﷺ ، سابقها فسبقته ، فقال لها «هذه بتلك» (٨٩) .

١٨ – وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ...

أى : جاء إخوة يوسف إلى أبيهم بأدلة ملفقة ؛ فحينما رجعوا إليه آخر اليوم فى وقت العشاء ، جاءوا بقميصه ملطخًا بدم مكذوب مفترى ، أخذوه من دم سخلة ذبحوها ، ولطخوا ثوب يوسف بدمها !

قال الآلوسى : «أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ : عن قتادة : أن إخوة يوسف بعد أن ألقوا به فى الجبّ، أخذوا ظبيًا فذبحوه ، ولطخوا بدمه قميصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم ، جعل يقلبه ويقول : تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا الذئب !! أكل ابنى ولم يمزّق عليه قميصه» .

وقال القرطبى : «استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام قد استدل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات والعلامات ...» .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .

أى : ليس الأمر كما زعمتم من أكل الذئب له ، بل زينت لكم أنفسكم الكارهة ليوسف أمرًا منكرًا فظيعًا لا يعلمه إلا الله ، ولا أملك فى هذه الساعة إلا الصبر الجميل .

وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

أى : أستعين بالله وألجأ إليه ؛ فهو ولى الصابرين ، وغوث المتغيثين ، أستعين به على غياب يوسف، وعلى احتمال ما تقولون فى شأن يوسف كذبًا ، أستعين بالله حتى يفرِّج الكرب بعونه ولطفه .

يروى : أن النبى ﷺ سئل عن الصبر الجميل فقال : «هو الذى لا شكوى معه» .

والصبر نصف الإيمان ، وهو الملجأ والملاذ ، والاعتصام بالصبر والاستعانة بالله فى المحنة والشدَّة؛ مؤذن بالفرج بعد الكرب ، وباليسر بعد العسر ، ومن وجد الله ؛ وجد كل شىء ، ومن فقد الله ؛ فقد كل شىء . قال تعالى : فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . (الشرح : ٥ ، ٦) .

★ ★ ★

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

سيارة : رفقة يسيرون ، جمع سيارة .

واردهم : الذى يرد الماء ويستقى لهم .

فأدلى دلوه : أى : أرسلها إلى الجبِّ ليملأها .

وأسروه بضاعة : وأخفوه متاعًا للتجارة .

وشروه : وباعوه ، شرى وباع يؤدِّى كل منهما معنى الآخر .

دراهم معدودة : دراهم قليلة .

وكانوا فيه من الزاهدين : من الراغبين عنه .

التفسير :

١٩ - وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ... الآية .

من طبيعة القرآن ذكره للأمور الرئيسة فى الموضوع ؛ اعتمادًا على فهم السامع وإدراكه .

والمراد : بعد أن ألقى يوسف فى الجب ، جاء ركب مسافرون إلى مصر ونزلوا قريبًا من هذه البئر للاستراحة ، وشرب الماء والتزود به . فأرسلوا الذى يرد لهم الماء عادة ، فأخذ دلوه وألقاه فى الجب ليملأه ماء ، بيد أن يوسف تعلق به واستغاث بصاحب الدلو أن ينقذه ، وما إن رآه صاحب الدلو وشاهد جماله وهيأته وملامحه الجميلة ؛ حتى صاح قائلا : يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ، فهو مستبشر بهذا الغلام الجميل الذى منحه الله نصف الحسن ؛ فقال : يا بشرى ، أقبلى ، أى : يا بشارتى ، فهذا أوان إقبالك ، وقرأ أهل المدينة ومكة: **يا بشراى هذا غلام** ، بإضافة البشرى إلى ياء المتكلم .

وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً . وأخفى جماعة المسافرين ، خبر التقاط يوسف من الجب ؛ مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجبّ ، واعتبروه بضاعة سرية لهم ، وعزموا على بيعه ؛ على أنه من العبيد الأرقاء .

وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ . أى : إن الله مطلع على أعمالهم حيث يبيعون الحرّ ويأكلون ثمنه ، وهو كريم أصيل.

جاء فى الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» [٩٠] .

٢٠ – وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ .

أى : إن إخوة يوسف باعوه للسيارة بثمن قليل . **قال ابن كثير** : وهذا هو الرأى الأقوى ، أو أن الركب الذى أنقذ يوسف من الجب باعوه بثمن بسيط، لا يوازى ثمن أمثاله ، وكانوا زاهدين فى بقائه بينهم، راغبين فى التخلص منه بأى حال ، دون أن يعلموا منزلته عند الله تعالى ، وقد اشتراه عزيز مصر ، رئيس الشرطة وصار فيما بعد مسلمًا ؛ آمن بيوسف ومات فى حياته .

والخلاصة : أن الله تعالى وصف هذا الثمن بثلاث صفات :

١ – ثمن بخس .   ٢ – دراهم معدودة .   ٣ – كانوا فيه من الزاهدين .

★ ★ ★

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

المفردات :

أكرمى مثواه : أى : اجعلى مقامه عندنا كريما ، المثوى : هو المقام والمنزل ، يقال : ثوى بالمكان ، يثوى ثواء أى : أقام به .

مكنا ليوسف فى الأرض : مكنّا له فى أرض مصر ، وجعلنا له مكانةً رفيعة فيها ، حتى صار رئيس حكومتها ، ووزير ماليتها .

ولنعلمه من تأويل الأحاديث : تعبير الرؤيا .

والله غالب على أمره : أى : غالب على الأمر الذى يشاؤه فلا يعجزه شىء ، ولا يمنع عما يشاء ، ولا ينازع فيما يريد.

التفسير :

٢١ - وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ... الآية .

قال عزيز مصر ورئيس شرطتها لامرأته زليخا : أكرمى هذا الغلام وأحسنى معاملته ؛ فلا تزجريه زجر الخدم ؛ فإنى ألمح فيه شرف المحتد ، وجمال المحيًا ، ولعله فى المستقبل يكون صالحًا لرعاية شئوننا ، أو رعاية شئون الدولة ، فإن فراستى فيه : أنه أهل للمكارم والعظائم ، أو عسى أن نتخذه ولدًا نتبناه، ونحسن القيام عليه ؛ ليكون لنا ابنًا يرعانا عند الكبر ، ويحنو علينا عند الحاجة إلى ذلك .

وقد صدقت فراسة هذا العزيز ، فكان يوسف وزيرًا ناجحًا استطاع أن ينقذ مصر من المجاعة التى مًرت بها ، واستطاع أن يحافظ على الأقوات ، بما يكفى مصر ويكفى جيرانها .

أخرج سعيد منصور والحاكم وصححه ، وجماعة : عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر ؛ حين قال لامرأته : أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ، وزوجة موسى ؛ حين قالت لأبيها : يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ . (القصص : ٢٦) . وأبو بكر رضى الله عنه ؛ حين استخلف عمر رضى الله عنه .

قال ابن العباس وابن إسحاق : إنما قال العزيز : أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ؛ لأنه كان حصورًا لا يولد له .

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ...

كما أكرمنا برعايته فى الجب ، وبإلقاء محبته فى قلب عزيز مصر ، وبرعايته فى محنته عندما تعلقت به زليخا ، وعلمناه تأويل الأحاديث وتعبير الرؤيا ومعرفة ما تئول إليه الرؤيا ، وجعلنا تأويله لرؤيا السجينين سبيلا إلى تأويل رؤيا الملك ، ثم تقدير الملك له، وتوليته الوزارة ، وتوفيقه لأن يكون وزيرًا ناجحًا ، ثم تيسير حضور إخوته إليه من مصر ، وسجودهم له سجود تعظيم ، وتحقيق رؤياه ، وإنعام الله عليه وعلى والديه .

وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : والله غالب على كل أمر يريده ، فلا يُغلب على شىء منه ، بل يقع كما أراد : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

فما حدث من إخوة يوسف له ، ومن تعلق امرأة العزيز به ، ودخوله السجن ، وخروجه من السجن وزيرًا مفوّضًا ؛ قد كان من الأسباب التى أراد الله تعالى له بها التمكين فى الأرض ، ولكن أكثر الناس يأخذون الأمور بظواهرها ، والأقل يدركون أن هناك أسبابًا خفيَّة تلطف الله بها فى التوصل إلى تحقيق مراده ، على نحو ما قال يوسف : إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ . (يوسف : ١٠٠) .

٢٢ - وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

ولما بلغ سن رشده وكمال قوته ؛ باستكمال نموّه البدنى والعقلى ؛ وهبناه حكما صحيحًا فيما يعرض له من مهامّ الأمور ، ومشكلات الحوادث ، مقرونا بالحق والصواب ، لما وهبناه علمًا غزيرًا وبصرًا بالأمور ، ومثل ذلك الجزاء العظيم ، نجازى به المتحلين بصفة الإحسان الذين لم يدنسوا أنفسهم بسيئات الأعمال ؛ فنؤتيهم نصيبًا من الحكم بالحق والعدل ، وعلما وتوفيقًا وبصرًا بالأمور .

★ ★ ★

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

وراودته : طلبت إليه ، من راد يرود ؛ إذا ذهب وجاء لطلب شيء ، والمراد : تحايلت لمواقعته إياها ، ولم تجد منه قبولا .

وغلقت الأبواب : أحكمت إغلاقها ، قيل : كانت سبعة ، والتشديد ؛ للتكثير أو للمبالغة فى الإيثاق .

هيت لك : هيت : اسم فعل أمر بمعنى : أقبل وبادر ، واللام فى لَكَ للبيان . أى : لك أقول هذا ، كما فى هلمّ لك ، وقرئ : هِئتُ بكسر الهاء وبالهمز وضمّ التاء ، بمعنى : تهيأت لك فهو : فعل ماضى وفاعله.

معاذ الله : أى : أعوذ بالله معاذًا . أى : ألتجأ إليه التجاءً .

إنه ربّى : إنه سيدى الذى ربانى .

أحسن مثواى : مقامى ، أى : أحسن تعهدى وأكرمنى فلا أخونه أبدًا .

همت به : عزمت وقصدت مخالطته .

وهم بها : نازعته الشهوة لمخالطتها إلا أنه ضبط نفسه ، وتذكر ربه ؛ فامتنع . قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وهم بها لولا أن رأى برهان ربه : هنا جواب الشرط محذوف تقديره : لولا أن رأى برهان ربّه لخالطها ، أما هذا البرهان فقيل : إنه رأى جبريل وقيل : رأى يعقوب .

كذلك : أى : مثل ذلك التثبيت ثبتناه ، وأريناه البرهان .

المخلصين : بفتح اللام أى : الذين أخلصهم الله لطاعته .

تمهيد :

تشير هذه الآية إلى : محنة جديدة ليوسف الصديق . تلك هى مراودة امرأة العزيز له وإلحاحها عليه ، واعتصامه بالله رب العالمين .

التفسير:

٢٣ - وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .. الآية .

سبق أن قال العزيز لامرأته : **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ** ، ونشأ يوسف كريما حكيما عليما ، وبلغ أشدّه ، واستوى له العلم والجسم والفضل والكمال والجمال ؛ فأحبته امرأة العزيز ، وتمنت لو بدأها ، لكنه كان فى غاية الأدب وحسن السيرة ؛ فلجأت إلى فنون الأنثى ذاهبة إلى فن ، آيبة من فن ، **وَرَٰوَدَتْهُ** من راد ، يرود بالإبل ؛ إذا ذهب وجاء ، وهى تعبّر عن تلطّف الأنثى وتحايلها فى رفق ولين ؛ كأنها تريد أن تصرفه عن نفسه ، فهو فى عفة واستقامة تجعله يسيطر على نفسه وهواه ، لكنها تريد أن تسلبه سيطرته على نفسه ، تريد أن تتصباه وتستثير نوازع شهوته وطلبات جسده .

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ .

والمعنى : واحتالت امرأة العزيز التى يقيم يوسف فى بيتها - احتالت عليه وطالبته برفق وخديعة أن يمكنها من نفسه ، يخالطها مخالطة الرجل للمرأة .

وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ .

أحكمت إغلاق الأبواب ، بل حاولت أن تجعلها حيطانا لا يسهل الوصول لأحد منها ؛ لذلك قال القرآن **غَلَّقَتِ** بتشديد اللام ، فهى التى أغلقت الأبواب بنفسها ، وأحكمت إغلاقها .

وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .

أى : هلم أقبل وبادر ، قد تهيأت لك ! وهى كلمة أقرب إلى مناجاة خاصة تطلب بها الأنثى من يريد مخالطتها ، وهى تعبر عن تضرع المرأة بكل وسيلة تملكها ؛ لإغراء الرجل الذى تريده ، وهنا وقد بلغت المرأة آخر ما تستطيع من إغراء ؛ وقف يوسف الصديق يذكرها بالزوج ، وبالله ، ويحذرها من الظلم .

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ .

أى : أعوذ بالله معاذًا ، وألتجئ إليه وأعتصم مما تريدين منى ، فهو يعيذنى من هذا المنكر وهذه الفاحشة .

إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ .

إِنَّهُ الضمير للشأن والحديث . أى : إن الأمر والشأن الخطير الذى يمنعنى من إجابتك ؛ هو سيدى الذى ربانى وأحسن تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى ، فكيف أُسيء إليه بخيانته فى زوجته ؟!

واختار أبو حيان أن الضمير لله تعالى .

والمعنى : أن الله تعالى خالقى أحسن مثواى ، وجعل قلب العزيز يعطف علىَّ ، ويطلب منك إكرامى ؛ فكيف أعصى ربى بارتكاب تلك الفاحشة ؟!

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ .

أى : إن الشأن فى سنة الله فى خلقه وعدالته ، هو أنَّه لا يفوز الظالمون فى دنياهم وأخراهم ، فأما فى الدنيا فيعاقبون بالعلل والأسقام ، والذلّ بعد العزّ ، والفقر بعد الغنى ، وغير ذلك من الآفات ، وأما فى الآخرة فالجحيم والزمهرير ، ومن فاتته عقوبة الدنيا لم يفلت من عقوبة الآخرة .

قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ . (إبراهيم : ٤٢) .

٢٤ - وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ...

كثر كلام المفسرين حول هذه الفقرة وكأنهم أرادوا أن يردّوا عن مقام النبوة كل هفوة ؛ من ذلك أن السيد رشيد رضا فسَّر هَمّ المرأة هنا : بأنها أرادت ضربه ، حيث أذلّها وكسر كبرياءها ؛ فصممت على ضربه، وهم بها ليمنعها أو يضربها ؛ لولا أن أراه الله برهانًا ، ويقينًا يدعوه إلى الخروج من المأزق ، والهروب من أمام هذه المرأة ؛ طلبا للنجاة ، وكما أكرمه الله سابقًا ، أكرمه بهذا التفكير ؛ ليصرف الله عنه ارتكاب القتل ، وارتكاب الزنا ؛ لأن الله أخلصه وقربه واصطفاه .

وإذا أمعنا النظر فى الآية والسياق والأحاديث ؛ وجدنا أن الآية تشير إلى همّ امرأة العزيز بيوسف .

والهم نوعان :

الأول : همٌّ بمعنى : القصد والعزم والتصميم على التنفيذ .

والثانى : همٌّ بمعنى حديث النفس ، وهو خطرات النفس ، وفى الحديث : «إن الله غفر لأمتى ما حدثت به نفسها» [٩١] .

وهذا الهمّ الثانى : حديث النفس ، أو خطرات تعرض للنفس ، ثم يتراجع المؤمن ، ويرى أوامر الله صريحة أو برهان الله واضحًا فى تحريم الفعل والزنا ؛ فيكون له ثواب الكفّ عن المحرَّم ، وتلك محمدة لا مذّمة .

وفى الصحيحين : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : «إذا همَّ عبدى بحسنة ؛ فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها ؛ فاكتبوها حسنة ؛ فإنما تركها من جرائى ، فإن عملها ؛ فاكتبوها بمثلها» [٩٢] .

وقد ذهب إلى هذا المعنى الزمخشرى فى تفسير الكشاف والإمام الآلوسى ، والأستاذ محمد فريد وجدى فى المصحف المفسر حيث قال :

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا . أى : قصدت مخالطته ، وقصد هو مخالطتها ، والهمُّ بالشىء : قصده والعزم عليه ، والمراد بهم يوسف : منازعة الشهوة إياه ، لا القصد الاختيارى ، وهذا لا يدخل تحت التكليف قطّ ، بل يثاب المرء على الامتناع عن مجاراته ، وهذا لا يقْدح فى يوسف ؛ فإنه عامٌّ فى جميع الناس وإنما يتفاضلون فى ضبط نفوسهم ، وكف رعوناتها [٩٣] .

وقال الإمام الآلوسى :

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ . أى : بمخالطته ، والمعنى : أنَّها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزما جازمًا ، لا يلويها عنها صارف .

وَهَمَّ بِهَا . أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف، وليس المراد : أنَّه قصدها قصدًا اختياريًّا ؛ لأن ذلك أمر مذموم .. وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همِّها فى الذِّكر ، على سبيل المشاكلة لا لشبهة به .

لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ . أى : محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله ، والمراد برؤيته لبرهان الله : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين [٩٤] . اهـ .

والبرهان الذى رآه يوسف ، هو برهان الله المأخوذ على المكلَّفين ، من وجوب اجتناب المحارم ، أو حجة الله تعالى فى تحريم الزنى ، والعلم بما على الزناة من العقاب . وقيل : هو تطهير نفوس الأنبياء عن الأخلاق الذميمة .

وقد بالغ بعض المفسرين فى تفسير هذا البرهان ؛ فادَّعى بعضهم : أن يوسف سمع هاتفًا يقول : يا يوسف ، اسمك ، فى ديوان الأنبياء ، وتفعل فعل السفهاء !

وادعى بعضهم : بأن يوسف حلّ سراويله ، وجلس من زليخا مجلس الخاتن ، ثم رأى زليخا تقوم وتغطى صورة صنم موجود ؛ فقال لزليخا : تستحين من صنم ، ولا أستحى من رب الأرض والسماء ؟!

وادعى بعضهم : أنه رأى صورة والده يعقوب ، يعض على إصبعه ، ويحذر يوسف ؛ فاستحى يوسف من فعل الفاحشة .

وادعى بعضهم : أنه رأى جبريل عليه السلام يحذره من ارتكاب الفاحشة .

ونقول لهؤلاء ما قاله شيوخنا : لو أن أقل الناس حياءً وأكثرهم وقاحة ، رأى أمثال ذلك لخجل وذهبت منه كل رغبة فى الشهوة ؛ فأىّ فضيلة لهذا النبىّ الكريم ، الذى مدحه الله ، وسجل شهادة بنزاهته، ثم قالت النسوة عنه : حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ . وقالت امرأة العزيز عنه : أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ. كل هذه الشهادات تثبت أن عفة يوسف ، ورجوعه إلى الحق والالتزام ؛ كان سببه يقين داخلى ، ورغبة ذاتية . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١).

لقد كان همّ يوسف بامرأة العزيز مجرد تفكير فى هذا الإغراء ، الذى يزلّ له عقل البشر ، ثم عصمه الله بالعقل والفكر والتأمل ، والالتجاء إلى الله ، كما قال تعالى : كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ . (يوسف : ٢٤) .

والبرهان هذا هو المفتاح الذى يفتح أبواب النصر على الإغراء ، والارتقاء على حيل الشيطان ؛ قد يكون تذّكر الموت أو القبر أو الحساب أو الآخرة ، أو الأب الرجل الصالح ، أو الملاك جبريل ، وهو يهبط بالوحى ، أو جلال الله وعظمته وهو مطلع وشاهد ، وكلها براهين تنبع من داخل النفس والوجدان والتصور، لكنها تتجمع كلها على معنى واحد هو: رقابة الله والتزام أمره واجتناب نهيه ؛ لهذا عبر عنها بالمفرد فقال: لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ . وهو معونة الله للصادقين ، ورعايته للمخلصين ، وعصمته للأنبياء والمرسلين .

كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ .

رجّحنا فيما سبق أن الامتناع عن الزنا مع الخُطور بالبال ؛ يدل على قوة الوازع ، وقوة الإرادة أكثر من عدم وجوده ، أى : أن يوسف لم يكن عنينًا ، ولا حصورًا ، وإنما كان بشرًا مكتمل الجسم والقوة ، يفكر فى هذا الإغراء ، أو يتخيله لأول وهلة ، ثم يعتصم ببرهان الله وتوفيقه .

كما قالت امرأة العزيز للنسوة : وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ . أى : طلب العصمة وتمسك بها .

وهنا يقول الله تعالى : كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ .

أى : جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك ؛ لنصرف عنه دواعى ما أرادت به من السوء ، وما راودته عليه قبله من الفحشاء ؛ بعصمة منَّا تحول دون تأثير دواعيهما الطبيعية فى نفسه ، حتى لا يخرج من جماعة المحسنين إلى جماعة الظالمين .

وجاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى [٩٥] :

كَذَٰلِكَ . الكاف منصوب المحلّ أى : مثل ذلك التثبيت ثبتناه .

لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ . من خيانة السَّيد .

وَٱلْفَحْشَآءَ . من الزنى .

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ . أى : الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

ويجوز أن يراد بالسوء : مقدمات الفاحشة من : القبلة ، والنظر بشهوة ، ونحو ذلك .

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ . أى : من جملة المخلصين ، أو هو ناشئ منهم ؛ لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال الله فيهم : وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ . (ص : ٤٥ – ٤٧) .

٢٥– وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ...

أى : تسابقا إلى الباب ؛ كل منهما يريد أن يسبق الآخر ، مع اختلاف المقصد ؛ فيوسف أسرع من أمامها هاربًا طالبًا النجاة من هذه المرأة الراغبة فى الشهوة بكل ما أوتيت من وسيلة ، وزليخا أسرعت وراءه تبتغى إرجاعه ؛ حتى لا يفلت من يدها ، وهى لا تدرى إذا خرج إلى أين يذهب ، ولا ماذا يقول ، ولا ماذا يفعل ؟ لكنها أدركته .

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ .

أى : جذبته من قميصه فانقدَّ طولا إلى ذيله .

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ .

أى : وحينئذ وجدا زوجها عند الباب الخارجى ، ويوسف يسرع هاربًا ، وهى تلهث وراءه طالبة ، وهى فى زينتها وحلّتها ، وفى وهلة المفاجأة أسرعت المرأة إلى تخليص نفسها من التهمة ، وتهديد يوسف حتى يستجيب لها ، ويعرف أن أمره بيدها .

قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وقد ذكر المفسرون : أن هذه الجملة تدل على ذكاء المرأة وحسن تخلصها .

● فهى لم تصرح باسم يوسف ؛ تهويلاً للأمر ، وتعظيمًا له ، كأنَّ ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد سوءًا بأهل العزيز .

● لم تصِّرح بجرم يوسف ؛ حتى لا يشتد غضب العزيز عليه ، ويقسو فى عقابه ؛ كأن يبيعه أو يقصيه عن الدار ؛ وذلك غير ما تريد .

● حبّها الشديد ليوسف عليه السلام ؛ حملها على أن تبدأ بذكر السجن ، وتؤخر ذكر العذاب ؛ لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب لا سيما أن قولها : إِلَّآ أَن يُسْجَنَ . قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين (٩٦) .

قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى : وحينئذ قالت زليخا للعزيز : ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة ؛ إلاَّ أن يحبس أو عذاب مؤلم موجع ، فيضرب ضربا شديدًا ، وكانت نساء مصر تلقب الزوج : بالسيد .



﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ ﴾

المفردات :

وشهد شاهد من أهلها : قيل : ابن عمها ، وقيل : ابن خالها ، وكان صبيًّا في المهد ؛ أنطقه الله ؛ معجزة له .

قد : شُقّ ، يقال : قدّه ، يقدُّه قدًّا ؛ شقّه .

من قبل : أى : من أمام .

من كيدكن : أى : من حيلتكنّ ، يقال : كاده ، يكيده كيدًا : احتال عليه ؛ حتى أوقعه .

يوسف أعرض عن هذا : أى : يا يوسف : اكتمه ولا تذكره .

واستغفرى : يا زليخا وهى زوجته .

من الخاطئين : من المذنبين من خطِئ يخطأ ، خطأً أى : أذنب متعمدًا ، أمّا أخطأ فمعناه أذنب: غير متعمد.

التفسير :

٢٦- قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي ... الآية .

أى : قال يوسف مدافعا عن نفسه مكذبًا لها : هى التى دعتنى إلى مقَارفَة الفاحشة ، لا أنى أردتُ بها السوء.

وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ .

تعددت آراء المفسرين حول هذا الشاهد ؛ فقيل: إنه طفل فى المهد شهد بما فصّله الله بعد ، وكان من أهل امرأة العزيز .

وذكر القرطبى نقلاً عن ابن عباس: أن الشاهد كان ابن عمها ، وكان رجلاً عاقلاً حكيمًا ، شاوره العزيز فى هذا الأمر .

قال صاحب الظلال :

لعله شهد الواقعة ، أو أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر ، كما يقع فى مثل هذه الأحوال ، أن يستدعى الرجل كبيرًا من أسرة المرأة ، ويطلعه على ما رأى ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم، الهادئة الأعصاب . ا هـ .

ويلاحظ أن هذا الكلام من قريب زليخا لا يعتبر شهادة ؛ لأنه لم ير شيئًا مما حدث ، ولكنه لما كان يرشد إلى دليل الحكم ، أطلق عليه شهادة مجازًا ؛ لأنه يشبهها فى التوصيل إلى الحكم الصحيح .

إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ .

أى : إن كان قميص يوسف شق من قدَّامه ، فقد صدقت فى دعواها : أنه أراد بها سوءًا ؛ فهو قرينه على أنه بادرها بالاعتداء ؛ فنازعته وأخذت بتلابيبه من قدامه ، وجَعَلا يتصارعان ، وهى ممسكة بتلابيبه فشق القميص فى يدها من قدامه وهو يخلِّصه منها ، وهو حينئذ من الكاذبين فى دعواه : أنها راودته عن نفسه فامتنع .

٢٧ - وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ .

وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ : فهو من أثر تملُّصه منها ، وأنه أسرع إلى الباب ؛ ليهرب منها ، وأنها تابعته وجذبت ثوبه من الخلف ؛ لتمنعه من الهروب .

وقد قدم الفرض الأول ؛ لأنها سيدةٌ ، صاحبة القصر ، وهو فتًى عندها فمن باب اللياقة أن يذكر الفَرْض الأول أولاً ، والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة « واعتماد القضاة على القرائن معروف فى الفقه ، ويؤخذ بالقرينة فى اللفظة وفى كثير من المواضع ، حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وُجدت أمتعته معهم؛ فادَّعاها قوم وليست لهم بينة ؛ فإن الحاكم ينتظر بعض الوقت ، فإن لم يأت غيرهم ؛ دفعها إليهم .

وقال محمد بن الحسن الشيبانى : فى متاع البيت إذا اختلف فيه الرجل والمرأة ، إن ما كان للرجال فهو للرجل ، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل .

وكان شريح وإياس بن معاوية يُعملان العلامات فى الحكومات ، أى : فى القضايا التى لا شهود فيها، وأصل ذلك هذه الآية »[٩٧] .

٢٨- فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .

أى : فلما شاهد العزيز قميص يوسف قد انشق من خلفه ؛ التفت إلى زوجته وقال لها . إن اتهامك اتهام باطل حين قلت : مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ... أو إن تدبير المكر بالرجال من كيدكن وتدبيركن ؛ معشر النسوة ؛ فهن أكثر تلطفًا واحتيالاً ؛ للوصول إلى أهدافهن من الرجال ، ولأن ذلك يتناسب وطبيعة هذه الطبقة المترفة من النساء ، التى تجد سعة من الوقت ؛ لتدبير الكيد وإحكام المكر ، ونسب الكيد إلى جميع النساء ، فقال : إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . مكركنّ محكم قوى . وفيه ما ترى من برود العزيز ؛ حيث نسب المكر إلى كل النساء ، وهى واحدة منهن ، فكأنها من أبرع بنات جنسها فى تدبير الكيد والمكر .

قال حكيم : « ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء » .

وقال بعض العلماء : أنا أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان ، فإنه – تعالى – يقول فى حق الشيطان : إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا . (النساء : ٧٦) ، وقال فى حق النساء : إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .

٢٩- يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ .

بعدما ظهرت براءة يوسف ؛ اتجه العزيز إليه بالخطاب طالبًا منه أن يكتم الأمر ، ولا يفضح الزوجة ، واتجه إلى زوجته بخطاب يسير يطلب منها أن تستغفر من ذنبها ، أى: تطلب منه الصفح ، أو تطلب من الآلهة التى كانوا يتجهون إليها بالعبادة ؛ فإنك تعمدت الخطأ ، ودبّرت خطة محكمة ؛ فى الإيقاع بيوسف ، واتهامه بدون وجه حق . قال النسفى فى تفسير الآية : « وكان العزيز رجلاً حليمًا ، قليل الغيرة ؛ حيث اقتصر على هذا القول »[٩٨] .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

نسـوة : جماعة من النساء لا واحد له من لفظه .

امـرأة العـزيـز : زوجته .

تراود فتاها عن نفسه : تطالب فتاها بمضاجعتها ، وتخادعه عن نفسه .

قد شغفها حبًا : شق شغاف قلبها حبًا حتي وصل إلى فؤادها ، وشغاف القلب حجابه المغشى له .

ضـلال مـبين : بعد عن طريق الصواب والعفة ، بين واضح .

فلما سمعت بمكرهن : أى : باغتيابهن ، وإنما سمّاه : مكرًا ؛ لأنهن أخفينه كما يخفى الماكر مكره .

وأعتدت لهن متكئا : أى : أعدت لهن ما يتكئن عليه من الوسائد ، يقال : أعتد الشيء ، أى : أعدّه ، وهو من العتاد ، أى : الأداة .

وءاتـت : وأعطت .

أكبرنـه : عظّمنه ، وهِبْنَ حسنه ، من أَكْبَرَ الشيء أى : رآه كبيرًا .

وقطعن أيديهن : أى : جرحن أيديهن من فرط الدهش .

حـاش لله : تنزيهًا له عن صفات العجز والنقص ، والمراد : التعجب من حسن يوسف .

إن هـــذا إلا مـــلك : أى : ما هذا إلا ملك .

لمتننى فيه : أى : هذا الذى غبتنَّنى فيه وعَيَّرتُنَّنى .

فاستعصم : فامتنع ؛ طلبًا للعصمة ، وبالغ فى ذلك .

من الصاغرين : من الأذلاء .

كيدهن : احتيالهن . الكيد : ضَرْب من الاحتيال . قد يكون محمودًا ومذمومًا ، وهو فى المذموم أكثر.

أصب إليهن : أى : أمل إليهن ، وأستجب إلى هواهنّ ، يقال : صَبَا إليه . يصبوا صبوًا ، أى : مال إليه ، والصبوة هى : الميل مع الهوى .

التفسير :

٣٠- وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ... الآية .

تفيد هذه الآية : أن خبر امرأة العزيز مع يوسف ؛ قد انتشر فى مدينة مصر ، خصوصًا بين نساء الطبقة الراقية التى تهتم بمثل هذه الأخبار .

لقد كثر كلامهن وغيبتهن وعيبهن لامرأة العزيز ؛ حيث أن زوجها هو كبير الوزراء ، وله نصيب من الملك والحكم ، ثم تنشغل هذه الزوجة عن زوجها الكبير الخطير ، بحبّ فتاها وتابعها ، حيث تستمرّ فى طلبهن الفاحشة منه ، وتريد مضاجعته ، وقد تمكن حبه من شغاف قلبها ، فلم يعد فى قلبها مكان لغير حب يوسف ، وعقَّب النسوة بقولهن : إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . أى : إن لنراها فى ضلال واضح بين ؛ لرغبتها فى الزنا ، وانشغالها بفتىً تابع لها ، وتمكن حُبِّه من قلبها ؛ مع أن زوجها فى منزلة رفيعة عالية .

٣١- فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ... الآية .

تفيد هذه الآية : قدرة امرأة العزيز على مقابلة كيد النسوة ، وحديثهن عنها ، وتجريحهن لها ، وانتقاصهن لضلالها ، وفتنتها بغلام مملوك لها – قابلت كلّ ذلك بمكر مثله ، وأبرع منه ؛ فقد عملت وليمة ودعت إليها نساء الطبقة الراقية ، قيل : إنها دعت أربعين امرأة . منهن خمس من المتكلمات عليها: (امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن) ، وأعدَّت حشايا وأرائك مريحة يجلسن فيها ويسترخين ، وصنعت لهن طعامًا فيه اللحوم والفاكهة ، وغير ذلك مما يحتاج إلى سكاكين ؛ للتقطيع أو للتقشير ، ووزعت على كل امرأة سكينًا لتقطيع الطعام .

وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ .

أمرت زليخا يوسف أن يخرج على النسوة وهو لا يدرى بما دبَّرته وبيَّتته ، فلما شاهدنه ؛ بهرهن جماله ، وحسنه الرائق الفائق ، وعظَّمنه وتهيبن حسنه الرائع ، وجرحن أيديهن بما معهن من السكاكين؛ لفرط دهشتهن ، وخروج الأمر عن إرادتهن ، حتى لم يشعرن بما فعلن .

وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ .

أى : قالت النسوة ؛ تنزيها لله تعالى عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالى : حَـٰشَ لِلَّهِ . أى : تنزه الله عن صفات العجز ، وتعالت عظمته فى قدرته على خلق مثله . والمقصود : التعجب والتعبير عن الدَّهشة ، والإعجاب بهذا الجمال الباهر ، وبصنع الله القادر .

مَا هَـٰذَا بَشَرًا . أى : ما هذا الذى نراه بشرًا ؛ فما مثله فى الناس أحدًا .

إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . أى : ما هذا إلا ملك من الملائكة ؛ فإن هذا الجمال الباهر ، والحسن الرائع ، مما لا يكاد يوجد بين البشر ، يردن وصفه بأقصى مراتب الحسن ، والجمال والكمال .

وهكذا جرت العادة فى تشبيه كل متناه فى الحسن بالملك ، كما جرت فى تشبيه كل متناه فى القبح بالشيطان .

٣٢- قَالَتْ فَذَالِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ ...

أحست زليخا أنَّها انتصرت على بنات جنسها ؛ فقد كنَّ يلمنها ، ويتصورن يوسف بصورة أدنى ، فلما شاهدنه ؛ بهرهن جماله ، وشهدن له بأن حسنه ليس لبشر ، بل هو حُسْنُ الملاك . أى : أن حُسْنه خارج عن صفات البشر ، والمراد : الإعجاب والدهشة والانبهار بما يملك يوسف من جمال بارع ، فائق، خارج عن حد البشر .

وفى صحيح البخارى: أن النبى ﷺ شاهد فى السماء الثالثة يوسف . وقد أعطى شطر الحسن .

ثم وجهت امرأة العزيز الخطاب إلى جمع النسوة فقالت : إن هذا الفتى العبرانى ، هو الذى لُمْتُنَّنى فى الافتتان به ، والوقوع فى حبّه ، وقد فتنكنّ ؛ فقطعتم أيديكن ، وأنا أعيش معه ليل نهار ، وأشاهده صباح مساء ، ولقد راودته عن نفسه ، وطلبت منه الجماع فامتنع امتناعًا كاملاً .

وجاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى :

أى : أردت أن أنال وطرى منه ، وأن أقضى شهوتى معه ، فامتنع امتناعًا شديدًا ، وأبى إباءً عنيفًا. والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد .

وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ .

وجَّهت زليخا تهديدًا إلى يوسف أمام النسوة ، وقد كان أمرها معه سرًّا لكنها صرحت برغبتها فيه، وأوعزت إلى النسوة بمعاونتها . ولعل لهذه النسوة من حركاتهن المثيرة ؛ وملابسهن الكاشفة عن مفاتنهن ؛ ما يثير الرغبة ويزلزل كيان المستعصم .

كان يوسف قد امتنع عن مضاجعة هذه المرأة ، فذاقت آلام الهجر ، وسهر الليل ، والحرمان والإحباط ؛ فهددته بأنه إذا أصر على إبائه ، ولم يفعل ما آمره به من المضاجعة ؛ ليوضعن فى السجن مع السرَّاق والمجرمين والقتلة ، وليذوقن الصغار والذل بينهم ، فقد زهد فى أميرة تلبس الحرير والديباج، متهيأة لتلبية طلبه ، فليذق مثلها سهر الليالى مع المجرمين العتاة ، وليجلس على الأماكن الخشنة ، وليعانى آلاما مبرحة ؛ عقابًا له على إهانتى ، وعدم تلبية أمرى !

وهكذا نشاهد تعنّت هذه المرأة وتبجحها ؛ فهى تجاهر بالمعصية ، وتهدد المستعصم المستقيم ، وتستعين بالنسوة على إغرائه ، وتيسير أمره ؛ حتى يلبى دعوة الفاحشة .

ومن كل ما سبق نشاهد كمال يوسف ، وزهده فى هذه المرأة وفى أمثالها ، بل واتجاهه إلى الله تعالى ؛ ليحفظه من هذا الإغراء المتتابع .

٣٣ - قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ.

هنا لجأ يوسف إلى ربّه ؛ عندما شاهد عودة زليخا إلى المراودة والتهديد والوعيد ، وشاهد دعوة النسوة له إلى إجابة طلبها ، وربما عرضن أنفسهن عليه مبهورات بجماله ؛ فخشى من هذا الإغراء المتتابع ، ومدّ يديه إلى الله داعيًا ، مستجيرًا ، طالبًا منه : الثبات والمعونة ، مفضلا السجن وما فيه من خشونة العيش وشظف الحياة ، على الوقوع فى المعصية ، واقتراف الزنا .

واستمر فى دعاء مولاه : بأن يصرف عنه كيد النسوة ، وتدبيرهن المحكم لإغوائه ؛ حتى لا يتأثر بهذا الإغواء ؛ فيستجيب لهنّ بمقتضى الطبيعة البشرية ، أو يميل إلى الاستجابة لهن ، وبذلك يكون ممن جهل حق العلم ، وحق الله فى الطاعة والانصراف عن الغواية .

وقد ذكر الإمام القرطبى فى معانى الآية :

« قال يوسف : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه من الزنا ، أو أحب إلىّ من أن آتى ما تكره .

وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .

يقول : وإن لم تدفع عنى يا رب فعلهنّ الذى يفعلن بى فى مراودتهن إياى على أنفسهن ؛ **أَصْبُ إِلَيْهِنَّ**. يقول : أميل إليهن ، وأتابعهن على ما يردن منّى ويهوين . من قول القائل : صبا فلان إلى كذا ، ومنه قول الشاعر :

إلى هند صبا قلبى وهند مثلها يصبى[٩٩]

٣٤- فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

لقد لجأ يوسف إلى ربّه يطلب منه: القوة والمنعة ، وأن يصرف عنه إغراء النسوة ، وقد وعد الحق سبحانه بإجابة الدعاء ، خصوصًا دعاء المضطّر الصادق مثل يوسف . قال تعالى : **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ** . (النمل: ٦٢) ، **فَصَرَفَ** الله عنه كيد النسوة ؛ بأن ألقى اليأس فى قلوبهن ؛ ثم زاده الله عصمة وتثبيتًا ؛ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ** لدعاء الداعين ، **الْعَلِيمُ** بالخفايا وبالأسرار ، وبما هو أخفى من الأسرار .

٣٥- ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ .

أى : ثم بدا للعزيز وزوجته وأهل مشورته أن يدخلوه السجن إلى حين ، أى : إلى وقت معين ؛ تنقطع فيه الألسنة عن الكلام عنه ، وعن افتتان زليخا به ، مع أنّهم قد شاهدوا العلامات الدالة على براءة يوسف، ومن هذه العلامات : **قدّ القميص من دبر ، وخمشٌ وجد فى وجهه ، وتقطيع النسوة أيديهن .**

لكن امرأة العزيز يئست من يوسف ، واشتكت إلى زوجها : بأن يوسف يشيع بين الناس : أن زوجة العزيز راودته ، ويجب أن يوضع فى السجن .

وجاء فى البحر المحيط: عن ابن عباس :

« فأمر به فحمل على حمار ، وضُرب بالطبل ، ونودى عليه فى أسواق مصر ، أن يوسف العبرانى أراد سيدته فجزاؤه أن يسجن » .

ودخل يوسف السجن بريئًا ، تشهد الآيات على براءته ؛ قال الشاعر :

قالوا : تروح إلى السجون فقلت : جيرى
إن السجون مواطن الآساد

أو كلُّ من دخل السجون بمجرم
بل كان يوسف ذروة الأمجاد

وجاء فى ظلال القرآن :

« وهنا لابد أن تحفظ سمعة (البيوتات) . وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن ، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى برىء ، كل جريمته أنه لم يستجب ، وأن امرأة من (الوسط الراقى) قد فتنت به ، وشُهرت بحبّه ، ولاكت الألسن حديثها فى الأوساط الشعبية »(١٠٠) .

★ ★ ★

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

المفردات :

أعصر خمرا : أى : أعصر عنبًا يئول إلى خمر وأسقى منه الملك .

نبئنا بتأويله : أخبرنا : بمآل ما رأيناه فى المنام ، أى : فسّر لنا الرؤيا .

ملة : دين .

التفسير :

٣٦- وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَانِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَانِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

أى : دخل فى الوقت الذى دخل فيه يوسف السجن ؛ فتيان خادمان للملك ، كان أحدهما : خبّاز الملك، والثانى : ساقيه ، واتُّهما بدس السُّم للملك فى الطعام والشراب ؛ فأدخلا السجن .

وعُرف عن يوسف الإحسان ، وزيارة المريض ، وعزاء المحزون ، ومعاونة المحتاج ، كما عرف عنه علمه بتفسير الأحلام وتعبير الرؤيا ؛ فكان يوسف صديق الجميع ؛ لحسن سيرته ، وكريم خصاله .

ولما جاء إليه الغلامان طلبا منه تفسير رؤياهما ، قال أحدهما – وهو الساقى – : لقد رأيت فى منامى أنى قطفت ثلاث عناقيد من العنب ، ثم عصرتها فى كأس الملك ؛ فصارت خمرًا يشرب منها الملك، وقال خباز الملك : إنى رأيت فى منامى أنّى أحمل فوق رأسى خبزًا ؛ وجاءت الطيور الجارحة والنُّسور ، فكانت تأكل من هذا الخبز . أخبرنا يا يوسف ، عن تفسير هذه الرؤيا ومدلولها ؛ إنا نراك من المحسنين الذين يجيدون تفسير الأحلام وتأويل الرؤيا ، ومن المحسنين فى سلوكهم ؛ وكريم خصالهم .

٣٧- قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ .

انتهز يوسف الفرصة ليبين للسجينين فضل الله عليه ، وإنعامه ؛ تمهيدًا لدعوتهما إلى دين التوحيد، وترك ما عليه عامة المصريين فى ذلك الوقت من عبادة آلهة متعددة .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا . كان يخبرهما بنوع الطعام وأوصافه قبل حضوره إليهما ، فيقول لهما : اليوم يأتيكما طعام من صفته كذا وكذا ، فيجدانه كذلك بعد حضوره . وأطلق التأويل على ذلك ؛ تشبيها له بتأويل الرؤيا ، فإنهما يشتركان فى الإخبار بالغيب .

ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ .

أى : ذلك الإخبار بالغيب ، ليس عن طريق الكهانة أو التنجيم ، بل هو بسبب إلهام ووحى من الله ؛ فهو من تعليم الله للأنبياء ما لا يعلمون .

إن يوسف يؤمن بالله إيمانًا صادقًا ؛ عن يقين جازم بأنه واحد أحد ، فرد صمد لا شريك له ولا مثيل ، وقد ابتعد عن دين المصريين الذين لا يؤمنون بالله إيمانًا كاملاً على الوجه الذى يليق به ؛ بل يشركون غيره .

وَهُم بِٱلۡآخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ . فلا يؤمنون بالبعث والجزاء والحساب والثواب والعقاب .

٣٨- وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ... الآية .

أى : اتبعت دين الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله ، وأرسلهم لتعليم عباده ، وهم آبائى إبراهيم، وابنه إسحاق ، وحفيده يعقوب .

مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ .

أى : ما صح ولا استقام لنا معاشر الأنبياء أن نشرك مع الله شيئًا ، أىَّ شىء سواء أكان صنما أم وثنا أم نجما ؛ فكلها مخلوقات لله ، وآيات شاهدات بوجود الله ؛ فكيف نعبدها مع الله ؟!

ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ .

أى : هذه الهداية إلى الإيمان والتوحيد ، وهذا المنهج السليم فى العقيدة ؛ من فضل الله الذى يختص برحمته من يشاء ؛ فاصطفانا بالرسالة والنبوة ؛ وهذا من فضل الله على الناس ؛ حيث أرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب ؛ لإرشادهم إلى الطريق القويم .

وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ .

أى : أكثر الناس لا يشكرون فضل الله عليهم ؛ فيؤمنون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ؛ بل يكفرون بالله ، أو يجعلون مع الله آلهة أخرى لا تنفع ولا تضرّ ولا تسمع ولا تجيب ؛ وليس لها من صفة الألوهية إلاّ الاسم دون الفعل .

★ ★ ★

﴿يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

المفردات :

يا صاحبى السجن : المراد بهما : الفتيان اللذان دخلا معه السجن ، وطلبا من يوسف تأويل الرؤيا ، أى : يا صحابىّ فى السجن .

ءأرباب متفرقون : متعددون لا ارتباط ولا اتفاق بينهم .

القهار : الغالب الذى لا يدانى في قهره ، ولا يستعصى عليه جبار ، ولا يفوته مطلوب .

أسماء سميتموها : أسماء اتخذتموها دون أن يكون لها مسميات على الحقيقة .

سلطان : حجة .

القيم : أى القويم .

التفسير :

٣٩- يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ .

يا رفيقىّ فى السجن وصاحبىَّ ؛ فقد اتخذ منهما صاحبين له فى السجن ؛ حيث الوحدة والشدة والغربة تؤلف بين قلوب بعض المساجين ؛ فيناديهما ويعرض عليهما قضية تستحق التأمل وهى : أعبادة آلهة متعددة أفضل ، أم عبادة إله واحد له منهج واحد ، وسنّة واحدة ، وبيده وحده الخلق والأمر ، وعليه الاعتماد؟!

وفى هذا المعنى قال تعالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (الزمر: ٢٩) .

فهذا العبد الذى يملكه أشخاص كثيرون متشاكسون ؛ إذا أرضى أحدهم أغضب الآخر فلا يدرى أيهم يطيع وعلى أيهم يعتمد . وهناك عبد أخلص عبوديته لرجل واحد ، يعتمد عليه ويطيعه ، وكذلك الآية التى معنا .

ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ . متصارعون لكل منهم منهج وطريق ، فهذا للخير وهذا للشر ، وهذا للنور وهذا للظلام . أعبادة آلهة متعددة أفضل ، أم عبادة إله واحد له الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير أفضل ؟!.

وهذا الاستفهام مراد به : لازمه ، وهو لفت الأنظار إلى ما كان يجرى بين عدد كبير من المصريين؛ من عبادة آلهة متعددة ، وبيان : أن عبادة إله واحد أفضل .

٤٠ – مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ...

أى : ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة من المسمّى ، سميتموها : آلهة ، وهى لا تملك القدرة ولا السلطان ؛ لأنها جمادات .

مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ . أى : ما أنزل الله بألوهيتها من حجة أو برهان أو دليل يصحح لكم عبادتها ؛ فعبادتكم لها باطل لا دليل عليه ولا سند يؤيده من نقل أو عقل .

إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ . أى : ما الحكم فى أمر العبادة والدين إلا لله ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ . أى : أمر الله تعالى ألا يعبد الناس إلا الله الواحد ؛ فهو وحده الذى يفرد بالعبادة ، ونقول له : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . أى : لا نعبد إلا أنت ، ولا نستعين إلا بك ؛ فلا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له .

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ . هذا الذى أدعوكم إليه وهو الدين المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ، وهو دين الفطرة السليمة ، ودين التوحيد ، وهو فى نفس الوقت الدين الذى له قيمة عالمية كبرى ؛ دين الإله الواحد ، والنبىّ الواحد ، والقبلة الواحدة ، والأمة الواحدة التى تتجه بقلوبها إلى الله وحده ، قال تعالى : إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٩٢) .

وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . أى : يجهلون عظمة الله فيعبدون مالا يضرّ ولا ينفع .

وهنا نجد حكمة يوسف ؛ فقد أدرك تشوق صاحبى السجن إلى تفسير رؤياهما ، فقدم لهما جرعة مناسبة من الدعوة إلى الإيمان ؛ حيث بين لهم فى أسلوب حكيم ، رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة

المتعددة ، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله ؛ لا تستحق الألوهية والعبادة ، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم ، وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد .

وبعد هذه الدعوة المستنيرة إلى الإيمان والتوحيد وترك الشركاء ، انتقل يوسف إلى تفسير الرؤيا لصاحبيه .

★ ★ ★

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

المفردات :

فيسقى ربه : أى : فيسقى سيده .

تستفتيان : تطلبان الفتيا .

عند ربك : عند سيدك .

بضع سنين : البضع : العدد من الثلاث إلى التسع ، واشتهر أن يوسف مكث فى السجن سبع سنين .

التفسير :

٤١ - يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ .

أى : يا صاحبىّ فى السجن ، أما الذى رأى أنه يعصر خمرًا أو يعصر ثلاثة عناقيد من العنب تصير خمرًا ؛ فإنه يمكث فى السجن ثلاثة أيام ، ثم يخرج من السجن ؛ فيعود إلى عمله ويصبح ساقى الملك .

وأما الذى رأى أنه يُصلب فتأكل الطير من رأسه ؛ فإنه سيخرج من السجن بعد ثلاثة أيام ، ثم يقتل ويعلق على خشبة ؛ فتأكل الطير من لحم رأسه .

قال المفسرون :

روى أنه لما أخبرهما بذلك ؛ جحدا ، وقالا : ما رأينا شيئا ؛ فقال يوسف : قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ. أى : عبَّرت لكما الرؤيا ، وأنا واثق من صدق تعبيرها ؛ ولا مجال فى ذلك لحدث أو تخمين ، وتمَّ قضاء الله فهو واقع لا محالة ، وما أخبرت به موافق لما علمنى ربّى وأرشدنى إليه .

٤٢ - وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ.

أقام يوسف فى السجن مظلوما ، فاقدًا للحرية ؛ فأراد أن يذكّر ساقى الملك ، بأن يذكر قصته للملك ، ويخبره : أنَّ فى السجن رجلا مظلومًا يفسّر الرؤيا ، ويسير بين المسجونين بمكارم الأخلاق ، لكن ساقى الملك شغله المنصب ، وحياة القصور وأمورها ، فنسى وصية يوسف له ، ونُسِى يوسف فى السجن ؛ فمكث فيه سبع سنوات .

قال القرطبى : قال وهب بن منبه : أقام أيوب فى البلاء سبع سنين ، وأقام يوسف فى السجن سبع سنين .

تعليق

ذهب بعض المفسرين إلى أن يوسف مكث فى السجن بضع سنين عقوبة له ؛ لأنه التفت إلى العباد، وطلب من الساقى أن يذكر قصته للملك ، وكان ينبغى أن يذكر يوسف قصته لله ويشتكى إليه ، واعتمدوا على أحاديث واهنة لا يصح الأخذ بها .

وعند التأمل نجد أن يوسف الصديق ، كان دائم الذكر لله تعالى ؛ فهو الذى رفض الفاحشة ، وذكَّر زليخا بالله تعالى وبحرمة الزوج ، وهو الذى رفض إغراء النسوة وقال : رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ . وهو الذى استمر فى السجن يدعو الناس إلى توحيد الله تعالى .

ويوسف حين يذكِّر الساقى بأن يعرض أمره على الملك ، هو آخذ فى الأسباب ، وقد أمر الله تعالى بذلك حين قال سبحانه : فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ . (الملك: ١٥) .

وزعم بعض المفسرين: أن الذى نَسِى ذكر ربه هو : يوسف فى قوله تعالى : فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ. أى: أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله ، والاعتماد عليه فى الخروج من السجن ؛ فمكث فيه بضع سنين . وعند التأمل نجد أن السياق لا يساعد على هذا الرأى ؛ بدليل قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونَ . أى : وقال الذى نجا منهما ، وتذكر يوسف بعد مدة طويلة ... إلخ .

وقد جاء فى تفسير القرطبى ، وفى صفوة التفاسير :

أن جبريل جاء إلى يوسف فأخبره : أن الله تعالى هو الذى نجاه من الجب ، ونجاه من زليخا ، ونجاه من كيد النسوة ، فكيف لجأ إلى مخلوق ليخرج من السجن ؟! وعقوبته أن يمكث فى السجن بضع سنين .

ومثل هذه المرويات الواهية ينبغى أن نُعيد النظر فيها ، فى ضوء حقائق القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ؛ فى الحث على الأخذ بالأسباب ؛ مع اليقين الجازم بأن مسبب الأسباب ، هو الله تعالى .

لقد جاهد النبى محمد ﷺ ، وهاجر من مكة إلى المدينة ، وبذل جهدًا كبيرًا فى بناء الدولة الإسلامية ، ومراسلة الملوك ، ودعوتهم إلى الإسلام ، ونهى عن التفرغ للعبادة ، وترك الجهاد ، وبيَّن : أن التوكل على الله لا يمنع الأخذ بالأسباب .

قال أعرابى للرسول ﷺ : ناقتى بالباب هل أعقلها ؟ أم أتركها وأتوكل على الله ؟ ، فقال له النبى ﷺ : « اعقلها وتوكل على الله »[١٠١] .

★ ★ ★

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

المفردات :

عجاف : جمع أعجف ، وهو المهزول ، والأنثى : عجفاء .

الملأ : الأشراف الذين يملئون العين مهابة .

تعبرون : تفسّرون .

أضغاث : جمع ضغث وهو الحزمة من الحشيش أو البقل اختلط فيها الرطب باليابس .

أحلام : جمع حُلم وهو ما يراه النائم ، ومعناه : اختلط فيها الحق بالباطل .

الذى نجا : هو ساقى الملك .

وادكر بعد أمة : وتذكر بعد جماعة كثيرة من الزمن ، وكل جماعة كثيرة ؛ فهى أمة .

الصدّيق : الكثير الصدق .

دأبًا : مصدر دأب فى العمل . أى : جدّ فيه .

سبع شداد : أى سنين من القحط ، صعاب على الناس .

مما تحصنون : مما تدّخرون من البذور .

يغاث الناس : يمطرون من الغيث وهو المطر .

التفسير :

٤٣ – وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ...

أراد الله إرسال الفرج إلى يوسف عليه السلام ؛ فرأى الملك فى منامه رؤيا عجيبة ؛ جمع كبار الكهنة والعلماء والمختصين ، وقصّ عليهم رؤياه ؛ فقال مستحضرًا منامه : إنى أرى سبع بقرات سمان خرجت من نهر يابس ، وفى إثرهن سبع بقرات هزيلة فى غاية الهزال ، فابتلعت العجاف السمان – ورأيت سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها ، وسبع سنبلات أخر قد يبست وجف حبّها ونضج . وبعد أن قصّ الرؤيا على حكمائه ومستشاريه الكهنة قال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ . أى : يا أيها الأشراف من رجالى وأصحابى ، أخبرونى : عن تفسير هذه الرؤيا ، إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها .

٤٤ – قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ .

عجز العلماء والكهنة عن تفسير هذه الرؤيا ، أو عرفوا تأويلها ، وأحسُّوا أنها تشير إلى سوء ، لم يريدوا أن يواجهوا به الملك ، على طريقة رجال الحاشية فى إظهار كل ما يسرّ الملوك ، وإخفاء ما يزعجهم، وصرف الحديث عنه . فقالوا : إنها أخلاط أحلام مضطربة ، وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل .

وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ . أى : لسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام المضطربة المختلطة ، فهى لا تشير إلى شىء ، وربما كان المعنى : أن علمنا قاصر عن تفسير الأحلام : فلسنا متعمقين فى تأويلها ، مع أن لها تأويلا .

وقد ورد فى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم فى منامه خيرًا ؛ فليحمد الله ، وإن رأى غير ذلك ؛ فليتفل عن يساره ثلاث مرات ، وليصلّ ركعتين ولا يخبر بها أحدًا : فإنها لا تضرّه »[١٠٢] .

والمعنى : إن المؤمن الصادق يرى رؤيا صادقة واضحة ، أما الحلم فهو من الشيطان ؛ ليثير التكدير والحزن على الإنسان ؛ فإذا رأى الإنسان رؤيا صادقة واضحة ؛ فهى بشارة من الله ، يستبشر بها المؤمن ويعمل بما يناسبها ؛ وإذا رأى حلمًا فيه أمور مختلطة ، أو مضطربة لا يستوضح مدلولها ؛ فإنه يتفل عن يساره ثلاث مرات ، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويتوضأ ويصلى ركعتين لله ، بنية أن يصرف عنه السوء ، ثم يقول : « اللهم ، لا يأتى بالخير إلا أنت ، ولا يذهب السوء إلا أنت ، اللهم ، اكفنى السوء بما شئت وكيف شئت إنك على ما تشاء قدير »[١٠٣] ، ولا يخبر أحدًا بهذا الحلم ؛ فإن الحلم كالطير إذا قصّ وقع ، ونلاحظ: أنه مرّ بنا عدد من المنامات والأحلام والرؤى منها : رؤيا يوسف أحد عشر كوكبًا ، ورؤيا الخباز والساقى ، ثم رؤيا الملك ؛ فلعل تفسير الأحلام والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله فى مصر، وخارج مصر ، وأن الهبة اللَّدنية التى وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوّه ، على ما نعهد فى معجزات الأنبياء[١٠٤] .

٤٥ - وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ .

أى : وبعد أن عرض الملك رؤياه على الملإ من رهبانه وحكمائه ، وعجزوا عن تأويلها ؛ تذكر الساقى الذى نجا من السجن ، ومكث مدة من الزمان ناسيًا ، ثم ذكّرته الأحداث بفضل يوسف فى تأويل الأحلام، وكان السجن بعيدًا عن المدينة ؛ فطلب منهم إرساله إلى يوسف فى السجن ؛ حتى يفسّر لهم رؤيا الملك .

٤٦ - يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ ...

أى : فأرْسلوه ؛ فانطلق إلى يوسف ، وذكر أمامه رؤيا الملك ، وسمّاه : صدِّيقًا ، أى : كثير الصدق؛ لأنه شاهد ذلك عمليًا ؛ حين رآه يفسّر الأحلام فى السجن ، وطلب منه الفتوى له ولمن خلفه من إدارة

الدولة ، ولذلك قال : أَفْتِنَا . فى تأويل هذه الرؤيا العجيبة : سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وأفتنا فى سبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات وبين لنا : مآلها ومدلولها .

لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ . أى : لكى أرجع إلى من بيدهم الأمر ؛ ليعلموا تأويلها ، ويعملوا بمقتضاه ، وليعلموا فضلك وعلمك ويخلِّصوك من محنتك .

٤٧ - قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ .

أى : قال يوسف لساقى الملك : إن هذه الرؤيا ترمز إلى ما يأتى : ستأتى سبع سنين مخصبة يجود فيها النيل بالماء ، وتخصب الأرض بالزراعة ، وعليكم أن تدَّخروا القمح وتتركوه فى سنابله ؛ حتى يسلم من السوس والمؤثرات الجوية ، لكن لا بأس أن تجردوا قليلا من القمح من سنابله بمقدار ما تأكلونه فقط، أما الزيادة فاحتفظوا بها فى سنابلها ؛ حتى تنقذكم فى السنوات السبع العجاف ، المرموز لها بالبقرات العجاف التى تأكل البقرات السمان .

ويبدو أن تخزين القمح فى سنابله لمدة طويلة تصل إلى سبع سنين لم يكن معروفًا لدى قدماء المصريين ؛ فقد كانوا يزرعون لكل عام ، ولا يحرمون من فيضان النيل سبع سنين متتابعة ؛ فلذلك أرشدهم يوسف ، إلى هذه الطريقة المثلى فى التخزين لمدة طويلة ، ولعل ذلك من فضل الله عليه وإلهامه بهذه الأمور الحكيمة التى أنقذت مصر من المجاعة ، وكانت سببًا فى إنقاذ ما حولها من البلاد وحسبنا قول يوسف لصاحبى السجن : ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ .

من تفسير القرطبى :

قال القرطبى : وهذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى : حفظ الأديان ، والنفوس، والعقول ، والأنساب ، والأموال ؛ فكل ما تضمَّن تحصيل شىء من هذه الأمور ؛ فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئًا منها ؛ فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ، ولا خلاف فى أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية .

٤٨ - ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ .

ثم تأتى بعد السبع سنوات الخصبة ، سبع سنوات شديدة من القحط وجفاف ماء النيل ، وبحكمة التخزين للقمح فى سنابله ، والذرة فى كيزانه ؛ تعبرون سنوات الجفاف ؛ لأنكم تأكلون من المخزون

عندكم. وكأنّ هذه الأيام هى التى تأكل المخزون الذى يقدم لها ، كما تقول : نهاره صائم ، وليلة قائم ، فأسند الأكل إلى الأيام ؛ لشدة نهمها وجوعها .

٤٩- ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ .

أى : ثم يأتى بعد سنى القحط والجدب العصيبة عام رخاء فيه يمطر الناس بالغيث الذى كانوا محرومين من غزارته وتتابعه سبع سنين . وفيه يعصر الناس ما يقبل العصر من الثمار والحبّ وغيرهما كالعنب والزيتون والسمسم والقصب . وقيل : معنى يعصرون : يحلبون الضروع من الماشية .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

ما بال النسوة : ما حالهن ؟

ما خطبكن : ما شأنكن ؟ والخطب : الأمر الذى يستحق أن يخاطب المرء فيه صاحبه ؛ ومن هنا سمِّيت الشدائد بالخطوب .

قلن حاش لله : تنزيها لله ، وتعجبًا من نزاهة يوسف .

حصحص الحق : وضح بعد خفاء ، وأصله : بمعنى : تبينتْ حصة الحق ، من حصة الباطل .

لا يهدى كيد الخائنين : أى : لا ينفذه ولا يوصله إلى غايته .

التفسير:

٥٠- وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ... الآية .

يفيد السياق : أن ساقى الملك ذهب إليه ، وأخبره بتفسير الرؤيا ، ولعله أخبره بما شاهد عن يوسف وأنه كريم حليم ، كامل الأوصاف ، كريم الأخلاق ، قد حُبس ظلما ؛ فأمر الملك أن يؤتى بيوسف لمقابلة الملك ، وليسمع منه تفسير الرؤيا مشافهة ، بعد أن نجح يوسف بما عجزت عنه الكهنة وكبار العلماء .

ولما وصل رسول الملك إلى يوسف ، يخبره برغبة الملك فى مقابلته ، رفض يوسف أن يخرج من السجن ؛ حتى يعاد التحقيق فى قضيته ؛ لتثبت براءته ، وطلب من الملك سؤال النسوة اللاتى جرحن أيديهن ، فجمعهنّ الملك فى مجلس تحقيق ، فى قضية مضى عليها بضع سنين .

إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ . إن ربى عليم بخفيات الأمور ، وبما دبَّرن من كيد لبعضهنّ ، ومن كيد لى ، وهذا التدبير فى خفاء يعلمه الله ، وهو بكل شىء عليم .

٥١- قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ...

جمع الملك النسوة ، ودعا امرأة العزيز معهن ؛ فسألهن عن أمر يوسف ، وقال لهن : ما شأنكنّ الخطير ؛ حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة ؟! ، وفى هذا يوجه الاتهام إلى النسوة ، بعد أن استقصى عن الموضوع كما هى العادة .

قال صاحب الظلال :

« ومن هذا نعلم شيئًا مما دار فى حفل الاستقبال فى بيت العزيز ، وما قالته النسوة ليوسف ، وما أشرن إليه من الإغراء الذى يبلغ درجة المراودة ، ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموغل فى التاريخ ... » اهـ .

قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ . أى : تنزيها لله ؛ يردن بذلك: تبرئة يوسف ، والاعتراف بنظافته وعفته.

مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ . أى : من ذنب ؛ أو من أمر سيئ ينسب إليه فضلا عن الفحشاء .

قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ . منزّهة لجانبه ، مقرَّة على نفسها بالمراودة له .

ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ . أى : بانت حصة الحق من حصة الباطل ، وظهر الحق بعد خفائه .

أَنَا رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ . ولم تقع منه المراودة لى أصلا .

وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المراودة إليها .

وذهب بعض المفسرين: إلى أن الكلام الآتى كلام يوسف ، وذهب آخرون إلى أنه كلام امرأة العزيز.

٥٢- ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ .

أى : قالت امرأة العزيز تعقيبًا على شهادتها ؛ ببراءة يوسف من مراودتها : إنى فعلت ذلك ، وبرَّأت ساحة يوسف ، مع أنّه غائب عن مجلسنا ؛ ليعلم يوسف أنِّى لم آخنه فى غيابه ولم أفتر عليه ، وليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين .

ولعل هذه السنون ، قد طحنت هذه المرأة ؛ ولعل ضميرها عذَّبها حين قذفت ببرىء إلى السجن ، طوال هذه المدة ، ولعلها تابت ورجعت إلى طريق النور والهدى ، وطرقت باب الله معلنة رغبتها فى التوبة إلى: غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ .

ويذهب بعض المفسرين : إلى أن هذه الآية من كلام يوسف ؛ حين ذهب مندوب الملك بنتيجة التحقيق، وبراءة يوسف على لسان النسوة ، وعلى لسان امرأة العزيز ؛ فقال يوسف : ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ . أى : هذا الذى فعلته ، من ردّ رسول الملك؛ حتى يحقق الملك فى قضيتى ، وتظهر براءتى ؛ ليعلم العزيز : أنى لم أخنه فى زوجته فى غيبته : بل تعففت عنها.

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ . أى : لا يوفّق الخائن ، ولا يسدد خطاه .

منزلة يوسف

بلغ يوسف منزلة عالية من النزاهة وكرم النفس ، وحسبك أنه لم يتعجل الخروج قبل أن تظهر براءته، براءةً علنية على هذا النحو المشرِّف ؛ وذلك أنه خشى أن يخرج من السجن ، وينال منزلة عالية ، فيقول الناس : هذا هو الذى راود امرأة مولاه ، وقد صفح عنه الملك ، وينظر إليه الناس باستمرار نظرة فيها ريبة وشك .

من الصحاح

ورد فى كتب الحديث الصحيحة : أن النبى ﷺ قال : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ،ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف ، ثم جاءنى الرسول ؛ لأجبت الداعى ، ثم قرأ : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ... »[١٠٥].

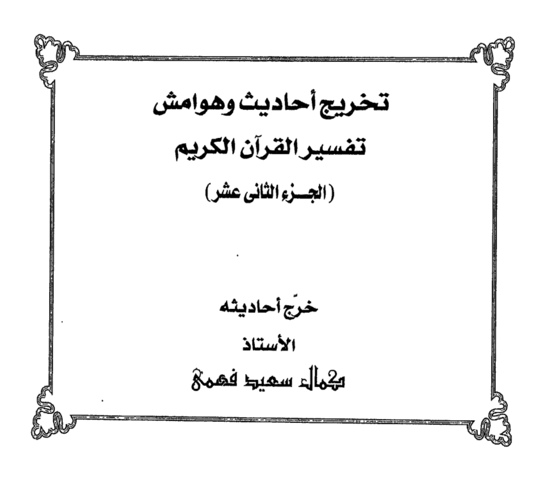
قال ابن عطية فى التفسير : مدح النبى ﷺ يوسف ، بالصبر والأناة ، ثم ذكر : أنه لو دُعِىَ إلى الخروج من السجن ؛ لبادر بالخروج ، ثم حاولوا بيان عذره وبراءته بعد ذلك .

يريد الرسول ﷺ : حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ حتى لا تضيع فرصة الخروج من السجن ، وتنصرف نَفْسُ مُخْرِجه عنه – وإذا كان يوسف قد أمن ذلك بعلمه من الله ؛ فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التى ذهب النبى ﷺ بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر وجلد . اهـ

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

وكان الفراغ منه عشية يوم الخميس ٥ صفر ١٤١٥ هـ / الموافق ١٤/٧/١٩٩٤م بمدينة المقطم – الهضبة العليا، مسجد حراء ، قرب ميدان النافورة ، والحمد لله حمدًا كثيرا طيبًا طاهرًا مباركا فيه كما يرضى ربنا ويحب ، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم

(الجـــزء الثانى عشر)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
كمال سعيد فهمى

(١) كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات :

رواه مسلم فى القدر (٢٦٥٣) ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ قال : وعرشه على الماء » .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير : اختصار وتحقيق: محمد على الصابونى ٢ - ٢١٢ ؛ وهو كلام يحمل مسئولية قائله ، أو هو تفسير خاص بصاحبه .

(٣) سائل مفروز بواسطة الغدد الخاصة بالتناسل ، وهو يحتوى على الحيوانات المنوية .

(٤) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ، للمستشرق موريس بوكاى ، الترجمة العربية ، نشر دار المعارف بالقاهرة ص ٢١٢.

(٥) أفش السلام ، وأطعم الطعام :

رواه أحمد فى مسنده (٧٨٧٣) من حديث أبى هريرة قال : قلت: يا رسول الله ، إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى، فأنبئنى عن كل شىء فقال: كل شىء خلقْ من ماء قال : قلت: يا رسول الله ، أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة قال: « أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام ». وأخرجه الحاكم ، وصححه البيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن نصر فى الصلاة ، وابن حبان كذا فى الدر المنثور .

(٦) تفسير المراغى ١٢ / ٦ .

(٧) عبارة المنار ؛ أن نفهم الكتابة ، وهى تصحيف عن الكناية .

(٨) إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث ، والدخان على حسب دلالة القرآن للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى ، فلعل كناية القرآن بقوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ للإشارة إلى الحالة الغازية الغالبة للمادة التى كونت الكون ، أو لعلها كناية عن ملك الله تعالى لأصل الحياة والأحياء .

(٩) تفسير المنار جزء ١٢ ص ١٦ ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٠) تفسير المنار ١٢ ص ١٨ ، ١٩ ، بتصرف واختصار .

(١١) فى ظلال القرآن ، بقلم الأستاذ : سيد قطب ، المجلد ٤ ، جزء ١٢ ، ص ١٨٥٨ .

(١٢) تفسير النسفى ٢ - ١٨٠ .

(١٣) لا تصدقوا أهل الكتاب :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٨٥) ، وفى الاعتصام (٧٣٦٢) ، وفى التوحيد (٧٥٤٢) ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : ﴿ آمنا بالله وما أنزل إلينا ... الآية .﴾ .

(١٤) باب التفسير ٨- ٢٩٧ من فتح البارى .

(١٥) القرآن والتفسير ، للدكتور : عبد الله شحاتة ، ص ٢٥١ .

(١٦) عمدة التفسير ، عن الحافظ ابن كثير ص ١٤ .

(١٧) فتح البيان في مقاصد القرآن – صديق خان ٤ / ٣٣٠ ، دار الفكر العربى .

(١٨) فتح البيان : صدّيق خان ٤ / ٣٠ دار الفكر العربى .

(١٩) تفسير المنار ١٢ / ٣٢.

(٢٠) تفسير القرآن الشهير بتفسير المنار ١٢ / ٤٤ ، طبعت بالأوفست (الطبعة الثانية) دار المعرفة لبنان .

(٢١) تفسير التحرير والتنوير تأليف محمد الطاهر بن عاشور ١٢ / ٢٠، ٢١ الدار التونسية للنشر .

(٢٢) تفسير المراغى ١٢ / ١٤ ، ١٥.

(٢٣) قارن بتفسير المنار ١٢ / ٢٣٣، وتفسير التحرير والتنوير ١٢ / ٢٢ .

(٢٤) تفسير أبى السعود ٤/ ١٩٣، ١٩٤ ، دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان .

(٢٥) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ :

رواه البخارى (١، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣) ، ومسلم فى كتاب الإمارة حديث رقم (٣٥٣٠) ، والترمذى فى كتاب فضائل الجهاد حديث رقم (١٥٧١) ، والنسائى فى كتاب الطهارة حديث رقم (٧٤) ، وفى الطلاق حديث رقم (٣٣٨٣) ، وفى الأيمان والنذور حديث رقم (٣٧٣٤) ، وأبو داود فى كتاب الطلاق حديث رقم (١٨٨٢) ، وابن ماجة فى كتاب الزهد حديث رقم (٤٢١٧) ، وأحمد فى مسنده رقم (١٦٣، ٢٨٣) ، من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢٦) التفسير المنير د. وهبة الزحيلى ١٢ / ٣٩ .

(٢٧) التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوى المجلد السابع سورة هود ص ٤٣ .

(٢٨) تفسير أبى السعود ٤ / ١٩٥ ، والمراد بالأول : المؤمنون بالنبى محمد ﷺ .

(٢٩) والذى نفسى بيده ! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة :

رواه مسلم فى الإيمان (٢١٨) ، وأحمد فى مسنده (٧٨٥٦) ، من حديث أبى هريرة : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذى نفس محمد بيده ! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به ؛ إلا كان من أصحاب النار » .

(٣٠) التفسير المنير : ١٢ / ٤٢.

(٣١) يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه :

البخارى فى التوحيد (٧٥١٤) ، ومسلم فى التوبة (٢٧٦٨) ، وابن ماجة فى المقدمة (١٨٣) ، كلهم عن ابن عمر رضى الله عنه .

(٣٢) تفسير المنار ١٢ / ٥٩ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

(٣٣) إن الله لا ينظر إلى صوركم :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) ، وابن ماجة فى الزهد (٤١٤٣) ، وأحمد فى مسنده (٧٧٦٨) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

(٣٤) المصحف المفسر ، للأستاذ : محمد فريد وجدى ، ص ٢٩٠ .

(٣٥) أمان لأمتى من الغرق :

رواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٥٠١) ، من حديث الحسين بن على قال : قال رسول الله ﷺ « أمان لأمتى من الغرق؛ إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ . ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ . إلى آخر الآية . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (١٦١٣) ، ونسبه لأبى يعلى فى مسنده ، وابن السنى ، ورمز لضعفه . قال المناوى فى فيض القدير : قال ابن حجر : وجنادة ضعيف ، وشيخه أضعف منه ، وشيخ شيخه كذلك، بالاتفاق فيهما ، وطلحة مجهول . انتهى . وفى الميزان يحيى بن العلاء قال أحمد : كذاب يضع الحديث ، ثم ساق له أخبارا هذا منها . وقال الهيثمى فى المجمع : رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مغلس وهو ضعيف . وقال الهيثمى فى المجمع: عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : أمان أمتى من الغرق ؛ إذا ركبوا السفن أو البحر أن يقولوا : بسم الله الملك ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، ﴿ بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، وفيه نهشل بن سعيد ، وهو متروك .

(٣٦) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٠٩ .

(٣٧) تفسير القاسمى نقلا عن الإمام السكاكى فى كتابه : المفتاح ، بحث البلاغة والفصاحة ، وانظر تفسير سورة هود للدكتور : محمد سيد طنطاوى ، ص ٨٤ .

(٣٨) تفسير القاسمى .

(٣٩) التفسير المنير ١٢ / ٨٧ .

(٤٠) تفسير القرطبى .

(٤١) تفسير المراغى للأستاذ : أحمد مصطفى المراغى ، المجلد الرابع ، جزء ١٢ ص ٤٥ ، وهو كلام حسن .

(٤٢) انظر تفسير الآلوسى ، وتفسير أبى السعود ، والتفسير المنير ، والتفسير الوسيط للدكتور : محمد سيد طنطاوى .

(٤٣) تفسير الكشاف للزمخشرى .

(٤٤) لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٦١٣) ، من حديث أبى ذر : « يقول الله عز وجل : يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديت، فسلونى الهدى أهدكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، فسلونى أرزقكم ، وكلكم مذنب إلا من عافيت ، فمن علم منكم أنى ذو قدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى ، ولو أن أولكم وآخركم .. الحديث » ، وقال : هذا حديث حسن وروى بعضهم هذا الحديث عن شهر بن حوشب عن معد يكرب ، عن أبى ذر عن النبى ﷺ نحوه . قلت : مداره على شهر بن حوشب، وفيه مقال. ورواه أحمد من حديث أبى ذر عن النبى ﷺ يرويه عن ربه : قال : ابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان فيك ، ابن آدم ، إن تلقنى بقراب الأرض خطايا ؛ لقيتك بقرابها مغفرة ، بعد أن لا تشرك بى شيئًا ، ابن آدم

إنك إن تذنب حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ثم تستغفرنى أغفر لك ولا أبالى – ولفظ أحمد قريب من لفظ حديث الباب – قال الهيثمى فى المجمع : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : يا ابن آدم ؛ إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ، ولو أتيتنى بملء الأرض خطايا لقيتك بملء الأرض مغفرة ما لم تشرك بى ولو بلغت خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى لغفرت لك . ثم قال : رواه الطبرانى فى الثلاثة وفيه إبراهيم بن إسحاق الصينى وقيس بن الربيع وكلاهما مختلف فيه ، وبقية رجاله رجال الصحيح . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٠٨٨) : لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم ؛ لتاب الله عليكم . رواه ابن ماجة عن أبى هريرة وسنده جيد . قال المنذرى : ويشهد له ما رواه الترمذى وحسنه عن أنس ، والطبرانى عن ابن عباس ، والبيهقى عن أبى ذر ، وابن النجار عن أبى هريرة بلفظ : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ؛ إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ... الحديث » . وذكره الهندى فى الكنز (١٠٤٣٦) عن معد يكرب، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل ، « قال : يا ابن آدم ، ما دعوتنى ورجوتنى فإنى سأغفر لك على ما كان منك ، ولو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ؛ لقيتك بقرابها مغفرة ، ولو عملت من الخطايا حتى تبلغ عنان السماء ما لم تشرك بى شيئا ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى » .

(٤٥) تفسير المراغى ١٢ / ٦١ . اهـ ؛ والله تعالى منزه عن أن يحدّه زمان أو يحويه مكان فهو سبحانه علة العلل ؛ ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، وما أروع حديث القرآن الكريم عن الموضوع . فقد تحدث بما يتناسب وجلال الله العظيم ، وصفاته ، وألوهيته ، وعدم مشابهته للحوادث .

(٤٦) انظر التفسير المنير ، وتفسير ابن كثير ، والتفسير الوسيط للدكتور : محمد سيد طنطاوى .

(٤٧) يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢ ، ٣٣٧٥ ، ٣٣٨٧) ، وفى التفسير (٤٦٩٤) ، ومسلم فى الإيمان (١٥١) ، والترمذى فى التفسير (٣١١٦) ، وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٦) ، وأحمد فى مسنده (٨٠٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد .

(٤٨) إن الله ليملى للظالم ؛ حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخارى فى التفسير باب : قوله : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ، (٤٤٠٩) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجة فى الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . قال : ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٤٩) يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد :

تقدم ص (٢٢٤٤) .

(٥٠) انظر تفسير القاسمى للآية . وقد نقل كلام الإمام ابن حزم فى هذا المعنى .

(٥١) سيكون فى آخر أمتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال :

ذكره القرطبى فى تفسيره .

(٥٢) تفسير القاسمى ٩ / ١٦٢ .

(٥٣) تفسير ابن كثير .

(٥٤) تفسير المنار للسيد رشيد رضا ١٢ / ١٤٥ .

(٥٥) مختصر تفسير ابن كثير للأستاذ محمد على الصابونى ٢ / ٢٣٠ .

(٥٦) التفسير الوسيط ، تفسير سورة هود ، للدكتور طنطاوى ، ص ١٤٨ .

(٥٧) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٥٨ .

(٥٨) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٥٨ .

(٥٩) إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

تقدم ص (٢٢٤٦) .

(٦٠) انظر : تفسير ابن جرير الطبرى للآية ، وابن كثير .

(٦١) تفسير سورة هود ، للدكتور محمد سيد طنطاوى ص ١٦٩ ، نقلاً عن تفسير ابن كثير .

(٦٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٦٠ ، وانظر التفسير المنير ١١ / ١٥٣ .

(٦٣) لن يُدخل أحدا عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنت :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ، ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لن يدخل أحدا عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟! ، قال : ولا أنا ؛ إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت : إما محسنا ؛ فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا ؛ فلعله أن يستعتب .

(٦٤) يؤتى بالموت على صورة كبش :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٧٣٠) ، والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٥٦) ، من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة ﴾ ، وهؤلاء فى غفلة أهل الدنيا ، ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ . ورواه ابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٧) ، والدارمى فى الرقاق (٢٨١١) وأحمد فى مسنده (٧٤٩٣ ، ٨٦٨٩، ٩١٨٦)، من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : يؤتى بالموت ، بكبش أغبر فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، ويقال : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، ويرون أن قد جاء الفرج فيذبح ويقال : خلود لا موت .

(٦٥) ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا :

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٣٧) ، والترمذى فى التفسير (٣٢٤٦) ، والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٨٠٥٩)، من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة أن النبى ﷺ قال : ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبوا ، فلا تهرموا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبأسوا أبدًا ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

(٦٦) شيبتنى هود .

(٦٧) قل آمنت بالله ثم استقم :

رواه مسلم فى الإيمان (٣٨) ، والترمذى فى الزهد ، (٢٤١٠) ، وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٢) ، وأحمد فى مسنده ، حديث رقم (١٤٩٩١ ، ١٤٩٩٢، ١٤٩٩٣ ، ١٨٩٣٨) ، والدارمى فى الرقاق (٢٧١٠ ، ٢٧١١) ، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى. وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٦٨) بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخارى فى العلم (٦٩) ، من حديث أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ قال : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا . رواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١) ، من حديث أبى موسى قال ٠ كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال : بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا . ورواه البخارى فى الأدب (٦١٢٤) ، وفى المغازى (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢) ، ومسلم فى الأشربة (١٧٣٣) ، وأحمد فى مسنده (١٩٢٠٠) ، من حديث أبى موسى قال ، لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما : يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ، قال أبو موسى: يا رسول الله ، إنا بأرض يصنع فيها شراب من العسل يقال له : البتع ، وشراب من الشعير يقال له : المزر ، فقال رسول الله ﷺ : كل مسكر حرام .

(٦٩) لن يشاد الدين أحد إلا غلبه :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٩) والنسائى فى الإيمان (٥٠٣٤) ، من حديث أبى هريرة : عن النبى ﷺ قال : « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة ».

(٧٠) كانت صلاته قصدا وخطبته قصدا :

رواه مسلم فى الجمعة (٨٦٦) وأبو داود فى الصلاة (١١٠١) والترمذى فى الجمعة (٥٠٧) ، والنسائى فى الجمعة (١٤١٨) وفى العيدين (١٥٨٢) ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١١٠٦)، والدارمى فى الصلاة (١٥٥٧) ، وأحمد فى مسنده (٢٠٣٧٢) من حديث جابر بن سمرة قال : كنت أصلى مع رسول الله ﷺ ، فكانت صلاته قصدا وخطبته قصدا .

(٧١) التفسير المنير أ . د . وهبة الزحيلى ١٢ / ١٦٩ .

(٧٢) زيدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ص ٣٠١ .

(٧٣) اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات :

رواه مسلم فى البر (٢٥٧٨) ، من حديث أبى هريرة . وأحمد (٥٦٢٩، ٦١٧١) ، من حديث ابن عمر رضى الله عنه .

(٧٤) يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) ، وابن ماجة ح (٤٢٧٥) وأحمد (٥/ ١٥٤، ١٦٠ ، ١٧٧) ، وعبد الرزاق ح (٢٠٢٧٢) ، من حديث أبى ذر .

(٧٥) ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر :

رواه الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٥) وفى الدعوات (٣٥٩٨) ، وابن ماجة فى الصيام (١٧٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٧٩٨٣) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ؛ يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب : وعزتى ! لأنصرنك ولو بعد حين » .

(٧٦) ما من مسلم يذنب ذنبا ثم يتوضأ :

رواه أحمد فى مسنده (٢، ٤٨، ٥٩) ، وأبو داود فى الصلاة (١٥٢١) ، والترمذى فى الصلاة (٤٠٦) ، وفى التفسير (٣٠٠٦)، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٩٥) من حديث على رضى الله عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر قال : قال رسول الله ﷺ: ما من مسلم يذنب ذنبا ثم يتوضأ فيصلى ركعتين ، ثم يستغفر الله تعالى لذلك الذنب ؛ إلا غفر له ، وقرأ هاتين الآيتين : ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ ، ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ... الآية ﴾ .

(٧٧) اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة :

رواه الترمذى فى البر (١٩٨٧) ، والدارمى فى الرقاق (٢٧٩١) ، وأحمد فى مسنده (٢٠٨٧٤) ، من حديث أبى ذر قال : قال لى رسول الله ﷺ : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وذكره بإسناده من حديث معاذ بن جبل ، عن النبى ﷺ نحوه وقال : قال : محمود . والصحيح حديث أبى ذر . ورواه أحمد فى مسنده (٢١٥٥٤) ، من حديث معاذ أنه قال : يا رسول الله ، أوصنى ، قال : « اتق الله حيثما كنت» ، أو أينما كنت ، قال : زدنى ، قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، قال : زدنى ، : قال : « خالق الناس بخلق حسن » .

(٧٨) أن رجلا أصاب من امرأة قبلة :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٢٦) ، وفى التفسير (٤٦٨٧) ، ومسلم فى التوبة (٢٧٦٣) ، والترمذى فى التفسير (٣١١٢، ٣١١٤) ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٩٨) ، وفى الزهد (٤٢٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٣٦٤٤) ، من حديث ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبى ﷺ فأخبره ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أقم الصلاة طرفى النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ، فقال الرجل : يا رسول الله ، ألى هذا ، قال : « لجميع أمتى كلهم » .

(٧٩) انظر : التفسير القرآنى للقرآن ، المجلد الثالث ١٢١٣، وقد نقل كلامًا مناسبا عن الجاحظ ، خلاصته : أن تفرق الناس بين مهمل ، ومجدّ ومتوسط ؛ من أسباب إعمار الكون وتناسق أهله .

(٨٠) السقط : ردىء المتاع .

(٨١) قط : بمعنى : حسب ، وهو الاكتفاء . والقطّ : الكتاب والصك بالجائزة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عجل لنا قِطّنا ﴾ .

(٨٢) والتنوين فى قوله تعالى : ﴿ وكلاً ﴾ للعوض عن المضاف إليه ، أى : (وكل نبإ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك ونخبرك به ؛ فالمقصود به : تثبيت قلبك وتقوية يقينك) .

(٨٣) من كتاب : أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم ، د. عبد الله شحاتة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٣٩ .

(٨٤) الرؤيا يراها الرجل :

رواه البخارى فى التعبير (٦٩٩٠) من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات ؟! قال : «الرؤيا الصالحة» . ورواه مسلم فى الصلاة (٤٧٩) ، وأحمد ح (١٩٠٣) ، والنسائى فى التطبيق ح (١٠٥٤، ١١٢٠) ، وأبو داود فى الصلاة ح (٨٧٦) ، وابن ماجة فى تعبير الرؤيا ح (٣٨٩٩) ، والدارمى فى الصلاة ح (١٣٢٥) ، من حديث ابن عباس قال : كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر ، فقال : « أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة : إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، ألا وإنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا

فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل ، وأما السجود ، فاجتهدوا فى الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم » . ورواه الترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٢) ، وأحمد فى مسنده (١٣٤١٢) ، من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدى ، ولا نبى . قال : فشق ذلك على الناس فقال : « لكن المبشرات » ! قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟! قال: « رؤيا المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة » . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه ابن ماجة فى تعبير الرؤيا (٣٨٩٦) ، والدارمى فى الرؤيا (٢١٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٦٠٠) ، من حديث أم كرز الكعبية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ذهبت النبوة ، وبقيت المبشرات » . ورواه أحمد فى مسنده (٢٣٢٨٣) ، من حديث أبى الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : «لا نبوة بعدى إلا المبشرات » ، قال : قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟! ، « قال الرؤيا الحسنة ، أو قال الرؤيا الصالحة» .ورواه أحمد فى مسنده (٢٤٤٥٦) ، من حديث عائشة أن النبى ﷺ : قال : « لا يبقى بعدى من النبوة شىء إلا المبشرات» ، قالوا: يا رسول الله ، وما المبشرات ؟! ، قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » ورواه مالك فى الموطإ كتاب الجامع (١٧٨٣) من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ : قال : « لن يبقى بعدى من النبوة إلا المبشرات » ، فقالوا : وما المبشرات يا رسول الله؟! قال: « الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ».

(٨٥) انظر : تفسير ابن كثير ، حيث نقل ذلك بتوسع عن محمد بن إسحاق فيما رواه ابن أبى حاتم .

(٨٦) تفسير القرطبى .

(٨٧) انظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية ، وتفسير الآلوسى ، وتفسير سورة يوسف ، للدكتور محمد طنطاوى .

(٨٨) لا سبق إلا فى خف أو فى حافر أو نصل :

رواه أبو داود فى الجهاد (٢٥٧٤) ، والترمذى فى الجهاد (١٧٠٠) ، والنسائى فى الخيل (٣٥٨٥) ، وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٨) ، وأحمد فى مسنده (٧٤٣٣) ، من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول ﷺ : « لا سبق إلا فى خف ، أو فى حافر ، أو نصل » .

(٨٩) هذه بتلك السبقة :

رواه أبو داود فى الجهاد (٢٥٧٨) ، وأحمد فى مسنده (٢٥٧٤٥) ، من حديث عائشة رضى الله عنها : أنها كانت مع النبى ﷺ : فى سفر ، قالت : فسابقته ، فسبقته على رجلى ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقنى ، فقال :« هذه بتلك السبقة».

(٩٠) الكريم ابن الكريم :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) ، وفى التفسير (٤٦٨٨) ، وأحمد فى مسنده (٥٦٧٩) ، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » . ورواه الترمذى فى التفسير (٣١١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » ، قال : ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف ثم جاءنى الرسول أجبت ثم قرأ : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴾ ، قال : «ورحمة الله على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ ، فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذروة من قومه » . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٩١) إن الله تجاوز لأمتى :

رواه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٦٤) ، وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٠، ٢٠٤٤) (٧٤٢١) ، من حديث أبى هريرة يرفعه، قال : إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم .

(٩٢) إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٠١) ، ومسلم فى الإيمان (١٢٩) ، والترمذى فى التفسير (٣٠٧٣) (٢٧٤٤١) ، من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ؛ فإن عملها ، فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى ، فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها ؛ فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

(٩٣) المصحف المفسّر للأستاذ : محمد فريد وجدى ، ص ٣٠٦ .

(٩٤) تفسير الآلوسى للآية .

(٩٥) تفسير الكشاف الجزء الثالث ، ص ٧١ .

(٩٦) انظر : تفسير الآلوسى ١٢ / ١٩٥ ؛ والتفسير الكبير ، للإمام فخر الدين الرازى ، فقد أشاد بعبقرية المرأة ، ودهائها ومكرها وسيطرتها على زوجها ، واستمرار تهديدها ليوسف حتى تلين قناته فى يدها .

(٩٧) انظر تفسير القرطبى للآية ، المسألة الثالثة .

(٩٨) تفسير النسفى ٢ / ٢١٩ .

(٩٩) تفسير محمد بن جرير الطبرى ، المتوفى سنة : ٣١٠ هـ ، مطبعة بولاق بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ ، ج ١٢ ، ص ١٢٤ .

(١٠٠) فى ظلال القرآن ، للأستاذ : سيد قطب ١٢ / ١١٠ ، طبع دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(١٠١) انظر : التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء ، الحزب الرابع والعشرون ، ص ٣٢٩ .

(١٠٢) الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٩٢) ، وفى الطب (٥٧٤٧) (٦٩٨٤، ٦٩٨٦، ٦٩٩٥، ٧٠٠٥) ، ومسلم فى الرؤيا (٢٢٦١) ، ومالك فى الموطإ كتاب الجامع (١٧٨٤) ، وأبو داود فى الأدب (٥٠٣١) ، والترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٧) ، وابن ماجة فى تعبير الرؤيا (٣٩٠٩) ، والدارمى فى الرؤيا (٢١٤١) ، وأحمد فى مسنده (٢٢٠١٩) ، من حديث أبى قتادة عن النبى ﷺ : « الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلما يخافه ؛ فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها : فإنها لا تضره » .

(١٠٣) اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت :

رواه أبو داود فى الطب (٣٩١٩) ، من حديث عروة بن عامر قال أحمد القرشى : قال : ذُكرت الطيرة عند النبى ﷺ فقال : « أحسنها الفأل ولا ترد مسلما فإذا رأى أحدكم ما يكره ؛ فليقل : اللهم ، لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

(١٠٤) فى ظلال القرآن ١٢ / ١١٤ .

(١٠٥) إن الكريم ابن الكريم :

رواه الترمذى فى التفسير (٣١١٦) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » قال : ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف ، ثم جاءنى الرسول : أجبت ثم قرأ:

﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴾ ، قال : « ورحمة الله على لوط : إن كان ليأوى إلى ركن شديد ، إذ قال : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ ، فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذروة من قومه » . وقال الترمذى : حديث حسن . والحديث رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) ، وفى التفسير (٤٦٨٨) ، وأحمد فى مسنده (٥٦٧٩) ، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما : عن النبى ﷺ : قال : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . وقد تقدم ص (٢٣٠٧) .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء (الثانى عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله تفسير الجزء الثانى عشر

ويليه تفسير الجزء الثالث عشر إن شاء الله تعالى

